المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

يونيو 2016

413

عاصمة الثقافة الإسلامية 2016

Kuwait Capital of Islamic Culture 2016

اليوم السابع

رواية

تأليف: يو هوا

ترجمة: أ. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

اليـوم السابع
رواية صينية طويلة

العنوان الأصلي

第 七 天

余华 著

新星出版社

年 2013

© The KNOPF DOUBLE DAY GROUP, 2014

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م

إبداعات عالمية - العدد 413

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

اليوم السابع

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

اليوم السابع

رواية صينية طويلة

تأليف: يو هوا

ترجمة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

إبداعات عالمية

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:

م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:

أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:

أ. د. سليمان علي الشطي

د. ليلى عثمان فضل

د. زبيدة علي أشكناني

د. علي عجيل العنزي

د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي

سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-502-0

مقدمة الكاتب الصيني المعاصر «يوهوا»
ورائعته.. رواية «اليوم السابع»

لم تعد شخصية يوهوا الكاتب الصيني الكبير غريبة على القارئ العربي، فقد ظهرت ترجمات لبعض أعماله الروائية، وسعدنا بالإسهام في هذا الميدان، فقدمنا ترجمة الدرة الخالدة «على قيد الحياة» التي ظهرت مطبوعة في سلسلة «إبداعات عالمية» في دولة الكويت العدد (405)، وقدّمنا لها بدراسة تناولنا فيها حياة يوهوا بالوصف الموجز، وفنّه بالدراسة والنقد، ونحب أن يكون حديثنا عن رواية «اليوم السابع» مرتبطًا بالحديث الذي قدمنا به الرواية الرائعة «على قيد الحياة».

لا مِراء في أن نرى أنَّ مِن الأوفق البدء بقولنا: إن آثار كاتبنا الأدبية وأعماله الروائية جمعت بين الحياة الإنسانية بوجه عام والحياة الصينية بوجه خاص، فهو الكاتب المجيد - كما يقول الأديب محمد حسين هيكل - خير حياة وأكفلها ببقاء الذكر.

ولعل هذا أفضل مدخل لأدب هذا الكاتب العظيم الذي يعيش زاهدًا ومتبتلا في محراب الإنسانية في كل ساعة من ساعات النهار من سَدَفَةِ السَّحَرِ إلى روس الأصيل، وما دام الكاتب الفنان قد رزق البصيرة الفنية فإنها ستنفذ من خلال غواشي بيئته وعصره إلى الحقائق الساطعة الخالدة. وأعماله تجعلنا نشعر بأن البشر لا حيلة لهم ولا قدرة أمام سطوة الأقدار، وإدبار الحظ، ووقوع المكاره، وأنها ترينا كيف تهوى العظمة من عليائها، وتنهار القوة، وتصوع زهرة الجمال، ويعتريها الذبول، ويعصف الموت بكل أسباب الحياة.

ولا نعـدو الحقيقـة إذا قلنا إن كاتبنـا الذواقة يُعد أثرًا جليلاً مـن آثـار الأدب المعاصر فـي الصين وخارجها، ويشـهد على ذلك قدرتـه الفائقـة على وصف أطـوار النفوس وقـراءة القلوب، وكل صـورة من صـوره لهـا جوها الخـاص ومعالمهـا البـارزة وقصتها المتفردة، فهو لا يُجري القلم على القرطاس إلا بعد أن يكون قد اسـتكمل صورة الفكرة التي سيبديها، ووضحت معالمها وأبعادها، وهو يؤمن بها في طوايا نفسه، ويكشف مكنونات الحياة، ويوضح أسـرارها، ناهيـك عـن الغـوص في دنيـا الممات وكشـف الصعاب وتذليلها، ومعالجة العُقد المؤرية والمشكلات المستعصية.

وفـي وسـع الكاتب إذا شـاء وصحـت عزيمته أن يكـون القائد الـذي يسـير بالناس ويتقدمهم إلـى أرض الميعـاد، وينقلهم إلى عالـم خير من هذا العالم الراهـن. ولا مندوحة أن يقول كاتبنا: «عندمـا أصـف آلام الصـين، فأنا أصـف آلامي أيضًـا، وذلك لأن آلام الصـين هي آلامـي وأوجاعي أيضًا»، مصدِّقًا مقولة الشـاعر الإنجليـزي شـيلي: «إن أعـذب ألحاننـا وأحلى أغانينـا هي تلك الألحان والأغاني التي نعبّر بها عن عميق حزننا وبالغ أسانا».

وكاتبنا المنطيق أجمع عزمه على ألا يُطيع غير وحي شيطانه، فأعلـن أنه اختار لنفسـه مهنة الأدب وإن تكـن غير مضمونة ولا مأمونـة، فهو يحاول التنفيس عن نفسـه، والتشـاغل عما يَرِينُ على صدره، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال الإنسان في عصره، فهـو يعيش متمـردًا على مفـردات الواقع الاجتماعـي في زمنه، ولعـل ذلـك مـا جعله يحطـم قيـوداً وأصفـاداً، بل ويتحـرر من ربقـة «رواية الطلائـع» التي تمجّد وتبجّل الأسـلوب الثوري. إنه التحـرر مـن الولع المفـرط بالموضوع الرئيس مـن العنف والموت،

والانطلاق من واقع الحياة الحقيقية في الصين، ووصف حياة العامة والدهماء والفلتاء من الأفراح والأتراح، والآلام والأوجاع والأحزان، بالإضافة إلى أن الاهتمام بحياة الإنسان ما زال يمثل لُبّ كتاباته وأعماله وجوهرها إيمانًا منه بقيمة الوجود الإنساني ومغزاه وأهميته.

ويلج قلم أديبنا آفاقاً جديدة أملاها الواقع الجديد في الصين في أعقاب سياسة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، والرواية التي بين أيدينا كتبها خلال رحلته التعيسة والفظة في مسار الجحيم الأرضي وجحيم الآخرة، إنها رواية «الآلام» و«الأوجاع»، وتندرج في أدب «عذابات الإنسان»، إنها «الآلام» التي تحاصر العصر قاطبة، و«الأوجاع» التي تئنُّ من وطأتها النماذج البشرية كافة في المجتمع الصيني بأسره.

وفي عبارة أخرى، إنها الرواية التي جسّدت سخط كاتبنا على الحياة، فقد كان - ولا يزال - ناقمًا على العصر وأبنائه، مضطغنا على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من الكتّاب الصينيين المعاصرين، ويحتفر لنفسه مسيلاً، فقد تعلّم أن يخترق الصخور أو يعلوها، وزهد في اللين الدمث الذي لا يشقّ عليه أن ينساب فيه.

رواية «اليوم السابع» هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في العصر، وذلك كما جاءت في أعماله السابقة، والسياق الاجتماعي الذي وقعت فيه أحداث الرواية في عالم ينكره الكاتب إنكارًا ذاتيًا، وفي هذا العالم لم يعد القدر المحرك الأول للحياة. إن الأوضاع الفاجعة التعيسة الناجمة عن الحقيقة المزرية قد أصبحت علامة ودلالة على الوجود

التجريدي الثابت في هذا العصر، أمّا الموت فهو عبارة عن مجرد شكل آخر من أشكال التغيير في حقيقة الوجود.

الرواية تصور مآسي الحياة التي تصقل نفوسنا، وتشد عزمنا، وتشحذ قدرتنا على النضال وتقوّي استعدادنا لملاقاة الخطوب، ودفع الكوارث، فهي بمثابة التطعيم الذي يُكسب الجسم مناعة ترد غائلة المرض، ويقضي على جراثيم الداء.

الرواية تستخدم الارتجاع الفني في إيراد الأحداث الماضية، وتستخدم الضمير «أنا» في السرد الروائي، وتسرد قصة رجل عادي؛ بطل الرواية (يانغ فيي)، الذي يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. وفي الوقت نفسه، يقتحم الكاتب ذاكرة البطل الذي يُفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته، ففي اليوم الأول من مماته، يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية»، وعلى كل حال، ما زال يعاني ويتعذب من المعاملة الفظة التي تصيبه بالحزن والألم الشديدين، ولا يجرؤ على أن يحرق جسده، لأنه يفتقر إلى قبر يواري جثته، ويستطيع فقط التجوال والطواف والتشرد، ويمشي الهوينى في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وبعد انقضاء سبعة أيام، يقابل بصورة مستمرة بشرًا من كافة الأصناف والأطياف يتجولون ويطوفون حول تلك الأرض، كما يتذكر ويستعرض الأحداث الماضية والمؤلمة في حياته، منذ أن كان «طفلا يحبو في قماطه» إلى أن شب عن الطوق، إلى أن رحل عن هذه الدنيا.

كانت ولادة بطل الرواية (يانغ فيي) في دورة مياه قطار، ويسقط منها على قضبان السكة الحديدية، وينقذ حياته أبوه (يانغ جين بياو) الذي تبناه وقام على رعايته وتربيته وتجشّم

المصاعب والمتاعب حتى كبر وترعرع، وبعد حب عميق ربطه بالفتاة (لي تشينغ) تزوجها وأصبحت زوجته، ثم ما لبث أن طلقها بعد أن أدارت ظهرها له ووقعت في حبائل عشق شاب آخر. ويجري دولاب الزمن سريعًا، ويتمكن يانغ فيي من الوصول إلى أبويه اللذين ينحدر من صلبهما ودمهما، ويبقى معهما فترة أقصر من عمر الزهور، ويفقد معهما الانسجام والوئام، ولا يشعر بالسعادة البتة، ثم سرعان ما يعود أدراجه ويرتمي فى أحضان زوجة والده بالتبني وتُدعى (لي يو جين) وهي الأم الظِئر (المرضعة لغير ولدها) التي منحته كل أسباب الراحة والرعاية والحب والحنان فى مشوار حياته الطويل حتى أصبح قادرًا على مواصلة الحياة، ولكن المصائب والكوارث تحاصر «يانغ فيي» من كل جانب، ويسقط أبوه في غوائل مرض عضال ويصبح مشردًا بلا مأوى، ويلقى حتفه في حريق اندلع في مطعم..

وفي الوقت نفسه، يحكي ويسرد بطل الرواية كل ما رآه وسمعه في «أرض الأموات الذين لم يُدفنوا»، حيث يقابل كثرة كاثرة من الغرباء من كافة النماذج البشرية الذين يئنُّون من وطأة الأحزان والآلام والمشاعر الكئيبة والأحاسيس الحزينة مثل الفتاة (شوميي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفًا خلويًا مغشوشًا، كما أن صديقها ويُدعى (وو تشاو) يبيع كليته من أجل أن يشتري قبرًا لصديقته، ثم يلقى حتفه بعد أن أصابه التلوث من جراء العملية الجراحية لاستئصال كليته.

ومن الجليّ أن الهيكل الروائي واضح، وتتشابك فيه خطوط الماضي والحاضر، والإيقاع اللغوي الروائي والسرد الروائي

يتسـمان بالترتيـب والتنسـيق الهائـل. ويسـتخدم كاتبنا وجهة النظـر التـي تقترب بلا حـدود من الحقيقة لوصـف الخيال في العالـم الواقعـي، وتحقيـق إنقاذ الحيـاة في الفراغ المجسّـم بين الحيـاة والموت، ويحـاول من خـلال السـرد الروائـي الضخم، أن يصـف ويجسّـد الآلام والأوضاع في كافة مناحـي الحياة، ويقيم عالمًـا من الكمال والجمال ليخفف من حدة الهجوم على الحياة من جانب الشـعور بالشـقاء والعذاب الناجم عن فواجع ومآسي المجتمع المعاصر في الصين.

ولعل من نافلة القول، أننا نشـعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليـه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه، ويُفضي إلينا بدخائل نفسـه، ناهيـك عن الحـزن الولّاج الـذي تنضح به حـروف قلمه عندما يميط اللثام ويكشـف عـن مظاهر الحيـاة الاجتماعية من الأرز المسـموم، وخُبز البخار (المانتو) المسـموم، ولبن الأطفال المصنوع مـن بروتين الحيوانـات، والمعكرونة المصنوعـة من الجبس، وجبن فـول الصويـا مـن البـراز، وزيت الطعام المسـتخرج مـن أحواض بمواسـير الصرف الصحي، بالإضافة إلى تجسيد ملامح الحياة الاجتماعيـة الأُخـرى التـي ينـدى لهـا الجبـين، وتُقطّـع نياط القلـوب، وتُصيبنـا بالخزي والعـار بعد تردّي الضمير الإنسـاني فـي الصـين إلى أدنـى مـدارج التقدم الإنسـاني والحضـارة عبر تاريخ البشرية جمعاء، ومن ثم، أحداث المسرحية - على نحو من الأنحـاء - لا تسـير فـي أرض ميثاء وطريق ممهد، بل تسـير في طريق وعر بين ارتفاع وصبب وحافل بالصخور المركومة.

و ما يسـترعي الأنظار، ويملأ الأسـماع، ويبقى ذكره مع الأيام مقولـة كاتبنـا التي جـاء فيها أن: «مهمـة الكاتب ليسـت إظهار

الاستياء والامتعاض، ولا الاستهجان والاستنكار، أو التعرية وكشف النقاب، بل يتعين على الكاتب أن يبرز للعيان المُثل العليا والنبل والشهامة». ولا غرو أننا عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يُدفنوا في العالم الآخر، سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا، ويصقل وجداننا، وقد يطوف طائف من الحزن، وتطفر الدموع من عيوننا، ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا، وتحليق عقولنا، وصفاء خواطرنا، وكأننا قد نُقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة، وأكثر طهارة، وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

وعلى هذا النحو، قد أكمل كاتبنا الدائرة بين الحياة والموت، وحقق أقسى وأقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق، وتحرى الوقائع، ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى الصين في العصر الحاضر، والكاتب الحق هو من يزود قرَّاءه بقوى تدفعهم إلى الأمام، ويستنهض هممهم، ويوقظ ضمائرهم، فهو شديد الإحساس، لطَاف الشعور، دقّاق الإدراك، وهي السمات التي أفردته بين الكتّاب المعاصرين إفراد الطائر الصدَّاح في غير سربه.

وزبدة القول: إن توهج قلم كاتبنا في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنساني لم يدّخر وسعًا في اجتثاث جذور الفساد من كافة مناحي الحياة الاجتماعية في الصين، وتشذيب النفوس من كل شائبة وضغينة، أو بالأحرى كما قال شاعر فرنسا العظيم بودلير (1821 - 1867): «سأقصف عود هذه الشجرة البغيضة حتى لا تطلع براعمها المريضة».

د. عبدالعزيز حمدي

ديسمبر 2015

اليوم الأول

عندما كان الضباب الكثيف ينتشر في كافة الأصقاع، أدلف إلى الخارج بحثًا عن تأجير منزل، وأترجل في مدينة خاوية على عروشها وتشهد الفوضى الأزلية، والمكان الذي أقصده يسمى مؤسسة الخدمات الجنائزية، وذلك اسمه الحالي، وكان اسمه محرقة الجثث في الماضي. وتسلمت إشعارًا يطلب مني التوجه بسرعة إلى تلك المؤسسة قبل الساعة التاسعة صباحًا، حيث إن ميقات حرق جسدي قد تقرر في تمام الساعة التاسعة ونصف الساعة.

وشهدت ليلة أمس البارحة دوي أصوات أحدثت هديرًا يحطم البيوت، وتتوالى الأصوات المدوية تباعًا حتى تساوت بالأرض المباني المتداعية الآيلة للسقوط، ولم أنم جيدًا وسط دوي تلك الأصوات بلا انقطاع، والتي تلاشت بصورة فجائية عندما فتحت باب الغرفة بعد انبلاج بياض النهار، وكأن فتح الباب قد أغلق مفتاح الأصوات التي تخلق دويًا. وبعد ذلك، رأيت قصاصة ورق ملصوقة على الباب تخبرني بأن أغشى مؤسسة الخدمات الجنائزية لحرق جسدي، وكلمات تلك القُصاصة مبهمة وغامضة بعد أن بللها الضباب، ناهيك عن قصاصتين أخريين ملصوقتين منذ عشرة أيام ونيف تُخبراني أيضًا بدفع فاتورة الكهرباء وفاتورة المياه.

كان الضبــاب الكثيف يطمر معالم هذه المدينة عندما عرجت في الخــارج، تلك المدينة التي فقدت ملامــح النهار والليل، كما فقــدت مظاهــر البكور والمســاء، أتقدم نحــو محطة حافلات المواصلات العامة، ويتراءى أمامي شبح بعض الأفراد في طرفة عــين، كما تندثر تلك الأشــباح في رمشــة عــين أيضًا. قطعت شوطًا من الطريق مترجلاً بحذر شديد، ثم لافتة محطة تعترض طريقي كأنهــا انبثقت من باطن الأرض على حين غُرة، وتذكرت أن اللافتة يجب أن تشــتمل على بعض أرقام الحافلات العامة، وإذا كان الرقم (203) موجودًا، فإذن يجب أن أستقل حافلة ذلك الطريق. ولــم أر بوضوح أرقام تلك اللافتة، ورفعت يدي اليُمنى ومســحتها جيدًا، بيد أنني ما زلت لا أرى بوضوح. وفركت عيني ويبدو أننــي رأيت الرقم (203) على اللافتــة، وأدركت أن هذا المكان هنا هو محطة الحافلات العامة. بدت مشاعر غريبة على ملامحي، حيث إن عيني اليُمنى ما زالت في مكانها الأصلي، أمَّا العين اليُسرى فتحركت إلى عظمة الخد. وتتواصل تلك المشاعر، فأحسست -فيما يبدو - بأن هناك شيئًا ما بجوار أنفي، وأسفل ذقني أيضًا، مددت يدي أتحسس، فأكتشفت أن هناك أنفًا بجوار أنفي، وذقنًا أسفل ذقني أيضًا، وأنهما يتحركان على وجهي.

يغص الضباب الكثيف بالأشــباح والظلال، وسمعت أصوات الحيــاة الحقيقية ترتفع تــارة، وتنخفض تارة أُخــرى مثل المياة المضطربة. أقف هنا بعيدًا عن أرض الواقع انتظارًا لقدوم الحافلة رقم (203)، وســمعت أصوات تصادم العديد من المركبات تدوّي وتترامــى إلى مســامعي تباعًا، ولم أرَ ثمة شــيئًا حيث الضباب الكثيف يبلل عيوني، وســمعت فقط أصواتًا تدوِّي وتحتشد حول

حادث سير، وسـمعت صوت عربة ركّاب تجري وسط الضباب، وتلامس كتفي وتخترق أصوات الحيـاة من حولنا، وتتفجر تلك الأصوات في لحظة مثل غليان الماء.

دام وقوفـي طويلا في محطة الحافلات، واسـتمر انتظاري طويلا أيضًا، وبعد فترة وجيزة، جال بخاطري أن حادث السـير الذي وقع في بقعة كبيرة هنا يعوق قدوم الحافلة (203)، ويجب أن أتوجه إلى المحطة القادمة.

أتقدم إلى الأمام، وعيوني المبللة تشاهد رقع الثلج التي عندما تخترق الضباب الكثيف تباعًا تزهو بنفسها وينطلق منها العديد من الأضواء الساطعة فجأة، وتهوي على وجهي، وأشعر بالدفء يغمـر وجهي كله، وأتسـمر في مكاني، وأحتضن رأسـي وأُلقي نظرة فاحصة على رقع الثلج كيف تتسـاقط على جسمي، وتبدو ملابسي وسط رقع الثلج أكثر وضوحًا رويدًا رويدًا.

أدركت نفسـي أن ذلك يُعتبر يومًا مهمًـا، إنَّه يوم رحيلي عن هذه الدنيا، ولكن جسـدي لم يغسَّل، ولم يتشح بالكفن، وما زلت أرتـدي الملابس العادية يكسـوها من الخـارج المعطف القديم الفضفـاض المحشـو بالقطن، وأترجل نحو مؤسسـة الخدمات الجنائزية، وشـعرت بالخجل والحياء لتهوري وطيشـي، ثم أدوِّر جسمي وأرجع إلى محطة الحافلات.

تتمتع هـذه المدينة بالأضواء السـاطعة بفضل كـرات الثلج المتطايـر المتسـاقطة، ويبدو أن الضباب الكثيـف يندثر بصورة بطيئة، وأرى في مشـيتي بصورة غير جلية السـيارات والمشـاة الذين يذرعون الشارع جيئة وذهابا، وأرجع إلى محطة الحافلات التـي كنـت غادرتها تـوًا، ويظهر أمامي مشـهد فوضوي حيث

عشــرون ســيارة ونيف تُغلق الشــارع في هرج ومرج، بالإضافة إلى ســيارة الشرطة والإســعاف، وهناك بعض الأفراد يُمدَّدون على الأرض، والبعض الآخر يُجرجرونهم من داخل عربة الركاب المحطمة، فضلاً عــن بعض الأفراد الذين يئنــون أنينًا، وهناك أيضًا أشخاص يبكون بحرقة، وآخرون يتسمرون في مكانهم ولا ينبسون ببنت شفة. كان ذلك مشهد وقوع حادث السير، وتوقفت قليلاً، ورأيت هذه المرة بجلاء لافتة الحافلة رقم (203)، وعبرت الشارع إلى هناك.

ورجعت أدراجي إلى المنزل الذي استأجرته، وخلعت ملابسي التي لا تتســجم مع حالتي، ومشــيت بقدمين عاريتين إلى جوار حوض الماء، وضغطت على صنبور المياه، وتتلقى راحة كفي الماء، وعندمــا كنت أنظف جســمي وجدت به بعــض الجروح، وبعض الجروح المشــقوقة بالغبار والأتربة، كمــا يوجد داخلها الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية، ونقبت ذلك كله بكل حذر وانتباه.

فــي هذه الأثناء، يدوي رنــين الهاتف الخلوي على مقربة من الوســادة فوق الفراش، وشــعرت بالاســتغراب لأنه معطل منذ شهرين بســبب دين مكالمات ســابقة، والآن يدوي رنينه بصورة فجائية. وتناولت الهاتف الخلوي وضغطت على الزر لاســتقبال المكالمة وأصغي إلى السماعة، وسمعت صوتًا خافتًا:

«آلو».

وسمعت صوتًا ينبثق من السمَّاعة: «أأنت يانغ فيي؟».

«نعم».

«نحن مؤسسة الخدمات الجنائزية، أين أنت؟».

«أنا في المنزل».

«ماذا تفعل في المنزل؟».

«أقوم بتنظيف جسمي».

«الساعة توشك أن تدق التاسعة، وأنت ما زلت تغسل جسدك! أليس كذلك؟».

أقول مرتبكًا: «أحضر إليكم في التو».

«تعال بسرعة، وأحضر معك رقم ميقات حرق جسدك».

«وأين ذلك الرقم؟».

«ملصق على بابك».

الطرف الآخر يغلق الهاتف، وأشعر بالانقباض، أيوجد استعجال أيضًا في حرق أجساد الموتى؟ وأضع الهاتف، أستمر في تنظيف جروح جسدي. أحضرت سلطانية، وبعد أن جمعت فيها الماء، أشطف الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية داخل الجروح الباقية، وأقوم بتسريع وتيرة التنظيف.

وبعد أن فرغت من تنظيف جسدي، أعرج على دولاب الملابس وجسمي مبلل بالماء، وأفتح بابه وأبحث عن كفني، ولم أجده في الداخل، وعثرت فقط على ثياب النوم من الحرير الأبيض وهو ما يشبه الكفن، ومطبوعة عليه رسومات غير واضحة، ومطرز على الصدر بالخيط الأحمر كلمتان «لي تشينغ» بهتت ألوانهما، وذلك من الأثر الباقي من زواجي القصير. كانت زوجتي «لي تشينغ» وقتئذ في متجر واختارت بعناية فائقة اثنين من ثياب النوم مشقوقين من الأمام حسب التقليد الصيني، وطرزت على صدر ثيابها اسمي، وحذت حذوها وطرزت اسمها على صدر ثيابي. وبعد ذلك الزواج القصير لم أرتد أبدًا ذاك ثياب النوم، والآن أرتديه، وشعرت

بــأن ثياب النــوم الحريرية من اللون الأبيــض تمنحني بعض الدفء مثل كرات الثلج البيضاء.

أفتح الباب وأفحص بدقة إشعار مؤسسة الخدمات الجنائزية الملصوق على الباب، ومكتوب أعلاه الرقم (A3)، وأظن أنه رقم ميقات حرق جســدي، ونزعت هذا الإشــعار، وبعــد أن طويته وضعته في ثياب النوم بكل انتباه.

عندما كنت أســتعد لمغادرة المنزل، شعرت بأنني نسيت شيئًا ما، ووقفت أفكر لحظة وســط كرات الثلج المتساقطة، وتذكرت أنني نســيت قطعة القماش الســوداء، أنا بلا أنيس ولا جليس، وأفتقر إلى إنســان يعبّر عن التعازي بوفاتي، وأستطيع فقط أنّ ذاتي تعزي نفسي.

أرجع إلى منزلي الذي اســتأجرته، وأبحث عن قماش أســود فــي دولاب الملابس، بحثت طويلا، ولم أجده، وعثرت فقط على ملبس داخلي أســود، ولكن لونه يميل إلــى الرمادي بعد أن بات قديمًا باليًا. وليس أمامي خيار سوى أن أقص كُمّه وأطوّقه حول الكُمّ الأبيض لذراعي الأيسر. وشعرت بالرضى التام على الرغم من أن ملابس تعزية نفسي تشوبها شائبة.

يدوّي رنين الهاتف الخلوي مرة أُخرى.

«أأنت يانغ فيي؟».

«نعم».

ينبعــث من الهاتف صــوت يقول: «نحن مؤسســة الخدمات الجنائزية». ثم يسأل: «أتبغي أن تحرق جسدك أم لا؟».

أتردد بعض الشيء، ثم أقول: «أريد حرق جسدي».

«يكون ذلك في الساعة التاسعة ونصف الساعة، ولا تتأخر».

أسأل بحذر شديد: «هل حرق أجساد الموتى يعرف التأخير أيضًا؟».

«إذا كنت تبغي حرق جسدك، يجب عليك الحضور بسرعة».

* * *

قاعة الانتظار في مؤسسة الخدمات الجنائزية واسعة وفسيحة الأرجاء، والضباب الكثيف في الخارج يتلاشى تدريجيًا، وفي الداخل القاعة معبأة ببخار الضباب، وبضعة مصابيح جدارية تشبه الشموع في مكان ينأى عنا بمسافة كبيرة، تشع أضواء لامعة بيضاء تتشابه مع لون كرات الثلج أيضًا، ولا أعرف السبب الذي يجعلني أشعر بالدفء عندما أرى اللون الأبيض.

تصطف أرتال من الكراسي البلاستيكية المثبتة بالمشاجب الحديدية في أديم الأرض في الجانب الأيمن لقاعة الانتظار الكبيرة، أما في الجانب الأيسر فتوجد الآرائك، حيث الآرائك المريحة تطوق المكان وتشكل عدة دوائر يتوسطها بضع طاولات للشاي فوقها زهور بلاستيكية ويجلس فوق تلك الكراسي في هذا الجانب كُثر من منتظري حرق أجسادهم، أمَّا في ذلك الجانب حيث الآرائك فيجلس فقط خمسة من هؤلاء المنتظرين، ويضعون ساقًا على ساق في راحة تامة، وهم نموذج من ذوي المآثر والنجاحات والشُهرة. أما الجالسون على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب، فيُصلح كل واحد هندامه ويجلس بوقار.

وعندما دلفت إلى الداخل، استقبلني رجل يرتدي أسمالاً زرقاء بالية، وفي يديه قفازان مهترئان، وجسمه نحيف مثل العود، وشعرت بأن وجهه عبارة عن هيكل عظمي، وخال من الجلد واللحم.

يقــول بصوت خفيض بعــد أن رأى تغيــرات ملامح وجهي: «حضرتك جئت إلينا».

و سألته: «أليست هذه محرقة أجساد الموتى؟».

يجيــب قائــلاً: «الآن لا نقــول المحرقة، الآن نقول مؤسســة الخدمات الجنائزية».

وأدركــت أنني تكلمت خطــأ على غرار الدخــول إلى فندق وتسأل: «أليست هذه دار ضيافة؟».

وسمعت صوته المتعب المدكوك ينبعث من مكان قصيّ، وأدركت أنه ليس الرجل الذي اتصل بي هاتفيًا، وأخبرني بأنه «مؤسســة الخدمات الجنائزية». قدّمت اعتذاري لتأخري عن الموعد المقرر، فطأطأ رأســه برفق، وواساني قائلا: «إن أناسًا كُثراً قد تأخروا اليوم»، وإن ميقات حرق جســدي قد تجاوز الوقت المحدد وبات لاغيًا، ويتقدم إلى ماكينة سحب الأرقام بجوار المدخل، ويسحب رقمًا، ثم يسلمني قصاصة الورق.

تراجــع ميقــات دوري من الرقم (A3) إلــى الرقم (A64)، وفي أعلى الرقم الأخير توضيح مفاده أن هناك أربعة وخمســين ينتظرون دورهم قبلي.

سألته: «هل من الممكن حرق جسدي اليوم؟».

يجيب: «توجد أرقام خاوية ليست قليلة كل يوم».

ويشــير بيده اليمنى التي تلبس القفــاز الأبيض المهترئ، إلى الكرســي البلاســتيكي في هذا الجانب، ويعنــي ذلك أنه يطلب منــي الانتظار هناك، وتحلق عيني في الآرائك في ذلك الجانب، ويلفت انتباهي أن تلك الأرائك هي منطقة ضيوف الشــرف، أما مكانتي فتنتمي إلى منطقــة العوام في هذا الجانب حيث توجد

الكراسي البلاستيكية، وعندما أخذت الرقم (A64) وتقدمت نحو تلك الكراسي هنا، سمعته يناجي نفسه ويرسل زفرة قائلا: «رجل مسكين آخر، جاء بلا تجميل».

أجلس على الكرسي البلاستيكي والرجل الذي يرتدي الملابس الزرقاء يخطو خطوات واسعة في الممر الفاصل بين منطقة ضيوف الشرف المنتظرين حرق أجسادهم، ونظرائهم في منطقة العوام، وكأنه مستغرق في تفكير عميق، ووقع خطواته يشبه الطرقات على الباب، ويستقبل المتأخرين الذين يدلفون إلى الداخل بصورة مستمرة، ويقول: «جاء حضرتك»، ويسحب رقمًا جديدًا لكل واحد، ثم يمد يده ويشير إليه ويطلب منه الجلوس على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب. ويصطحب ضيف شرف جاء متأخرًا إلى منطقة الأرائك في ذاك الجانب.

منتظرو حرق أجسادهم في هذا الجانب فوق الكراسي البلاستيكية يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خفيض، كما يتحدث نظراؤهم في منطقة الأرائك والبالغ عددهم ستة. والصوت في منطقة ضيوف الشرف كان مدويًا ومجلجلا ويشبه صوت المغنّين فوق خشبة المسرح، أمَّا أحاديثنا في هذا الجانب فهي مجرد مصاحبة حوض العازفين في أسفل خشبة المسرح.

دارت أحاديث منطقة ضيوف الشرف حول الأكفان وعلب الرفات، ويرتدون الأكفان من حرير قز في غاية الدقة اليدوية، ويطرزون فوقها الرسومات الزاهية، ويتحدثون بصورة عابرة عن أثمان الأكفان؛ ويبلغ ثمن أكفان ضيوف الشرف الستة المنتظرين حرق أجسادهم أكثر من عشرين ألف يوان. ألقيت عليهم نظرة فاحصة ورأيتهم يرتدون ملابس تشبه شخصيات القصر.

بعـــد ذلك، تحدث كل واحد منهم عن علبـــة الرفات الخاصة به وجــودة مادتها المصنوعة من الأوراق العريضة لخشـــب الصندل والمنقوشـــة فوقها رســـومات في غاية الدقة والجمال وأسعارها أكثر من ســـتين ألف يوان، وأســـماء علب رفات ضيوف الشرف الســـتة تتســـم بالروعة والفخامة أيضًا على النحو التالي: قصر خشب الصندل، قصر الكركي، قصر التنين، قصر العنقاء، قصر وحيد القرن الصيني، المقبرة الغربية لخشب الصندل.

ونحن في منطقة العوام نتحدث أيضًا عن الأكفان وعلب الرفات، وقد ذكر الجالســـون فوق الكراسي البلاستيكية هنا أن أكفانهم من الحريـــر الاصطناعي مضافًا إليه بعض القطـــن الطبيعي، وتتراوح أسعارها في نطاق الألف يوان، ومادة علبة الرفات ليست من خشب الســـرو، بل من خشـــب الموبيليا، وفوقها نقوش، وأغلـــى علبة يُقدَّر ثمنها بثمانمئة يـــوان، وأرخصها بمئتي يوان. وهناك أســـلوب آخر في تســـمية علب الرفات في هـــذا الجانب على هذا النحو: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلّف وراءه سمعة مدى الدهر.

وبينمـــا كان الجالســـون فوق الأرائك يتحدثـــون عن أكفانهم وعلب الرفات ذات الأثمان الغالية الباهظة، كان الجلســـاء على الكراسي البلاستيكية يقارنون الأسعار الأرخص والجودة العالية، وعرفـــت من خلال الحديث الدائر بين اثنين من هؤلاء المنتظرين ويجلســـان في الصف الأمامي أنهما اشتريا كفنيهما المتشابهين من نفس دكان الأكفان، ولكن أحدهما أغلى من الآخر بخمســـين يوانـــاً صينياً، ويُصعِّـــد ذلك الرجل الذي اشـــترى الكفن الغالي الزفرات، ويتمتم قائلاً:

«زوجتي لا تجيد المساومة».

لفت انتباهي أن المنتظرين حرق أجسادهم الجالسين فوق الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب يتشحون بالأكفان، حيث يتشح بعضهم بالأكفان التقليدية على غرار أسرتَي مينغ وتشينغ (هما من الأسر التي حكمت الصين من 1368 - 1911)، وبعضهم يرتدي بذلة صينية أو الكفن الحديث من البذلة الغربية. أما أنا فألبس ثياب النوم القديم البالي المشقوق من الأمام على الطراز الصيني، ومن حسن حظي عندما غادرت المنزل، أدركت أن المعطف الفضفاض المحشو بالقطن ليس مناسبًا لحالتي وبدّلته بثياب النوم الأبيض، وعلى الرغم من أن منظري عُرضة للسخرية، بيد أنني أندس في الكرسي البلاستيكي وأستطيع تكملة العدد هنا.

وعلى كل حال، ليس عندي علبة الرفات، بل حتى أفتقر إلى التسمية المتواضعة من: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلّف وراءه سمعة مدى الدهر. وبدأت أشعر بالقلق، أين يجب نثر رماد عظامي؟ هل يُنثر في البحر العظيم الواسع؟ من المستحيل، إنه المكان الذي يُنثر فيه رماد عظام العظماء، وطائرة خاصة تتقل سفينة حراسة حربية، وتمخر عباب مياه البحر في خضم البكاء المرير للأسرة والأتباع. رماد عظامي يُرمى من غرفة المحرقة وتتلقفها المكنسة وجاروف الكناسة، وبعد ذلك يُلقى في برميل الزبالة.

يلتفت رجل عجوز يجلس بجواري ويُحدق في وجهي، ويسألني في دهشة: «لم تنظف جسدك، ولم تقم بالتجميل، أليس كذلك؟».

أجيب قائلا: «نظفت جسدي، غسلت جسدي بنفسي».

يقــول الرجل العجــوز: «وجهك، مُقلة العين اليســرى بارزة، والأنف مائل جانبًا، والذقن طويلة هكذا».

تذكرت أنني نســيت وجهي عندما نظفت جسمي، وأقول في خجل: «لم أقم بالتجميل».

يقــول الرجل العجوز: «أســرتك لا تكترث بــك، لم تضطلع بتجميلك، كما لم تضع لك الماكياج».

أعيــش وحيدًا في الحياة والأب صاحــب الفضل في تربيتي يُدعى (يانغ جين بياو) ورحل عن دنيانا بلا اســتئذان إثر إصابته بمرض عضَال، أما والدي الحقيقي ووالدتي الحقيقية فيقيمان في مدينة نائية في الشــمال تبعد عن هنا حوالي خمسمئة كيلو متر، وهما لا يعرفان أنني في هذه اللحظة أنتقل إلى عالم آخر.

وســمعت امرأة تجلــس على مقربة مني فــي الجانب الآخر الحــوار الذي دار بيننــا، وألقت نظرة فاحصة على ملابســي، وقالت: «كيف يكون كفنك شبيهاً بثياب النوم؟».

أقول: «ما أرتديه هو كفني».

لم تفهم تلكَ السيدة، وتسأل: «أهذا هو كفنك؟».

يقول الرجل العجوز: «الكفن هو الكفن، والكفن يغتبط عندما يسمع أنه يصعد إلى أعلى».

وتفحصــتُ ملامح وجهيهمــا بانتباه حيث يزخــران بالمكياج الكثيف، ويرتديان الملابس الزاهية كأنهما يصعدان خشبة المسرح للتمثيل، وليس أنهما يذهبان إلى غرفة محرقة أجساد الموتى.

أحدالمنتظرين لحرق جسده قابع فوق كرسي بلاستيكي يتذمر بالشــكوى إلى الرجل المتشح بالملابس الزرقاء، ويقول: «انتظرت وقتًا طويلا، ولم أسمع صوتًا ينادي رقمي».

يقول ذاك الرجل: «تُقام الآن مراســم الوداع الأخير لجثمان عمدة المدينة، حرقنا ثلاث جثث في الصباح الباكر، ثم توقفنا عن العمل انتظارًا لدخول جثة العمدة غرفة المحرقة، وبعد خروجها يمكن أن يأتي دوركم».

يســأل ذاك المنتظر: «لماذا ننتظر حتــى يتم حرق جثة عمدة المدينة، ثم تُحرق أجسادنا؟».

«لا أعرف ذلك».

ويســأل منتظر آخر قائلاً: «كم عدد محرقات أجساد الموتى لديكم؟».

«اثنتان، إحداهما مســتوردة من الخارج، والأُخرى صُنعت في الصــين. المســتوردة من أجل خدمة ضيوف الشــرف، والمحرقة المصنوعة في الصين من أجل خدمة حضراتكم».

«هل عمدة المدينة من ضيوف الشرف؟».

«نعم».

«هل عمدة المدينة يحتاج إلى المحرقتين في حرق جسده؟».

«عمدة المدينة يجب أن يستخدم المحرقة المستوردة».

«تحتفظون بالمحرقة المستوردة من أجل عمدة المدينة، فلماذا تحتفظون بالمحرقة المصنوعة في الصين من أجله أيضًا؟».

«لا أعــرف ذلك، وأعرف فقــط أن المحرقتين قد توقفتا عن العمل».

ضيف شــرف في جانــب منطقة الأرائك يلــوح بيده للرجل المتشح بالملابس الزرقاء الذي يهرول إليه في التو.

يسأله ضيف الشرف: «هل ما زال توديع جثمان عمدة المدينة يحتاج إلى وقت طويل؟».

يجيب ذلك الرجل بعد أن توقف عن الكلام برهة: «لست متأكدًا بالضبط، أظن أنه باقية فترة قصيرة، من فضلكم انتظروا بصبر وهدوء».

يدخل رجل جاء متأخرًا توًا ويبغي حرق جسده، وسمع ما دار بينهما، ويقف في الممر، ويقول: «الموظفون الحكوميون الكبار والصغار في المدينة، بالإضافة إلى نظرائهم في الأقاليم والمحافظات يبلغ عددهم أكثر من ألف، ويودع كل واحد منهم جثمان عمدة المدينة، كما لا يستطيع أن يمشي بسرعة، بل يسير بخطوات وئيدة، كما ينفجر بعضهم في البكاء».

يقول ذاك ضيف الشرف في استياء شديد: «ما العظمة التي يتحلى بها عمدة المدينة؟».

يردف ذلك الرجل الذي جاء متأخرًا: «في البكور بدأ إغلاق الطرق الرئيسة في المدينة، والسيارة التي تحمل جثمان العمدة تسير ببطء مثل السير على الطريق الذي يحتاج إلى نصف ساعة، تقطعه في ساعة ونصف الساعة. الآن ما زالت الطرق الرئيسة مغلقة، ويجب أن ننتظر لما بعد توديع رماد عظام العمدة حتى يتم السماح بالمرور فيها».

الطرق الرئيسة في المدينة مغلقة، والطرق الأخرى تغص بالسيارات مما يسبب المصاعب والقلق. وجال بخاطري صوت حادث السير عندما كنت أمشي في الصباح وسط الضباب الكثيف، ثم رأيت المشهد الفوضوي الناجم عن ذلك، كما تذكرت في الحال أيضًا الأخبار التي نشرتها الصحف والتلفاز قبل نصف شهر حول وفاة عمدة المدينة على حين غرة، وقدمت تحليلاً رسميًا حول سبب الوفاة؛ ذكرت أن العمدة لقي حتفه إثر

إصابته بمرض في القلب بعد أن أرهق نفســه في العمل بصورة مفرطة. بينما نشرت الشبكة العنكبوتية قصة شعبية مفادها أن عمدة المدينة رحل عن دنيانا فوق فراش في شــقة إدارية بفندق خمس نجوم حيث أصيب باحتشـــاء عضلة القلب بصورة فجائية بعد أن بلغ ذروة المتعة والنشــوة مــع عارضة أزياء قليلة الخبرة، والتي أصابها الفزع وهرولت في الممر تبكي وتصرخ، ونسيت أن مؤخرتها عارية في ذلك الحين.

بعد ذلك، سمعت ضيوف الشرف في منطقة الأرائك يتحدثون عن القبر، والعوام في منطقة الكراسي البلاستيكية يتحدثون عن الموضوع نفسه أيضًا، ومساحة القبر التي يتحدث عنها الجلساء فوق تلك الكراسي تبلغ مترًا مربعًا، أما في منطقة الأرائك فتبلغ أكثر من المو[1]، وربما ســمع جلساء منطقة الآرائك الحديث في منطقة الكراسي البلاســتيكية، فيقول أحد ضيوف الشرف في جانب الأرائك بصوت عال:

«كيف تقيم في قبر مساحته متر مربع؟».

الهدوء يسود الكراســي البلاستيكية في هذا الجانب، وبدأ الجالســون عليها ينصتون باهتمام إلــى الفخفخة التي تجعل المرء جاحظ العينين، وتلوك بها ألسنة جلساء الأرائك في ذلك الجانب. ومن بين هؤلاء الجلســاء الستة، يوجد خمسة شيدوا قبورهــم فوق قمة جبل ســامقة، ويحيط بها البحر العظيم من كافة الجهات، ويســبح حولها الســحاب والضبــاب، إنها قبور الشــخصيات الفذة قبالة المنظر البحري من الجبال الباســقة التي لا يطاولها البصر والمناظر متعددة الألوان والأشــكال. أما

(1) المو: وحدة مساحة صينية تعادل 0،0667 هيكتار . [المترجم]

الجليس الســادس فقد شــيد قبره على مصطبــة جبلية حيث توجــد هناك غابــة كثيفة تمخرها الجــداول وأصوات الطيور المغردة، وشــاهدة قبره عبارة عــن قطعة حجر طبيعي، وهناك تترســخ الجذور العائلية، يتراوح تاريخها مــن بضع مئات إلى ألف سنة، ويقول إنه شــديد الاهتمام بالأطعمة العضوية، وإن شــاهدة قبره عضوية أيضًا، وبالإضافة إلى ذلك، هناك خمس شاهدات قبور، من بينها شاهدتان عبارة عن لوح صغير حسب الموجود في أرض الواقع، وشــاهدة عبارة عن فناء على الطراز الصيني، وشــاهدة عبارة عن فيلّا على الطراز الغربي، ناهيك عن شاهدتين رسميتين، وزعموا أنهم لا يستخدمون الشاهدات البراقة والمزخرفة. وتفوّه المنتظر الأخير بكلمات جعلت الجميع يشــعرون بالدهشــة، ولم يكن في الحســبان أن تكون شاهدة قبره على غــرار النصب التذكاري لأبطال الشــعب في ميدان تيــان آنمين[1]، وحجمها يماثل ذلك النُصب، وقد تغير ما خطه الرئيس ماوتســي تونغ بيده فوق النُصب التذكاري من «أبطال الشــعب خالدون إلى الأبــد» إلى «الرفيق لي فينــغ خالد إلى الأبــد»، وذلك من خط الرئيس ماو أيضًا، حيث عثرت أســرته فــي مخطوطات ماو على الكلمات «الرفيــق لي فينغ»، وقامت بنقشها على شاهدة القبر بعد تكبيرها.

ويكمل حديثه قائلا: «الرفيق لي فينغ هو أنا».

يخاطبــه أحد ضيــوف الشــرف قائلا: «ينطــوي ذلك على مجازفة، وربما تقبض عليك الحكومة ذات يوم».

(1) ميدان تيان آنمين (الســلام الســماوي) يتوســط قلب العاصمة الصينية بكين، ويُعتبر أكبر ميدان في العالم، وتبلغ مســاحته 44 هيكتار. وقد أعلن الزعيم الصيني ماوتســي تونغ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في هذا الميدان، وذلك في أول أكتوبر عام 1949. [المترجم]

الصـــورة واضحة في ذهن لـــي فينغ، ويقول: «قدم الرشـــوة للحكومة، غير أنه لا يســـمح للصحافيين أن يكشفوا النقاب عن ذلك. وقد أرســـلت أســـرتي اثني عشـــر رجلا على حذر تام من الصحافيين ويســـتميتون في الدفاع حتى الموت، وهؤلاء الرجال بالمصادفة هم جماعة الإعـــداد والتخطيط في الجيش، وهناك جماعة الحراســـة التـــي تقوم بحمايتي، فأســـتطيع أن أنام ملء جفوني».

في هذه الأثنـــاء، تُضاء فجأة مصابيح الســـقف على جانبي قاعة انتظار منتظري حرق أجســـادهم، وتتحول فترة الغسق إلى الظهيرة، والرجل المتشـــح باللبـــاس الأزرق يتقدم إلى البوابة في عُجالة.

يدلف إلى الداخل عمدة المدينة مرتديًا بذلة غربية ســـوداء، وتحتها قميص أبيض، ويشـــد حول رقبته رباط العنق الأســـود. يمشي ولم يرتسم على وجهه أي تعبير، ويضع ماكياجاً كثيفاً على وجهه، وحواجبه سوداء كثّة، ويطلي شفتيه بأحمر الشفاه الفاتح، يستقبله ذلك الرجل ويرشده إلى الطريق باهتمام شديد قائلاً: «حضرة عمدة المدينة، من فضلك نغشـــى اســـتراحة ضيوف الشرف الفخمة».

يومئ عمدة المدينة برأسه قليلاً، ويتبع الرجل المتشح باللباس الأزرق ويتقـــدم إلـــى الأمام، ويفتـــح ببطء البـــاب الضخم ذي الدرفتـــين في قاعة الانتظار الكبري، ثم يغلق ببطء أيضًا بعد أن يدخل عمدة المدينة.

ضيوف الشـــرف فـــي جانب الأرائك لا ينبســـون بأي حرف، وغرفـــة ضيوف الشـــرف الفخمـــة تطغى علـــى منطقة ضيوف

الشرف الجالسـين على الأرائك، فالمال يشـعر بمركّب النقص أمام السلطة والنفوذ.

مـا زال صوتنا يعلو وينخفض في هذا الجانب حيث نجلس على الكراسـي البلاسـتيكية، ولا يزال حديثنا يدور حول القبر. ويتنهد الجميع تحسـرًا على أن القبر الآن أكثر غلاء من الشقة، حتى فناء القبور في المنطقة النائية القاصية مزدحم للغاية، ولم يتوقع أن يكون سعر المتر المربع للقبر يصل إلى ثلاثين ألف يوان، كما أن حق الملكية خمسـة وعشـرون عامًا. مهما كان غلاء الشـقة لكن حق ملكيتها سـبعون عامًا. يستشـيط بعض منتظري حرق أجسـادهم غضبًا وغيظًـا، والبعض الآخر ناخ عليهم الهم والأسـى، واعتراهم القلق، وماذا يفعلون بعد انقضاء خمسـة وعشرين عامًا؟ ومن الممكن جدًا أن أسـعار القبور الغالية بعد خمسة وعشرين عامًا يكون صاروخيًا ويصل إلى السـماء، وإذا عجز أهل البيت عن دفع التكاليف بصورة مستمرة، فإن رماد عظامهم يمكن أن يكون فقط سمادًا في الحقول.

يقـول منتظر جالس في الصف الأمامـي بحزن: «أرحل عن هذه الدنيا، ولا أنهض من موتي أبدًا!».

ويقول الرجل العجوز الجالس إلى جواري في هدوء: «لا داعي أن نفكر فيما سيحدث في المستقبل».

الرجل العجوز يخبرني بأنه اشترى لنفسه قبرًا مساحته متر مربع بثلاثة آلاف يوان منذ سبع سنوات خلت، والآن ارتفع سعره إلى ثلاثين ألفًا. ويشـعر بالغبطة لأنه صاحب رؤية مسـتقبلية سلفًا، أما في الوقت الحاضر فيعجز عن شراء قبر.

ويتنهد متحسـرًا قائلا: «تضاعف سـعره عشـر مرات في غضون سبع سنوات».

بدأ النداء على الأرقام في صالة منتظري حرق أجسادهم، ومن الجلي أن عمدة المدينة قد حُرق جسده، وعلبة رفاته مغطاة بعلم الحزب، ووُضعت بعناية في عربة الخدمات الجنائزية السوداء التي تسير ببطء، ويسير وراءها بضع مئات من عربات الركاب التي تتبعها ببطء شديد. وتدوي موسيقى جنائزية في الطرق المغلقة.. ورقم ضيف الشرف يعلوه الحرف (V)، أما رقم عامة الشعب فيتصدره الحرف (A)، ولا أعرف الحرف الذي يعلو رقم ضيف الشرف من الشخصيات الفذة حسب مرتبة عمدة المدينة؟ وربما ضيف الشرف الفذ لا يحتاج إلى رقم.

يدخل إلى المحرقة ستة من ضيوف الشرف الذين ينتمون إلى فئة الحرف (V)، أما النداء على الذين ينتمون إلى فئة الحرف (A) فكان سريعًا، وكما ذكر المتشح باللباس الأزرق فإن هناك الكثير من الأرقام الخاوية لم يحضر أصحابها، وفي بعض الأحايين ينادى على التوالي أكثر من عشرة أرقام، وكلها خاوية لم يحضر أصحابها. واكتشفت في ذلك الحين، أن ذلك الرجل الذي كان يقف بجواري يمشي في الممر، وعندما رفعت رأسي ورمقته بنظرة، يدوي صوته المتعب المدكوك مرة أُخرى قائلا:

«أصحاب الأرقام الخاوية يفتقرون إلى قبر».

وأنا ليس عندي علبة رفات، كما أفتقر إلى قبر. وأسأل نفسي: لماذا حضرت هنا؟

سمعت النداء على الرقم (A64)، وهو رقمي، فلم أنهض من مكاني. وبعد النداء على رقمي ثلاث مرات، ينادى الرقم (A 65)، نهضت امرأة كانت تجلس بجواري، وترتدي الكفن

التقليـدي، ويبدو أنه من طراز أسـرتي مينغ وتشـينغ، وعندما تمشي يتمرجح كمَّاها الكبيران يمنة ويسرة.

مازال الرجـل العجوز الجالس بجواري ينتظر دوره، ولا يزال لسـانه لا يكف عن الـكلام. وقال على الرغم مـن أن قبره في مكان بعيد بعض الشـيء، والمواصلات إلى هناك ليست مريحة أيضًا، ولكن المنظر أمامـه لا بأس به، حيث توجد قبالته بحيرة ليست كبيرة، ناهيك عن بعض شتلات الأشجار التي زرعت توًا. وأردف أنه بعد أن يقيم في القبر لا يأتي إلى الدنيا أبدًا، ومن ثم لا يعتبـر المكان القصيّ والمواصلات غير المريحة مشـكلة، وبعد ذلك سألني عن منطقة القبور التي يقع فيها قبري.

أطأطئ رأسي قائلا: «ليس عندي قبر».

ويسألني في دهشة: «ليس عندك قبر، إذن، أين تذهب؟».

وشـعرت بأن جسـدي ينهض واقفًا، وجسـدي يقودني إلى مغادرة صالة انتظار حرق أجساد الموتى.

* * *

أقـف مرة أُخرى وسـط الضباب الكثيف المنتشـر في كافة البقاع، وكرات الثلج المتطايرة المتساقطة على أديم الأرض، وعلى أية حال، لا أدري أين أذهب، وأناخت عليّ الشـكوك والهواجس، وعرفت أن نفسي ماتت، ولكن لا أعرف كيف ماتت؟

أترجل في المدينة التي بدت مشوشـة غيـر واضحة المعالم، أقدح زناد ذهني في البحث عن اتجاه على درب ذاكرتي المتشابكة المتقاطعة، أفكر أنه يجب البحث عن المشـهد الأخير قبل موتي، وهذا المشـهد الأخيـر يجب أن يكون في نهايـة طريق الذاكرة، والعثـور عليه يعني الوصول إلى لحظة مـوت النفس. وتفكيري

يســتعين بحركة جسدي في المشــي ويجتاز العديد من المشاهد التي تشــبه كرات الثلج المتساقطة تمامًا، وبعد ذلك، وصلت إلى يوم الممات في نهاية المطاف.

هذااليــوم، يبدو أنه أمس، ويبدو أنه أمس الأول، ويبدو اليوم الحالي. وأســتطيع أن أقرر أنه اليوم الأخير لي في هذه الدنيا، ووجدت نفسي تسير على هذا الطريق وتجابه ريحاً باردة.

تقودني قدماي إلى الأمام حتى أصل إلى ميدان قبالة الإدارة البلديــة، وهناك تم فض احتجاج أكثر من مئتي شــخص تقريبًا بالقوة، لم يرفعوا لافتات الاحتجاج، ولم يطلقوا شــعارات، غير أن كل واحد منهم ســرد مأســاته وأتراحه وترامى إلى مسامعي أنهــم المتضررون من جراء وقوع أحداث متباينة من العنف وهدم المباني. وأخترق صفوفهم مترجلا على أقدامي، وهناك ســيدة تمسح دموعها وتقول إنها خرجت تشتري الخضار، وعندما عادت أدراجها اكتشفت أن منزلها اندثر، ودار بخلدها أنها ذهبت خطأ إلى مكان آخر، فضلا عن رهط من الأفراد يسردون ما أصابهم مــن الخوف والفزع في منتصف الليــل من جراء الهدم والإزالة، حيث اســتيقظوا مذعوريــن من نومهم العميق بســبب وابل من الأصوات المزعجة، وتترنح منازلهم بلا انقطاع، ويعتقدون حدوث زلزال، ولكن عندما لاذوا بالفرار مهرولين رأوا الجرافة والحفَّارة تهدمــان بيوت عائلاتهم. وهناك شــاب يحكي للآخرين بصوت مرتفــع عال تجربته التي من الصعب البوح بأســرارها، وعندما كان هو وصديقته يمارسان الحب في الفراش، تحطم باب البيت بصورة فجائية، واندفع إلــى الداخل بضعة رجال ضخام الجثة قيدوهمــا بحبل داخل اللحاف، ثم نقلوهما إلى ســيارة تلفّ في

الشــوارع العامة بالمدينة جيئة وذهابًـا، ففاضت روحهما داخل اللحاف بعد أن أصابهما الفزع الشديد، ولا يدريان إلى أي مكان تحملهما الســيارة التي تدور في المدينة حتى انبلاج الصباح، ثم رجعا إلــى بيتهما، وقام هؤلاء الرجال بإخراجهما من الســيارة ورموهما على أديم الأرض، وفكوا الحبل الذي قيدهما، كما رموا لهما عدة قطع من الملابس، يرتديان ملابس الآخرين وجسداهما يرتعدان داخــل اللحاف، ويحدق فيهما بفضول نفر من المشــاة يقفون هناك، يرتديان ملابسهما ويخرجان من اللحاف ويقفان، ويرى ذلك الشــاب آنذاك أن منزله قد تســاوى بالأرض تمامًا، وصديقتــه تنتحب وتبكي، وتقول إنها لــن تنام مع صديقها مرة أُخــرى، وأضافت أن النوم معه أكثر رعبًا من مشــاهدة فيلم من أفلام الإرهاب.

ذلك الشاب يخبر البشــر الذين التفوا حوله أنه فقد منزله، وفقد صديقته، وأن شــهوته الجنســية قد تلاشت هذه المرة من جراء الفزع الذي أصابه، ولن تعود إليه مرة أُخرى، ومد أصابعه الأربعــة قائلا: «لقد أنفقت أكثر مــن أربعين ألف يوان من أجل علاجي من العُنَّة[1]، وتناولت كميات كبيرة من الوصفات الصحيّة في الطب الغربي، والوصفات الشعبية في الطب الصيني، ولكن رجولتي مازالت تشبه طائرة لا تعرف سوى الانزلاق».

يســأله رجل: «ما حدث توًا كان صعود الطائرة، ثم هوت على الأرض؟».

يجيب قائلاً: «ليته يوجد مثل هذا الأمر المبهج، ليس لا يعرف الانزلاق فقط، بل ولا يعرف الصعود أيضًا».

(1) العجز الجنسي. [المترجم]

يصرخ رجل آخر: «اطلب من الحكومة التعويض».

يضحك ضحكة صفراء ويقول: «الحكومة عوضتني عن منزلي الذي تعرض للإزالة، ولكنها لم تعوضني عن شهوتي الجنسية التي تلاشت من جراء خوفي وفزعي».

يقترح رجل آخر ويقول: «تناول فياجرا».

يقول: «تناولت حبوب الفياجرا، وتسارعت نبضات قلبي بصورة مجنونة لفترة من الوقت، ورجولتي مازالت تتزلق أيضًا».

أمشي وسط قهقهات ضحكاتهم العالية، وأشعر بأنهم ليسوا في تظاهرة، بل في لقاء يجمع بينهم. عبرت الميدان قبالة الإدارة البلدية، ومررت بمحطتين للحافلات العامة، وعلى مرمى البصر يوجد طريق «تشينغ خه».

في تلك اللحظة، أدلف إلى وادي الحياة المنخفض، وزوجتي تركتني منذ زمن بعيد وودعت هذه الدنيا، ووالدي أصابه مرض عضال لم يبرأ من سقمه منذ سنة ونيف، وبعت منزلي من أجل علاج والدي، وتقدمت باستقالتي من العمل من أجل رعاية والدي الذي يئن من وطأة الآلام، واشتريت حانوتًا صغيرًا على مقربة من المستشفى. وبعد ذلك، والدي تركنا بلا استئذان وغاص في بحر البشر الشاسع. وبعت الحانوت، وأقيم في منزل إيجاره زهيد، أبحث عن والدي مثل التفتيش عن إبرة في بحر. وطافت أقدامي كافة أصقاع وبقاع المدينة، وتغص عيني بظلال العجائز عدا وجه والدي.

فقدت عملي، وبعت منزلي، وليس عندي حانوت، وخارت ووهنت عزيمتي، وأضطر إلى التفكير بحياتي في المستقبل عندما أكتشف أن النقود الباقية في كارت البنك ليست كثيرة، وعمري

بالكاد واحد وأربعون عامًا، وسنوات قليلة باقية في حياتي تنتظر اضطلاعــي بتبديدها، وحصلت على عمل بالتدريس المنزلي من خلال شــركة سمســرة تعمل في مجال التعليم الإضافي، وكانت أول طالبة عندي تقطن في طريق «تشينغ خه»، واتصل والدها بي هاتفيًا، وســمعت صوته في الهاتف كان أجشًّ وتشوبه الشكوك، وقــال إن ابنتــه تُدعى «جينغ شــياو مينغ» في الفرقــة الرابعة بالمدرســة الابتدائية، ودرجاتها العلمية طيبة جدًا. وأضاف أنه وابنته يعملان في مصنع، ودخلهما ليس كبيرًا، يتحملان بصعوبة دفع تكاليف التدريس المنزلي بواقع خمســين يوانًا في الساعة. وكان صوتــه يوحي بأنه لا خيار أمامه، ويتشــابه ذلك كثيرًا مع وضعــي بلا حول ولا قــوة، وقلت له «أتقاضــى ثلاثين يوانًا في الســاعة»، وتوقف لحظة عن الكلام، ثم أردف قائلا: «شــكرا» ثلاث مرات.

وقررنا ميقات الدرس الأول في هذا اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر، وعرجت على الكوافير لقص شعري، ورجعت أدراجي وحلقت ذقني، وبعد ذلك ارتديت ملابســي النظيفة يكسوها من الخارج معطفي القديم وتحته ملابس بالية أيضًا.

عرجت على طريق «تشــينغ خه» المألوف لدي، وأعرف - من الأمام - مكان الســوبر ماركت، ومكان الكافيه الأمريكي ســتار بوكس، ومكان ماكدونالدز وكنتاكي، ومكان شارع الملابس، والمكان الذي يشتمل على عدد من الفنادق.

وطوّفــت بمثل تلك الأمكنة، ورأيت على مرمى البصر شــيئًا غير مألوف على حين غرة، خرابة عشــوائية تسترعي انتباهي، حيــث المباني الثلاثــة القديمة التي تتألف من ســتة طوابق في

شارع «تشــينغ خه» تعرضت للهدم والإزالة، ومنزل الأسرة التي أقصدها للتدريس المنزلي يجب أن يكون وسط تلك المباني.

وعندما مررت بهذا الشارع منذ بضعة أيام، رأيت تلك المباني قائمــة ومنتصبة هناك، وتجفف الملابس في الشــرفات، وكانت عدة لافتات بيضــاء تعلق على المباني الثلاثة، واللافتات مكتوب عليها بالحروف السوداء: «التصدي بحزم لإزالة المباني بالقوة»، و«الاحتجاج على هدم المباني والانتقال إلى آخر بالعنف»، و«أُقسم بالدفاع عن أسرتي حتى الموت».

وألقي نظــرة فاحصة على هــذه الخرابة، ويتــراءى أمامي بعض الملابس المعلقة على حديد الخرســانة الإسمنتية، ناهيك عن رافعتين شــوكيتين، وســيارتي شــحن تقفان على مقربة من الخرابة، وسيارة شرطة، وسيارة ينبعث منها الدفء ويجلس فيها أربعة من أفراد الشرطة.

طفلة صغيرة ترتــدي جاكيتاً أحمر محشــواً بريش الطير تجلس بمفردها على لوح إســمنتي، وحديد الخرسانة المتقطع على جانبي ذلك اللوح كثير التلوي. وتضع الحقيبة المدرســية على ركبتيها، وتفرد الكتاب المدرسي ودفتر الواجبات المدرسية على ساقيها، وتنكس رأسها وتكتب. في الصباح غادرت منزلها وذهبت إلى المدرسة، وحينما انتهى الدوام الدراسي بعد الظهر ورجعــت أدراجها لــم تجده، كما لم تر منزلهــا، ولم تر أبويها أيضًــا، وتجلس فوق ركام الخرابة، وتترقــب عودتهما، وتؤدي الواجبات المدرسية وجسمها يرتعد من شدة الريح الباردة.

أخطو على الخرســانة المسلحة في الخرابة بخطوات واسعة، ويتمايل جســمي يمنة ويسرة، وأســير حتى أصل إلى جوار تلك

الطفلة التي رفعت رأســها وترمقني بنظرة وعلائم الحمرة تعلو وجهها من جراء الريح الباردة.

وسألتها: «أتشعرين بالبرد؟».

تجيب: «أشعر بالبرد».

أشــير بإصبعــي إلى مطعم كنتاكــي في مكان ليــس بعيدًا، وأقــول في داخله الجو دافئ، ويمكن أن نذهب إلى هناك لتؤدي الواجبات المدرسية.

تومئ برأسها، وتقول: «عندما يعود أبي وأمي لا يجدانني».

تحتضن رأســها بعد أن تفرغ من كلامها، وتســتمر في إتمام الواجبات المدرسية على طاولة صنعتها من ساقيها، وألقي نظرة فاحصــة على الخرابــة ولا أدري مكان منزل تلك الأســرة التي أقصدها للتدريس المنزلي.

وسألتها مرة أخرى: «أتعرفين أين منزل جينغ شياو مينغ؟».

تشــير إلى المكان الذي نجلس فيه، وتقــول: «هنا.. أنا جينغ شياو مينغ».

أرى أمــارات الدهشــة تعلو وجهها، وأخبرتهــا بأنني أخذت موعدا اليــوم وأذهب إلى منزلها وأكون مدرســها في التدريس المنزلي. تطأطئ رأســها مرات عديــدة تلميحًا أنها تعرف ذلك، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتبدو عليها الحيرة والارتباك، وتقول:

«لم يحضر أبي وأمي إلى الآن».

أقول: «أحضر غدًا مرة أخرى».

وتلفت انتباهي قائلــة: «لا تكن هنا غدًا، اتصل بأبي هاتفيًا، فهو يعرف أين نكون غدًا».

أقول: «حسنًا.. أتصل به».

أنصرف من الخرابة، وأسير بخطوات صعبة فوق ركام الخرسانة الإسمنتية المتكسرة، وأسمع في الخلف صوتها يقول: «شكرًا، يا مُعلمي».

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها إنساناً يناديني ب «مُعلمي»، وأدير رأسي وأحملق بهذه الطفلة الصغيرة التي تتدثر بالجاكيت الأحمر المحشو بريش الطير، ومازالت تجلس هناك، وتجعل الخرسانة الإسمنتية الصلبة في الخرابة لينة وناعمة.

أرجع إلى الميدان العام أمام الإدارة البلدية حيث يحتشد هناك ألفان أو ثلاثة آلاف من المتظاهرين، ويرفعون اللافتات، ويطلقون الشعارات، إنهم يتظاهرون حقًا في ذلك الحين. الشرطة وسيارات الشرطة تحاصر الميدان من الجهات الأربع، كما قامت الشرطة بإغلاق الطرق، ومنعت الناس خارج الميدان من الدخول إليه. ورأيت متظاهرًا يقف على السلم أمام الإدارة البلدية، ويرفع مكبر الصوت ويصرخ مرات عديدة في جمهور المتظاهرين من ذوي المعنويات العالية في الميدان، ويقول:

«الهدوء! من فضلكم التزموا الهدوء..».

وبعد أن يصرخ في المايكروفون لبضع دقائق، يهدأ جمهور المتظاهرين رويدًا رويدًا. يرفع المايكروفون في يده اليُسرى، ويلوح بيده اليُمنى قائلاً:

«جئنا من أجل العدالة، ونتظاهر بصورة سلمية، ونحن لا نضطلع بالأعمال المتطرفة، ولا نستطيع أن نتركهم يتشبثون بالأقوال».

يتوقف عن الكلام لحظة، ثــم يردف: «أريد أن أُخبر الجميع بأن صباح هذا اليوم شــهد إزالة مبانٍ بالقوة في طريق تشــينغ خــه، ودفن تحت الأنقاض بالخرابة زوجــان، والآن لا نعرف إذا كانا على قيد الحياة أو في عداد الأموات..».

تقف عربة بجواري ويقفز منها ســبعة أو ثمانية أشــخاص، وجيوب سُــترهم منتفخة، وأرى أنها تزخــر بالحصى، وتقدموا إلى أمام الشــرطة التي تغلق الطريق، وأبرزوا هويتهم من جيوب البنطال حتى تطلع عليها الشرطة، وبعد ذلك ساروا مباشرة إلى داخل الميــدان. ورأيتهم -في البداية - يمشــون زهوا وتيهًا، ثم يعــدون عدوًا وئيدًا، ويهرولون إلى السُــلم قبالة الإدارة البلدية، وشرعوا يصرخون:

«حطموا الإدارة البلدية..».

يســتل هؤلاء الأفراد الحصى من جيوبهم، ويحطمون بها نوافــذ الإدارة البلديــة، ويترامى إلى مســامعي دوي صوت الزجاج المتكســر من مكان ناء. وتتدفق الشــرطة إلى الميدان مــن كل حدب وصوب وتفــرق جمهــور المتظاهرين. ويتحول الميدان إلى فوضى عارمــة، ويلوذ المتظاهرون بالفرار من كل جهة ويحاولون تفادي الصدام مع الشــرطة وجهًا لوجه حتى لا يســقطوا على الأرض. وهؤلاء الأفراد الســبعة أو الثمانية الذين حطمــوا نوافذ الإدارة البلديــة يركضون على الطريق ركضًا وئيدًا وينصرفون من الميدان ويتقدمون نحو فردين من الشــرطة يقفان أمامي ويطأطئون رؤوســهم، ثم يقفزون في عربتهــم التي تنطلق بأقصى ســرعة، ورأيت بوضوح أنها من دون ترخيص.

وعندما يأتي المساء أجلس في فندق «تان جيا تساي»، أسعاره زهيدة، ومذاق مأكولاته رائع، وأذهب هناك دائمًا، وكل مرة أغشاه أتناول فقط سلطانية معكرونة رخيصة. وهناك هاتف فوق كاونتر مُحصِّل النقود في الفندق أستخدمه، واتصلت بوالد الطالبة «جينغ شياو مينغ» مرات عديدة، ولكنه لم يستقبل مكالمتي وأسمع صدى رنين جرس الهاتف.

يذيع التلفاز خبر التظاهر الذي وقع بعد ظهر اليوم، وذكر أن قلة قليلة تجمهرت أمام مبنى الإدارة البلدية وأحدثت فوضى، وحطمت البلدية، وحرضت الجماهير التي تجهل الحقيقة، واعتقلت الشرطة - حسب القانون - تسعة عشر خصماً من المشتبه بهم الذين ألحقوا أضرارًا بالأمن العام، وقد هدأت الأوضاع هناك. ولم يبث التلفاز صورًا، وأذاع فقط خبرين عن رجل وامرأة على هامش التغطية الإعلامية من قبل المذيع. وبعد فترة الإعلانات، عرض التلفاز صورة المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية يرتدي البذلة الغربية والحذاء الجلدي، ويجلس على الأريكة، ويستقبل صحافي التلفاز الذي يجري معه حوارًا في إطار التغطية الإعلامية لهذا الحادث، سؤال الصحافي في كلمات قليلة، وكذلك إجابة المسؤول أيضًا، ويكرران ما ذكره المذيع في نشرة الأخبار توًا. ثم يسأله الصحافي إذا كان حادث الإزالة في طريق «تشينغ خه» قد شهد دفن زوجين تحت الأنقاض أم لا؟ يتثاءب وينفي حدوث ذلك، ويذكر أن ذلك كله مجرد شائعات، وتم إلقاء القبض على مروجي الشائعات حسب القانون. ويواصل المتحدث الإعلامي إحصاء الإنجازات البارزة التي اضطلعت بها الإدارة البلدية في بناء حياة الشعب في غضون السنوات الأخيرة.

رجل يجلس بجوار الطاولة يحتسي الخمر ويصرخ قائلا: «أيها النادل، غيِّر قناة التلفاز».

يأخذ النادل جهاز التحكم عن بُعد ويغير قناة التلفاز، وتختفي صورة المتحدث الإعلامي، وتظهر مباراة كرة القدم على شاشة التلفاز.

يدير هذا الرجل رأسه ويخاطبني قائلا: «لا أصدق كلامهم، حتى لا أصدق علامات الترقيم».

يفتر ثغري عن شبه ابتسامة، وأنكس رأسي وأستمر في تناول المعكرونة. وكنت أسند والدي وندلف إلى هنا عندما وقع في براثن مرضه الخطير، ونجلس في ركن أسفل البناية، وأختار الأطباق من لائحة الطعام التي يحب والدي أن يتناولها دائمًا. يأكل قليلاً من الطعام ثم يعزف عن الأكل تمامًا، وأسدي النصح إليه بأن يأكل مرة أُخرى، ويومئ برأسه وينصاع لكلامي، ويأكل بصعوبة، ثم قاء ما أكله. أقدم اعتذاري للنادل، وأطلب منه أن يُحضر فوط السفرة الورقية، وأنظف قيء والدي فوق الطاولة وعلى أديم الأرض. يتكئ والدي على جسدي وننصرف، وأخاطب صاحب المطعم قائلا:

«آسفًا ومعذرة».

صاحب المطعم يهز رأسه برفق ويقول: «لا يهم، نرحب بكما في المرة القادمة».

وبعد أن ينصرف والدي بلا استئذان، أعرج على هذا المطعم بمفردي، ومازلت أجلس في ذاك الركن وأتناول المعكرونة وأنا كسير الفؤاد. ويأتي صاحب المطعم ويجلس في الجهة المقابلة لي، ويسألني عن أحوال صحة والدي، ولم أصدق أنه مازال

يتذكرنا. وفقدت السيطرة على مشاعري في تلك المرة وسردت تجاربي الذاتية في الحياة، وذكرت أنه بعد أن أصاب والدي مرض عضال وحتى لا يثقل كاهلي بالأتعاب، انصرف بمفرده، ولم ينبس صاحب المطعم بحرف ورمقني بنظرة العطف.

وبعد ذلك، وكل مرة أحضر إلى هنا، وبعد أن أفرغ من تناول سلطانية المعكرونة الرخيصة، يرسل لي صاحب المطعم طبق فواكه، ويجلس معي ونتجاذب أطراف الحديث.

صاحب المطعم يُدعى «تان جياشين» وتدير شؤون المطعم معه زوجته، وابنته وزوجها، وتوجد غرف الحجز في الطابق العلوي، وفي أسفله أماكن الجلوس العامة. وقد جاؤوا من مقاطعة (غوانغدونغ). وكان يتنهد نحوي أحيانًا لأن أهل بيته لا يألفون الحياة في هذه المدينة ويفتقرون إلى شبكة العلاقات، ومن الصعب جدًا ممارسة البزنس. ورأيت بأم عيني أن الزبائن في مطعمه كثر، والحركة التجارية نشطة، وأعتقد أنه يكسب أموالا ليست قليلة كل يوم، ولكنه مقطب الجبين طوال اليوم.

وقال لي ذات مرة إن إدارة الأمن العام، والحماية من الحرائق، والصحة، والصناعة والتجارة، والضرائب، تحضر هنا عادة وتتمتع بالطعام والشراب، ولا تدفع شيئًا، ونسجل وليس أمامنا غير أن نسجل في دفتر الحساب. وفي نهاية العام، تطلب تلك الإدارة من بعض الشركات الأهلية أن تدفع حساباتها لدينا، وذكر أيضًا أن الأوضاع كانت أفضل في بداية افتتاح المطعم، حيث تلك الإدارات تسدد ديونها بنسبة تتراوح بين سبعين وثمانين في المئة، والاقتصاد غير مزدهر في السنوات الأخيرة، وأشهرت العديد من الشركات إفلاسها، وعلى الرغم من أن عدد الشركات التي

تدفع حساب تلك الإدارات يتضاءل، بيد أنها مازالت تواظب على عادتها في الإسراف بتناول أطايب المأكولات والشراب. وأضاف: تبـــدو الحركة التجارية في مطعمـــه مزدهرة، ولكن - في الواقع - يعانـــي من عجز مالي. وأردف أخيـــرًا أن لا أحد من موظفي الإدارات الحكومية يجرؤ على أن يرتكب إثمًا.

وعندمـــا فرغت من تناول المعكرونـــة، يغير رجل قناة التلفاز، وتعرض شاشة التلفاز مرة أخرى تقارير حول أحداث المتظاهرين بعـــد ظهر اليوم. وتقوم مراســـلة التلفاز بتغطيـــة تلك الأحداث واســـتطلاع آراء بعض المشـــاة في الشـــارع والذيـــن أعربوا عن معارضتهم لأعمال العنف من تحطيم الإدارة البلدية. وبعد ذلك، يظهر أستاذ جامعي على شاشة التلفاز وهو بروفيسور في قسم القانـــون بالجامعة التي كنت أدرس فيها، وتكلم بحماســـة وثقة، وفي البداية شـــجب أحداث العنف التي وقعـــت بعد الظهر، ثم أدلـــى بأحاديث ذكر فيها أنه ينبغي علـــى الجماهير أن تثق في الحكومة، وتفهم الحكومة، وتؤازر الحكومة.

يتقدم صاحب المطعم «تان جياشـــين» نحـــوي ويهديني طبق الفواكه، ويقول: «لم تحضر منذ بضعة أيام».

أطأطئ رأســـي، وربما تعابير وجهـــي باهتة، ولم يجلس معي كعادته في الماضي ونتحدث ســـويًا، يضع طبـــق الفاكهة، ويدير جسمه وينصرف.

الفواكه مقشرة في أشكال مختلفة وآكلها ببطء شديد، وأتناول صحيفـــة ذلك اليوم التي تركها أناس آخرون فوق الطاولة. وبعد أن قلبت عددًا من صفحاتها بصورة تلقائية، خطف بصري صورة كبيرة نشـــرتها الصحيفة؛ وهي عبارة عن صورة النصف العلوي

لامرأة ما زالت جميلة، وعيونها في الصحيفة تحدق في وجهي، وأنادي اسمها في أعماق نفسي: «لي تشينغ».

وبعد ذلك، قرأت مانشـيت الصحيفـة جاء فيه أن المرأة «لي تشينغ» واسعة الثراء قطعت معصمها وانتحرت أمس في حوض الاستحمام بمنزلها، وأنها تورطت في قضية فساد مسؤول رفيع المسـتوى، وذكرت الصحيفة أنها عشيقة ذلك المسؤول، وعندما توجه رجال الانضباط والتفتيش إلى منزلها استعدادًا للاستعانة بها في تقصي حقائق القضية، اكتشـفوا أنها انتحرت. وحروف الكتابـة في الجريدة كثيفة ومزدحمة، مثـل الحوائط الجدارية الزاخرة بثقوب الرصاص، تسـد عيني، وقـرأت بصعوبة بالغة بعـض الكلمات التي تغص بالجـروح والثقوب، ولم أعرف بعض الكلمات على حين غرة.

في تلك الأثناء، تضطرم النيران في مطبخ المطعم، وتتصاعد أعمدة الدخان الكثيفة، ويدوي صراخ خوف وهلع الزبائن الذين يتناولون الطعام في أسـفل المطعم، وأرفع رأسي وأراهم يطلقون سـيقانهم للريح ويفرون خارج المطعم. تان جياشين يغلق مدخل المطعم، ويصرخ بصوت عال ويطلب من الزبائن دفع النقود أولا، ولكن ثلة من الزبائن تدفعه إلى الخلف وتهرب. ولا يزال يصرخ، وتهرول إليه زوجته وابنته وزوجها ويغلقون المدخل، كما يهرول إليه نفر من نُدل المطعم ويسـدون باب الخروج هناك أيضًا. ويحدث تدافع عنيف وقوي بينهم وبين الزبائن، كما تسمع أصوات التنابز بالشتائم أيضًا، أنكس رأسـي وأستمر في قراءة الصحيفة ذات الحروف المتداخلة الكثيفة بمداد الحبر، وتدوي الأصوات داخل المطعم أكثر فأكثر، وأرفع رأسـي مرة أخـري، وأرى الزبائن في

غرف الحجوزات في الطابق العلوي يلوذون بالفرار أيضًا، وتغلق أسـرة تان جياشين المدخل، ويستمر الصراخ بصوت عال لحث الزبائن على دفع النقود، ولا يدفع أحد من الزبائن نقودًا، بل اصطدموا بأسرة تان جياشين وفروا إلى الشارع من جراء الذعر الشديد، كما حطم نفر من الزبائن النوافذ وهربوا الواحد تلو الآخر أيضًا.

لا أعير اهتمامًا لمشهد الفوضى العارمة داخل المطعم، وأستمر في قراءة مقالة الصحيفة، بيد أنني أرفع رأسي بصورة مستمرة وألقي نظرة على ما يجري حولي. وبعد ذلك، الدخان جعلني لا أرى بوضوح الحروف السوداء في الصحيفة، وفركت عيني وشاهدت بعض رجال من إدارة الصناعة والتجارة يرتدون البزة الرسمية أو من إدارة الضرائب في بزتهم النظامية يفرون من غرف الحجوزات في الطابق العلوي بالمطعم، ويجتازون صالة تسودها الفوضى ويدفعون ويعنّفون أسرة تان جياشين، وبعد أن يتردد صاحب المطعم تان جياشين يفسح الطريق أمامهم ويسمح لهم بالخروج، ويهرولون إلى الشارع وتتسال من أفواههم خراطيم من الشتائم المقذعة.

تواصل أسرة تان جياشين إغلاق مدخل المطعم، ورأيت عيون تان جياشين تحملق في وجهي وسط الدخان، وكأنه يصرخ في وجهي، ويدوي صوت ضخم يُحدث هديرًا في الحال.

* * *

لقد بلغت نهاية الطريق في ذاكرتي، وبغض النظر عن أنني لم أدخر وسعًا في استعراض ذكرياتي، بيد أن ذاكرتي لم يبق فيها ثمة مشهد بعد هذه اللحظة فصاعدا، بل حتى لم يبق فيها خيط

عنكبوت وآثار حصان. والمشهد الأخير في ذاكرتي الذي أستطيع البحث عنـــه هو عيون صاحب المطعم تان جياشـــين تحملق في وجهي، وبعد ذلك مباشرة دوي صوت ضخم خلّف هديرًا.

وفي هذا المشـــهد الأخير تغوص نفســـي فـــي أعماقي حيث انتحار المرأة التي تُســـمى «لي تشـــينغ»، وقـــد كانت زوجتي هي ذكرى جميلة وحزينة أيضًا، وليس هناك متسع من الوقت لطرح أتراحي، لقد وصلت إلى المحطة وأنزل من الحافلة.

لا تـــزال كرات الثلج تتطاير وتتســـاقط، والضباب الكثيف لم ينقشـــع بعد، ومازلت أترجل في الشارع. تتأى قدمي بعيدًا كلما مشـــيت، وتئن نفســـي من وطأة الإرهاق والتعب، وتبغي نفســـي الجلوس والخلود إلى الراحة، ثم جلســـت فـــي الحال، ولا أدري جلســـت على كرســـي أم على حجـــر. ويتمايل ويترنح جســـدي، وجلست هناك مثل ســـفينة بضائع تجاوزت حمولتها تطفو فوق سطح مياه مضطربة.

رجل ميت فاقد البصر يمسك عكازًا يدق به أديم أرض وهمية، ويمشي إلى الأمام، ويتقدم نحوي وتتسمر قدماه أمامي، ويناجي نفسه، ويقول يوجد إنسان يجلس هنا. أقول: «نعم، يجلس إنسان هنا». ويســـألني كيف يذهب إلى مؤسســـة الخدمات الجنائزية؟ وسألته إذا كان لديه رقم موعد أم لا؟ ويستل من جيبه قصاصة ورق ويعطينـــي إياها وأقرؤها، وأجد فـــي أعلاها مطبوعاً رقم (A 52)، وأقـــول ربما مشـــى في الاتجاه الخطـــأ، ويجب عليه أن يدير جســـمه ويعود إلى الخلف، وســـألني مـــا المكتوب على قصاصة الورق؟ أقول الرقم (A 52). ويســـألني ما معنى ذلك؟ أقول عندما تصل إلى مؤسســـة الخدمات الجنائزية ينادى على

الرقم، ورقمك هو (A 52). يومئ برأسه ويدير جسمه ويمشي، ويدق بعكازه أديم أرض ليس لها صدى صوت، وبعد أن يمشـــي بعيدًا، تنتابني الشـــكوك بأنني أرشـــدت هذا الميت فاقد البصر إلى الاتجاه الخطأ؟ وذلك لأن نفســـي حاليا تضل الطريق وضاع منها الاتجاه.

اليوم الثاني

امرأة غريبة تنادي اسمي: «يانغ فيي..».

ويبدو أن النداء يأتي من مســـافة قصيّة جدًا، وتتبدد موجاته الصوتية عندما يترامى إلى مســـامعي، ثم يشـــبه تنهيدة ترتطم بـــالأرض. وأجيل بصري في كافة الأنحاء، ولا أميز بجلاء اتجاه الصوت، غير أني أشـــعر بأن النـــداء المتقطع يأتي موجة صوتية الواحدة تلو الأخرى.

«يانغ فيي.. يانغ فيي..».

أســـتيقظ في المكان الذي جلســـت فيه أمس، حيث جلســـت فوق مقعد خشـــبي طويل يعاني من العفن، وأشـــعر بأنه مهزوز ومتزعزع، ثم ما لبث أن استقر على الأرض كأنه حجر. تتساقط مياه المطر بصورة متتالية وســـط كرات الثلج المتطايرة، وقطرات الماء البيضوية تنفلق وتقذف المزيد من قطرات الماء بشـــكل أكبر، والتي يستمر بعضها في السقوط، وبعضها يتلاشى وسط كرات الثلج.

شـــاهدت المبنى القديم الحميم خلف الأمطار، والثلج يختفي تارة ويظهر تارة أُخرى، وفي داخله شقة تتألف من حجرة واحدة ويســـجل على جدرانها ظلال أجسامنا وأصواتنا أنا وزوجتي لي تشـــينغ. جئت إلى هنا في الظلمـــة الحالكة، وأجلس فوق المقعد

الطويل المســتقر علــى الأرض، وتهدأ مياه الأمطار المتســاقطة وكــرات الثلــج المتطايرة تمامًا. وأجلس وســط هذه الأجواء من الهدوء والسكون، وتلح عليّ الرغبة في النوم، وأغمض عيني مرة أخــرى. وبعد ذلك، رأيت في منامي لي تشــينغ الجميلة الذكية، كمــا رأيت حبنا الذي كان مثل زهرة مــا إن تفتحت حتى ذبلت، كما رأيــت أيضًا زواجنا الذي ما إن تألق نجمه حتى أفل. وذاك العالم يندثر الآن، والأحداث الماضية فيه تدور في ذهني وأنا في الحافلة، ويجول في خاطري صورة لي تشــينغ تملأ عليّ أقطار نفسي للمرة الأولى.

* * *

تتزاحم أجســادنا أنا وســائر الركاب داخــل الحافلة وتترنح وتتمايــل يمنة ويُســرة، ويجلس أمامي راكب ينهــض وينزل من الحافلة، وعندما كنت أســتعد بجانب جســمي للجلوس مكانه، ظهر شبح إنسان وشغل المقعد الذي يجب أن أجلس فيه. وشعرت بالدهشة من أن هذا الشبح يتمتع بالسرعة في اقتناص الفرص، وفي الحال شــاهدت معالم امرأة حســناء وجميلة، إنه الجمال الذي يلجم المرء بالدهشــة. وترفع وجهها قليلا وتتهمك نظرات الرجال في الحافلة في متعة رؤية وجهها حتى ينسوا العودة إلى ديارهم، بيد أن تعابير وجهها تعلوها أمارات متعالية من الصلف والكبرياء، ويبدو أنها تنخرط في التفكير،وتحدثني نفســي أنها اســتولت على مقعدي، ومع ذلك لــم ترمقني بنظرة، على الرغم من أنني أشــعر بغبطة غامرة حيث أســتطيع بين الفينة والفينة التمتع بنضارة بشــرتها البيضاء وقسمات وجهها التي في غاية الجمال في طريق يعج بالزحام والضوضاء. وبعد خمس محطات

أشق طريقي وسـط الزحام نحو باب الحافلة، وتوفقت الحافلة ويفتـح الباب، ويتزاحم الركاب ويتدافعـون في النزول من علبة السـردين، ويبدو أن الحافلة قذفتنـي إلى الخارج، وعندما كنت أترجل فوق رصيف المشاة، شعرت بأن نسمة تداعب وجهي لأنها تجاوزتني بخطوات واسـعة وفي الخلف أرى ملابسـها تتطاير، وخطوات مشـيتها، وتأرجح ذراعها بصورة كبيرة جدًا، وعلى كل حال، تبدو أنيقة جذابة تخطف الأنظار والألباب.

وأقتفـي أثرهـا وتدلف إلـى مبنـى إداري، وتدخل المصعد بخطوات سـريعة، ولم ألحق المصعد، وعندما أوصد بابه، رأيت عينيها، ولكن كانت تنظر خارج المصعد، ولم ترني.

واكتشـفت أنها تعمل معي في نفس الشـركة، وكنت التحقت بالعمل في الشـركة توًا آنذاك. وأنا موظف بسـيط في الشركة لا يجـذب الانتباه، أما هي فنجمة، وجمالهـا وذكاؤها يخطفان الأبصار من كل حدب وصوب. وتصطحب دائمًا رئيس الشـركة فـي ولائم المحادثات التجارية، وقد شـاركت في الكثير جدًا من المفاوضـات التجاريـة. والموضوع الرئيس في حفلات العشـاء تلك مناقشـة المرأة، أما موضـوع التجارة فيجري ذكره عرضيًا. واكتشـفت أن مناقشـة موضوع المرأة يسـتطيع أن يجعل هؤلاء الرجال الناجحـين يتوصلون إلى تفاهم فـي الآراء والعواطف، فقد تعارفوا توًا قبل عدة سـاعات، وأصبحوا أصدقاء حميمين أعزاء بعد بضع سـاعات، ولذلك فالتعاون التجاري ينجح دائمًا ما دامت الشـروط توافرت، وقد قيل إنهـا لطيفة بطبعها على طاولة الخمـر، وتتمتع بالذكاء في المخالطة والمعاشـرة، وتجعل هؤلاء الرجـال الناجحين الذين يفكرون فيهـا وترفض طلبهم،

يغرقون في الضحكات البلهاء، وقدرتها على احتساء الخمر تذهل الجميع، وتستطيع تناول الأنخاب بلا انقطاع مع هؤلاء الزبائن، وتجعلهم يسقطون تحت الطاولة الواحد تلو الآخر، وهؤلاء الزبائن السكارى جداً يحبون أن ترويهم لي تشينغ بالخمر حتى الثمالة في المرة المقبلة، وعندما يحددون موعدًا في الهاتف ويحضرون الوليمة القادمة يوصون رئيس شركتنا مرارًا وتكرارًا ويقولون: «لا تنس أن تحضر معك لي تشينغ».

تغار الفتيات في الشركة من لي تشينغ، ويتجمعن دائمًا ثُلاثَ وخُماسَ في وقت الظهيرة، ويتناولن الغداء أمام النافذة، ويناقشن بصوت خفيض تجارب حبها الفاشلة بصورة مستمرة وأصدقائها في الحب من أولاد القادة في المدينة، وهم يشبهون عصا التتابع ينقلون تاريخ الحب الذي من الصعب فيه التمييز بين الحب الحقيقي والحب المزيف، وأحيانا تمر لي تشينغ أمام هؤلاء الفتيات اللاتي ينخرطن في الجدل الفارغ، وتدرك أنهن يتحدثن عن كيفية أنها أصبحت أداة في أيدي هؤلاء الأولاد لترويج الشائعات، ولا تزال تقابلهن بوجه بشوش وكأن شيئًا لم يكن، حيث ثرثرتهن وكلامهن البطال بالنسبة لها مجرد رذاذ مطر متناثر لا يحتاج إلى الشمسية. لي تشينغ تزهو بنفسها إعجابًا وافتخارًا، وفي الواقع إنها تنبذ أولاد القادة، وليسوا هم يرفضونها. ولا تتحدث إطلاقا في هذا الموضوع مع الآخرين لأنها تفتقر إلى صديق داخل أروقة الشركة، وفي الظاهر تربطها وشائج طيبة مع العاملين هناك، ولكن تشعر - دائمًا وأبدًا - في مناحي النفس بأنها تعيش بمفردها.

ثُلة كبيرة من الشباب تخطب ودها، وترسل إليها الهدايا والزهور اليانعة، بل وفي بعض الأحايين ترسل عدة هدايا في

آن واحد، وهي ترفض هذه الهدايا بأدب وفي ابتسـامة لطيفة. وهناك شـاب في شـركتنا يواظب ويثابر في سـعيه نحو حبها، ويرسـل لهـا الزهور والهدايا لمـدة عام ونيف، وبعـد أن لفظته، لم يكن في الحسبان أنه يخطب ودها بأسلوب تحطيم القدور وإغراق السفن. يتدافع العاملون بالشـركة إلى المصعد الواحد تلو الآخر أثناء الانتهاء مـن دوام العمل، وهو يحمل في يده باقة ورد ويركع أمامها على مرأى ومسمع من الناس. وظهور هذا المشهد المباغت جعلنـا نقف مبهوتين مشـدوهين، وكان رد الفعل من قبل الجميع الهتاف والتصفيق إزاء جسارته، وآنذاك تبتسم وتخاطبه قائلة:

«عندما تخطب ودي تركع، ولكن بعد الزواج لا تركع أبدًا».

يقول: «أرغب في الركوع من أجلك طوال حياتي».

تقول: «حسـناً، أنـت تركع هنا طوال حياتـك، وأنا لا أتزوج طوال عمري».

تتفوه بتلك الكلمات وتدور حوله وهو راكع، وتدلف إلى داخل المصعد، وعندما يغلق بابه، كانت تنظر إلى الخارج وتبتسم، وفي تلك اللحظة رمقتني بنظرة، وشاهدت تعابير وجهي القلقة حيث إنها قاسـية لا ترحم، وربما يتعين عليها الهدوء، مما جعل بدني يقشعر ويرتجف خوفًا إلى حد ما.

يعـم الهدوء والسـكون رويدًا رويـدًا، لأن أصـوات الهتاف والتصفيق لا تتماشى مع ما حدث. والشاب الراكع الذي يخطب ودهـا يحملق في وجوهنا في ارتبـاك وحيرة، ولا يدري إذا كان يجب عليه أن يسـتمر في ركوعه أم ينهـض واقفًا. وترامى إلى مسامعي بعض أصوات قهقهات غريبة، وبضع من النسوة يخفين ضحكاتهـن، ونفر من الرجال يتبادلـون النظرات ويدوي صوت

ضحكاتهم: هيــه! هيه! يدخلون المصعد، وبعــد أن يوصد بابه، نســمع في داخله نوبــة من الضحكات العاليــة، وتهبط أصوات قهقهــات الضحك مع المصعد إلى أســفل، وأصــوات الضحك الهابطة يشوبها السعال.

كنت آخر موظف في الشــركة ينصرف من مكان ذلك المشهد المباغت، وكان ذلك الشــاب لا يزال راكعًا هناك، وجال بخاطري أن أتجــاذب معه أطــراف الحديث، ولكــن لا أدري ما يجب أن أقولــه، ويحدق في وجهــي مرات عديدة، وتعلــو وجهه ضحكة بلهــاء، كأنه يريد أن يتفوه بكلمــات، ولكنه لم يفه بحرف أخيرًا، ينكس رأســه، ويضع باقة الــورد على أديم الأرض، وينهض على ركبتيه. وأشعر أنه لا يجوز المضي قدمًا في الوقوف هنا، وأدلف إلى داخل المصعد الخاوي من البشــر، وشــعرت بأن مشــاعري تغوص في أعماقي عندما كان المصعد يهبط إلى أسفل.

لم يذهب ذلك الشــاب إلى الدوام فــي اليوم التالي، ومن ثم أصوات الضحك في الشــركة مجهــورة، والأحاديث تدور حول ركوعــه وتطلعه إلــى مخاطبة ود تلك الحســناء، ويقول الرجال والنساء إنهم جاؤوا إلى الدوام ويغمرهم الفضول، وعندما يفتح باب المصعد تشــرئبّ أعناقهم لرؤية إذا كان الشاب راكعًا هناك أم لا.

وشــعر نفر منهم بالحزن لأنه لم يواصل ركوعه، وكأن الحياة فقدت أحد مباهجها بصورة فجائية. وقدم استقالته بعد الظهر، وحضر إلى أسفل بناية الشركة، واتصل هاتفيًا بأحد معارفه من زملائه، والذي يستقبل المكالمة ويقول:

«مشغول الآن».

يضع سماعة الهاتف، ويلوح بيديه ويخبر الجميع بصوت عال: «لقد استقال من العمل، ولا يجرؤ أن يحضر هنا، يطلب مني مساعدته في جمع أغراضه وإرسالها إليه أسفل المبنى».

وبعدأن تدوي نوبة من قهقهات الضحك، يستقبل زميل آخر له مكالمة هاتفية ثانية منه، بيد أنه يقول بصوت مرتفع: «مشغول جدًا، أحضر بنفسك هنا».

يضع سماعة الهاتف، ولا يذكر أنه اتصل به هاتفيًا، وتدوي قهقهات الضحك مرة أخرى وتحدث دويًا. أنهض واقفًا بعد أن ترددت، وأتقدم نحو مكتبه هناك، وأقوم أولا بتصنيف الأشياء فوق المكتب، كما أستل الأشياء المتعلقة به من داخل الأدراج وأضعها فوق المكتب، ثم أبحث عن حقيبة ورقية وأدس فيها كافة الأشياء المتعلقة به. وفي غضون ذلك، اتصل بزميل ثالث وسمعته في الهاتف يخبره قائلا:

«يجمع يانغ فيي أمتعتك الآن».

أحمل الحقيبة الورقية وأغادر مبنى الإدارة، وكان يقف هناك ويظهر عليه التعب والإرهاق الشديدان، وسلمته تلك الحقيبة، ولم ينظر إليّ بملء عينيه، ويأخذ الحقيبة ويشكرني، ثم يدور بجسمه وينصرف. رأيته ينكس رأسه ويعبر الشارع الرئيس، وتتلاشى صورته في خضم تدفق الغرباء بالشارع، ويغص قلبي بمشاعر من الصعب وصفها، لقد عمل في الشركة خمس سنوات، ولكن زملاء العمل في الشركة - بالنسبة له - لا يختلفون عن الغرباء في الشارع.

أعود إلى مكتبي، وبعد أن أجلس في مقعدي، يأتي رهط من موظفي الشركة يسألونني عن الحديث الذي دار بيننا، والملامح

والتعابير التي تعلو وجهه. ولم أرفع رأسي، وأنخرط في مشاهدة شاشة الكومبيوتر، وأقول بقلة اكتراث:

«تسلم الحقيبة الورقية وانصرف في التو».

في ذاك اليوم، المنطقة الإدارية، التي نعمل فيها ومساحتها ألف متر ونيف، تزخر بمشاعر البهجة والغبطة. وأنا أعمل في الشركة منذ عامين، وهذه المرة الأولى التي أرى فيها كثيراً من الموظفين يشعرون بالسرور في آن واحد، ويتذكرون مشهد ركوع ذلك الشاب أمس، ثم يسردون بعض المواقف المضحكة التي ألمّت به في الماضي، وذكروا أنه تعرض للسلب والنهب عندما كان في نزهة على الأقدام داخل حديقة، حيث اعترض طريقه اثنان من قطاع الطرق في وضح النهار، ويسألانه:

«أيوجد قسم شرطة قريب من هنا؟».

يجيب: «لا يوجد».

ويكرران سؤالهما مرة أخرى: «حقًا، لا يوجد، أليس كذلك؟».

يجيب: «لا يوجد بكل تأكيد».

ثم يطوقان رقبته بسكينين، ويطلبان منه أن يستل بطاقة نقوده ويسلمها لهما..

وينخرطون في الضحك بلا انقطاع، وكنت الوحيد الذي لم يضحك تقريبًا، ثم ركزت انتباهي في عملي، وعزفت عن الاستماع إلى أحاديثهم. ونهضت من مكاني مرتين لتصوير وثائق، وآنذاك كان الالتقاء بنظراتها بالمصادفة حيث تجلس أمامي بميل، وأدور برأسي في التو، ولم أنظر هناك حيث تجلس مرة أُخرى منذ ذلك الحين فصاعدا، وبعد ذلك، بضعة رجال يتقدمون إليها ويتملقونها، ويقولون:

«بغض النظر عما حدث، فأنت تستحقين أن يركع من أجلك».

وسمعت إجابتها الساخرة: «وأنتم تفكرون أن تحذوا حذوه أيضًا».

ويقول هؤلاء الرجال الواحد تلو الآخر وسط دوي الضحكات: «لا نجرؤ، لا نجرؤ..».

في هذه اللحظة أضحك بصوت هادئ من أنها تتكلم دائمًا بكلمات الود والصداقة، وهذه هي المرة الأولى التي أسمعها تتفوه بكلمات لاذعة ساخرة، وتغمرني سعادة غامرة.

وربما كنت أنا الشاب الوحيد من بين شباب الشركة لم يسع إلى إقامة علاقة معها، على الرغم من أن جيشان الحب يرتطم في قلبي، وأدركت أنه الحب في السر، وعلى كل حال، إن مركّب النقص جعلني أشعر بأنه لا يمكن أن يربط بيننا الحب. والمسافة بين مكتبينا قريبة جدًا، ولم أبادر أبدًا بالحديث معها. يكفيني أن أشعر بالسعادة من أنها قريبة مني، وكذلك صوتها أيضًا، وبعد ذلك سعادة خفية في سويداء قلبي، لا يدري بها أحد، وهي لا تعرف ذلك أيضًا. وهي تعمل في قسم العلاقات العامة، وأنا في قسم التسويق، وتأتي إليّ مصادفة وتسألني عن بعض المسائل المتعلقة بالعمل، وأتفرس معالم وجهها بنظرات عادية، وأنصت باهتمام إلى كلامها، وأجيب عن تساؤلاتها. وفي تلك اللحظات، أشعر بمتعة كبيرة جدًا حيث أستطيع التلذذ بملامحها الجميلة بأدب واحتشام. ولا أعرف ما السبب الذي جعلني لا أجرؤ على أن أحملق في عينيها مرة أخرى بعد أن عاملت ذاك الشاب، الذي ركع أمامها من أجل أن يخطب ودها، بقسوة وبلا رحمة. وعلى أية حال، تأتي إليّ دائمًا وتسألني عن موضوعات خاصة

بالعمل بصورة أكثر من ذي قبل وبشــكل جلــيّ، وكل مرة أنكس رأسي وأرد على سؤالها.

وبعدانقضــاء بضعة أيام، انتهيت من الــدوام متأخرًا بعض الشــيء، وهي في الطابــق الإداري العلوي ركبــت المصعد توًا، وعندمــا هبط المصعد وفُتح بابه رأيتها بمفردها داخله، وترددت أدخل المصعد أم لا، ووجدتها تضغط على زر المصعد حتى يبقى الباب مفتوحًا، وتقول:

«ادخل».

أدخــل المصعد، وكانت هذه المــرة الأولى التي نلتقي فيها معًا بصورة منفردة، وسألتني: «كيف حاله؟».

أصابتنــي الحيرة والارتباك في البداية، ثم فهمت أنها تســأل عن ذاك الشاب الذي ركع طالبًا خطبة ودها، فأقول: «تظهر عليه علامات الإرهاق الشديد، وربما يتجول في الشوارع طوال الليل».

ســمعت صوت تنفســها العميق، وتقــول: «تصرفه على هذا النحو جعلني في حيرة وارتباك».

أقول: «كما أوقع نفسه في ورطة ومأزق».

أرى أرقام الطوابق تلتمع عندما يهبط المصعد إلى أسفل.

وتسألني فجأة: «أتشعر بأنني قاسية إلى حد ما؟».

أشعر بأنها تتسم بقســاوة القلب بعض الشيء، ولكن صوتها مشــوب بالعزلة والوحدة، مما جعلني أشــعر بالحزن من أجلها على حين غرة. وأقول: «أشــعر بأنك تعانين كثيرًا من الوحدانية، ويبدو أنك تفتقرين إلى الأصدقاء».

عيونــي تخضبهــا الدموع بعــد أن تفوهت بتلــك الكلمات، ولا يمكن أشتاق إليها في لحظات الليل البهيم لأنني أحذر نفسي

دائمًا، فهي فتاة لا تربطني بها ثمة علاقة، بيد أنني في تلك اللحظة شعرت بالحزن بصورة فجائية من أجلها. تمد يدها وتتحسس ذراعي، أخفض رأسي وتعطيني علبة مناديل ورقية، وأنزع منها منديلا، وأردها إليها، ولكنها غابت عن وجهي.

في الأيام التالية، أصبحنا كما كنا في الماضي، يحضر كل منا إلى الدوام، وينصرف بعد انتهاء الدوام، وكانت تأتي إليّ دائمًا وتسألني عن بعض الأشياء المتعلقة بالعمل، وما زلت أحدق فيها بنظرات عادية وأستمع إلى كلامها وأجيب عن سؤالها. وبالإضافة إلى ذلك، لا تربطني بها ثمة علاقة. وعلى الرغم من أننا نلتقي في الشركة عند الدوام في الصباح الباكر، وتلتمع في عيونها بعض أمارات الإعجاب، ولكن التجربة البسيطة في المصعد لم تجعلني أغرق في الأوهام، غير أن هذه التجربة جعلتنا زملاء في العمل تربطنا علاقة حميمة. وأشعر بالرضى التام عندما أتذكر أنني يمكن رؤيتها في الدوام، ولم أدرك البتة أنها بدأت تقع في غرامي.

كانت الفتيات آنذاك يشعرن بالفخر أن تتزوج إحداهن من أولاد القادة، ويستثنى من ذلك لي تشينغ، فهي برؤيتها الثاقبة تستطيع أن تميز من أولاد الذوات الإنسان الذي يمكن أن يكون رفيق عمرها. وهي تحضر مع رئيس الشركة حفلات عشاء المحادثات التجارية، مما وسع دائرة معارفها بعدد غير قليل من الرجال الناجحين الذين يركضون وراء نساء أخريات خلف ظهور زوجاتهم، وكانت شديدة الاهتمام بأقوال وأفعال هؤلاء الرجال. وربما حنّكتها تلك التجارب وحددت معيارها في الاختيار، وهو البحث عن رجل مخلص وموثوق فيه، وقابلتني أنا بالمصادفة.

بلادتي وحماقتي في العواطف والمشاعر تشبهان غرفةً بابُها ونافذتُهـا موصودان بإحكام شـديد، وذلك علـى الرغم من أن خطوات الحب تترامى إلى مسـامعي وتذرع المكان جيئة وذهابًا أمام الغرفة. ولكن أشـعر بأنها خطوات السائر الذي يتجه إلى أناس آخرين. وذات يوم تتسمر تلك الخطوات هنا، ثم يدق جرس الباب.

كان ذلك في إحدى أصائل فصل الربيع، والشركة خاوية على عروشها، وعندي بعض الأعمال أنجزها في وردية إضافية وتأتي إلي. وسـمعت بجواري قعقعات حذائها ذي الكعب العالي يرتطم بـأديم الأرض من الرخام، ورفعت رأسـي وأحـدق فيها ورأيت ابتسامة ترتسم على ثغرها.

تقول: «غريب جدًا، رأيت في حلمي مساء أمس أننا تزوجنا».

أصابني الذهول الشـديد، وتجحـظ عيناي، وهل من الممكن تحقيق ذلك؟ ولم أنبس ببنت شـفة آنـذاك، تحملق في وجهي، ويبدو أنها غارقة في بحر من التفكير، وتقول: «غريب حقًا».

تتفوه بتلك الكلمات، وتلف جسمها وتتصرف. وصوت ارتطام حذاء الكعب العالي بأديم الأرض يشبه نبضات قلبي التي تدوي دائمًا، وتتلاشى قعقعات ذلك الحذاء، لكن نبضات قلبي تتسارع وتدوي.

هدهدتني الأوهام، وروحي تفارق بدني في الأيام التالية، وفي جوف الليل حيث الهدوء والسكون أتذكر تعابير وجهها وملامحها ولهجتها عندما نبسـت بتلك الكلمات، وأخمن بحذر شـديد إذا كانـت ترغب فـي الزواج مني أم لا؟ وأقدح زنـاد ذهني في آناء الليل وأطراف النهار. وفي مسـاء ذات يوم رأيت في حلمي أنني

تزوجتهـــا، وما رأيته ليس مشـــهد الجلبـــة والضوضاء في حفلة الزواج. بل رأيت مشهد يدي تعانق يدها ونمشي سويًا في الشارع قاصدين مكتب تسجيل الزواج. وفي اليوم التالي، وعندما رأيتها في الشركة أحمر وجهي وانتفخت أوداجه، واكتشفت ذلك بنظرة ثاقبة، وانتهزتْ فرصة أنه لا يوجد أحد بجوارها، وسألتني:

«لماذا علامات الحمرة تعلو وجهك عندما رأيتني؟».

تنطوي نظراتها على تهديد ووعيد، وأنأى بنفسي عن عيونها، وأقول وفرائصي ترتعد: «مســـاء أمس رأيت في حلمي أنا وأنتِ نسجل زواجنا».

يفتر ثغرها عن ابتسامة، وتقول بصوت خفيض: «أنتظرك في الشارع المقابل للشركة بعد انتهاء الدوام».

حدث ذلك في يوم طويل وبطيء يشبه سنوات شبابي الطويلة. وتفكيري مشـــتت ومبعثر في العمل، وعندما أتحدث مع أقراني أجيب عن أســـئلة لم يســـألوها، والســـاعة المعلقة على الحائط تبدو عقاربها بطيئة كلما تقدمت إلى الأمام، مما جعلني أشـــعر بصعوبة في التنفس أكثر فأكثر. وعانت نفســـي وقاسيت بمرارة مـــن تباطؤ الوقت، وأخيرًا انتظرت حتى انتهى الدوام. وعلى كل حال، ما زلت أشعر بضيق التنفس عندما كنت واقفًا في الشارع المقابل للشـــركة، ولا أدري إذا كانت في وردية إضافية أم تتعمد قتـــل الوقت وتختبرني، وانتظرت حتى غشـــي الليل ورأيتها أمام بوابة الشـــركة، وتوقفت لحظة على الســـلم، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتهرول على السلم بعد أن رأتني، وتأخذ حذرها من الســـيارات وتعبر الشـــارع وتركض حتى بلغت أمامي، وتقول والضحك يملأ شدقيها:

«أأنت جائع؟ أدعوك إلى تناول الطعام».

تفرغ من كلماتها وتمسك ذراعي بحرارة، ونمشي إلى الأمام سويًا كأننا لسنا في موعد الغرام الأول، بل يربطنا الحب منذ ردح طويل. وبادئ ذي بدء تلجمني الدهشة ثم تغمرني السعادة في الحال.

في الأيام التالية، كنت أسأل نفسي دائمًا إذا كان ذلك حقيقة أم مجرد خيال؟

وتواعدنا أن نلتقي في محطة الحافلات صباح كل يوم، ثم نستقل الحافلة وندلف إلى الشركة، وأنا أذهب إلى هناك في المحطة قبل الموعد بأكثر من ساعة، وقلبي راجف واجف عندما لا تظهر أمامي، ولا يهدأ قلبي ونفسي إلا عندما أرى ملامحها الجذابة وطلعتها الباهية وهي مقبلة نحوي بخطوات سريعة ويتأرجح ذراعاها، وأؤكد وقتئذ أنه ليس خيالاً، بل حقيقة ماثلة أمام عيني.

ندلف إلى الدوام معا، وننصرف من الدوام سويًا، وبعد زهاء عشرة أيام لم ينتبه أقراني في الشركة إلى أننا نتبادل أحاديث الهوى، وربما هم مثلي كما كنت في الماضي، يعتقدون من المستحيل أن نقع في حبائل الحب. وفي بعض الأحايين، ينتهي الدوام وأنا قد أنجزت أعمالي، أما هي فلا تزال تكمل أعمالها، وأتسمر في مقعدي، وأنتظرها.

سألني أحد الزملاء عندما كان ينصرف: «لماذا ما زلت جالسًا ولا تتصرف؟».

أجيب: «أنتظر لي تشينغ».

أرى ابتسامة عجيبة ترتسم على وجه زميلي كأنه يسخر مني،

ويرى أنني على وشك أن أكون مثل العربة التي سارت في الطريق الذي انقلبت فيه العربة السابقة. وفي أوقات أخرى، كانت تنتهي من أعمالها، بينما أنا لا أزال أكمل عملي، وتجلس بجواري.

تتبايـن وجوه الزمـلاء الذين ينصرفون، ويسـألونها وعلائم الدهشة والذهول تعلو وجوههم: «ما زلت هنا، لماذا لا تتصرفين؟».

تجيب: «أنا أنتظره».

انتشار خبر حبنا أحدث جلبة وضوضاء في الشركة، واستعصى علـى الرجال فهم ذلـك، ويعتقدون أن لي تشـينغ تزدري أولاد القادة في الحضر، وتحترمني أنـا الذي عمت عيناه عن رؤوس البطيخ ويلتقط بذور السمسم، ويشعرون بأن ذواتهم ليست أقل شأنًا مني البتة، ومن ثم يشعرون بالغضب والغيظ بعض الشيء، ويتحدثون سـرًا ويقولون: «حشـر الزهور اليانعة في روث البقر حقيقة فعلا، وضفدع الطين يتشوق إلى لحم الوز حقيقة أيضًا». أما النساء فيفرحن في مصائب الآخرين ويبتسمن ابتسامة ذات مغزى عند رؤيتي، ثم يتبادلن النصح السـديد، ومفاده أن البحث عن رفيق العمر لا يحتاج إلى كثير التدقيق في الاختيار، والعثور على الشـخص المناسـب يكون معقولاً، ويتأملن حالة لي تشينغ التـي وقعت في معتـرك الاختيار مرات عديـدة، وكانت نتيجة اختيارها سلعة زهيدة الثمن.

وننخرط في قصة حبنـا، ومثل تلك التعليقات الموجهة إلينا ترعبنا - كما ذكرت لي تشينغ - رعبَ حفيف الأوراق في الريح. وكانت تشـعر بالغضب أيضًا أحيانًا، وعندما عرفت أنهم يقولون عني روث البقر، وضفدع الطين، وسلعة رخيصة، تكلمت بفظاظة وخشونة، ونعتتهم بأنهم هراء وكلام فارغ.

تسمر نظرها في وجهي، وتقول: «أنت أنيق جدًا».

أقول وتعتريني عقدة النقص: «أنا - في الحقيقة - سلعة رخيصة».

تقول: «لا، أنت نقي السريرة، وموثوق فيه».

تتعانق أيدينا ونمشي في الشارع يلفه ظلام الليل، ثم نجلس على مقعد في مكان منعزل غير مطروق بالحديقة فترة طويلة، وتشعر بالإرهاق وتسند رأسها على منكبي، وأمد يدي وأسحب ذراعها. وعندما كنا هناك، أطبع قبلة للمرة الأولى، وهي تقبّلني للمرة الأولى أيضًا. وبعد ذلك، نمكث دائمًا في الغرفة الصغيرة التي استأجرتها، وكشفت لي النقاب عن جانب الوهن والضعف لديها، وسردت متاعبها عندما تصطحب رئيس الشركة وتشارك في جميع مآدب المحادثات التجارية، وهؤلاء الرجال الناجحون تعبير عيونهم طيب وكلامهم قبيح، وتمقتهم في أعماق قلبها، وما زالت تقابلهم بوجه بشوش وتتبادل معهم الأنخاب بلا انقطاع، ثم تدلف إلى دورة المياه وتتقيأ، وبعد ذلك تواصل الشراب معهم أيضًا، وأن قصص غرام أولاد القادة في المدينة معها مجرد شائعات، وأنها تقابلت مع ثلاثة منهم فقط، وكان التعارف من خلال رئيس الشركة، وهؤلاء الثلاثة يتحلون بالمظاهر المختلفة من ابن الأمير، وابن موظف حكومي كبير، والأخ الكبير. الأول يختال بصلف وكبرياء في حديثه، والثاني يرمقها دائمًا بنظرات غريبة الأطوار، أما الثالث فيشاكسها بمجرد رؤيتها، وتبتسم وتتصدى لجلافته، ويقول لها لا داعي للتظاهر بالأدب. ويقيم أبواها في الريف البعيد، وبعد أن تتعرض لكافة أشكال التعسف والحيف تتصل بهما هاتفيًا، وتريد أن تشكو وتبكي، لكن بعد أن

تســتقبل المكالمة الهاتفية الحزن في قلبها والبسمة على شفتيها، وتخبر والديها بأنها على ما يرام حتى تجعلهما يشــعران براحة البال.

ســرد قصتها جعلني أشــعر بالحزن الدفين، وتحتضن يداي وجهها، وأقبّل عينيها وأحك جلدها حتى تتفرج أســارير وجهها. وتقول إنني أحظــى باهتمامها منذ زمن بعيد، واكتشــفت أنني أعمــل بجد واجتهــاد، وهناك زميل عاطل عن العمل يســتحوذ دائمًا علــى إنجازاتي، ويقدم تقريرًا إلــى الجهات العليا بذلك. لم أحاسبه على تصرفاته بدقة، وأخبرتها أنني أستشيط غضبًا مــرات عديدة حقًا، وأريد اســتجوابه، ولكن كلماتي تحتبس في فمي ولا أتفوه بها.

وأردفت: «وأحيانًا أكره وهني وضعفي».

تتحســس وجهي بيــد تغمرها الحب والحنــان وتقول: «أنت لا تعاملني بقوة وقسوة، أليس كذلك؟».

أرد: «لا يمكن ذلك إطلاقًا».

يتواصــل كلامها، وتقول إنني كنت مكتوف اليدين عندما كان شباب الشركة يحتكمون إلى أساليب مختلفة لخطب ودها، وكان لديها بعض الفضول، وتأتي إليّ وتســألني عن موضوعات تتعلق بالعمل، وأســتطلع نظراتها. وعلى كل حال، تعبير العينين عندي لا يختلــف عن تعبير عيون الرجال الآخرين في الشــركة عندما أنظر إليها، إنه تعبير العينين من الصداقة الخالصة، وبعد ذلك، ومــع حادث ذلك الشــاب الذي ركع طلبًا لخطــب ودها، جعلها تحمل عني انطباعًا جيدًا، وتســترق النظــر إليّ وأنا في خضم أصوات الضحك المدوية أجمع أغراض ذلك الشــاب وأســلمها

له أسـفل مبنى الشركة. تكف عن الكلام برهة، ثم تقول بصوت خفيض جدًا إنها كلما تسلطت الأضواء عليها في الخارج، تشعر بالوحدانية عندما تعود في المســاء إلى غرفتهــا الصغيرة التي اســتأجرتها، وفي هذه اللحظــة تتوق إلى رجــل يبادلها الحب ويرافقهــا. وعندما تقابلنــا في المصعد لفتــرة وجيزة، خضبت الدمــوع عيني في تلك اللحظة، وتأثــرت بصورة فجائية بالحب الدافئ الذي ينبعث من قلبي الذي يعشــقها. وفي الأيام التالية، تشعر بأنني ذلك الرجل الذي يمكن أن يرافقها أكثر فأكثر.

وبعد ذلك، تمســك أنفي برفق شــديد، وتســألني: «لماذا لم تركض ورائي وتخطب ودي؟».

أجيب: «ليس عندي هذه الأطماع».

جمعنا الرباط المقدس بعد انقضاء سنة. ومسكن والدي صغير جدًا، ونؤجر شقة من غرفة واحدة باعتبارها شقة جديدة. والدي في نشــوة من الفــرح لأنني تزوجت فتاة حســناء وذكية، وكانت تعامل والدي معاملة طيبة أيضًا، وفي نهاية الأسبوع نذهب إليه ويأتي إلى بيتنا ويقضي يومًا معنا. وفي كل مرة نذهب لإحضاره، وبعــد أن نصعد الحافلة بعد التزاحم والتدافع، نســتطيع دائمًا بحركــة خفيفة أن نقتنص مقعدًا مــن أجل والدي، وهذا جعلني أتذكــر مشــهد رؤيتها للوهلــة الأولى، وأبتســم، وعلى كل حال لا أخبرها بذلك أبدًا. وفي عيد الربيع[1] نركب القطار ونســافر

(1) أهم عيد في الصين وأكثر الأعياد التقليدية مهابة وإجلالا. والســواد الأعظم من القوميات في الصين تحتفل به. وتتركز نشاطات العيد في عادات وتقاليد رأس السنة الجديدة من «تنظيف معبد الأجداد وطقوس القرابين»، ويشمل ذلك السجود للسماء والأرض، وتقديم القربان للأجداد والأســلاف، وتقــديم التهاني لأفراد العائلة والأقرباء والأصدقاء، ويجســد ذلــك اهتمام الأمة الصينية بالوشائج الإنسانية والأخلاق الحميدة. [المترجم]

لزيــارة والديها، وهما عاملان في مصنع تديره الدولة، ويتمتعان بالأمانة والإخلاص والنية الطيبة، وتغمرهما الفرحة لأن ابنتهما تزوجت رجلاً واقعيًا وموثوقًا فيه.

تنعم حياتنا بالهدوء والجمال بعــد زواجنا، غير أنها مازالت تصطحب رئيس الشركة في حفلات العشاء، وأنتظرها بمفردي في المنزل بعد أن يغشـــى الليــل، وتعود أدراجها إلــى بيتها في وقــت متأخر جدًا دائمًا، وتفتح البــاب وتدلف إلى الداخل وهي منهكة ومتعبة للغاية، وتفتح ذراعيها وتحتضنني وجســمها معبأ برائحــة الخمر، وتتكئ برأســها على صدري وتســتريح لحظة، ثم تلقي جســدها على الفراش. إنهــا تمقت هذه الحفلات، بيد أنها لا تســتطيع الاعتذار عن حضورها. وكانت نائب مدير قسم العلاقات العامة في ذلك الحين، وهي تحتقر منصب نائب المدير هذا، وعلى حد تعبيرها فإنه نائب المدير الذي يرافق الندماء في احتساء الخمر. وقد ذكرت لي في الماضي أن الجمال هو رخصة مرور للمرأة، ولكن هذه الرخصة تستخدمها الشركة دائماً، وهي لم تستخدمها أبدًا.

نســير بخطوات ثابتة علــى درب حياتنا لمــدة عامين وأكثر، وبدأنا التخطيط لشــراء شــقة خاصة بنا، وفي الوقت نفســه قررنا إنجاب طفل، وشــعرت بأن وجود طفل يعتبر بمثابة سبب للاعتذار عن حفلات العشــاء، ومن أجل ذلك، عزفتُ عن تناول حبوب منع الحمــل، ولكن عقبات ظهرت على طريق تقدمنا إلى الأمام في ذلك الحين. وتجربة ســفرها في مهمة جعلتها تدرك حقيقة نفسها، كما أدركت حقيقتي أيضًا، وهي تقدر على تغيير مصيرها، أما أنا فأساير التيار الذي يحدده مصيري.

تســـتقل الطائرة ويجلس بجوارها حاصل على الدكتوراه كان يدرس في الولايات المتحدة، وأسّـــس لتوه مشروعًا خاصًا وشق طريقًا جديدًا، ويكبرها بعشر سنوات، وهو متزوج ولديه أطفال. قدّم لها بحماسة بالغة وصفًا لمشروعه الخاص المبشّر بمستقبل زاهر أثناء فترة الطيران التي اســتغرقت ساعتين ونيفًا، وأعتقد أن ملامحها الخلابة أســـرته، ولذلك استرســـل في الكلام كأن لسانه شلال لا يهدأ، وقد اصطحبت رئيس الشركة وشاركت في العديد من حفلات المحادثات التجارية، مما أكسبها خبرة جعلتها تتمكـــن من طرح عدد غير قليل من الاقتراحات المفيدة، وبعد أن بـــات مفتونًا بجمالها الجذاب، شـــرع يبدي إعجابه بما تتمتع به من الدقة والجدية والرشاقة، وقدم لها دعوة في الطائرة، قائلا: «تعملين معي؟».

بعد هبوط الطائرة، لم يقم في الفندق الذي حجز فيه غرفة مســبقًا، بل انتقل إلى الفندق الذي تقيــم فيه تعبيرًا عن رغبته في الاســـتفادة مـــن خبراتها بصورة مســـتمرة، وحجّته في هذا الشـــأن كانت ظاهرية، ولكن أشعر بأن الأهم من ذلك أنه ما زال مولعًـــا بجمالها. يفترقان في النهار حيـــث يذهب كل منهما إلى الدوام، وفي المســـاء يجلسان في بار الفندق يناقشان الصعوبات التي تواجه مشـــروعه، وتستمر في تقديم الاقتراحات من أجله، ولا تقدم التصورات الجديدة لمشـــروعه فحسب، بل تطلعه على الكثير من القوانين الخاصة بتأســـيس المشـــروعات في الصين، مثل: كيفيـــة التعامل مـــع موظفـــي الإدارات الحكومية، وكيفية تقـــديم بعض المنافع لهم، وهو لا يعي الكثير من القوانين الخفية في واقع الصين، حيث مكث ســـنوات طويلة في أمريكا للدراسة.

وعندما يفترقان، يبدي رغبته مرة أُخرى في أن تعمل معه، تبتسم ولا تعده بثمة شيء، وتترك له رقم هاتف منزلها.

في تلك الأثناء، يطرأ تغير على قلبها، ورئيس شــركتنا يعرف فقــط أنها جميلـــة وذكية، بيد أنه لا يــدرك كفاءتها وطموحها، وشــعرت أن الشـــاب الذي قابلته على متن الطائرة يستطيع أن يفهمها فهمًا حقيقيًا.

تتنـــاول حبوب منع الحمل من جديــد بعد أن رجعت أدراجها إلى البيــت، وتقول إنها لا تنجب أطفالاً بصـــورة مؤقتة، ويدوي رنين جرس الهاتف مساء كل يوم، وتستقبل المكالمة وتتجاذب معه أطراف الحديث لمدة ســـاعة وأكثر أحيانًـــا، وأحيانًا أُخرى لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. في البداية كنت أستقبل المكالمة دائمًا، وفيمـــا بعد لم أضطلع بذلك حينما يـــدوي رنين جرس الهاتف. وكلامهـــا في الهاتف يتركز كله حول أعمال شـــركته، ويســـألها وهـــي تجيب بعد إمعان التفكيـــر. وفيما بعد كانت تأخذ الهاتف وتســـمع كلامه، وقلما أن تتفوه بالكلام، تضع سماعة الهاتف ثم تنخرط في تفكير عميق، وتدرك بعد برهة أنني أجلس بجوارها، ولا تدخر وســـعًا حتى تجعلني أبتســـم، وتنتابني مشاعر مسبقة مفادها أن دفة حديثهما شـــهدت تغييرًا، ولم أنبس ببنت شـــفة، ولكن موجات الحزن والألم تتدفق في قلبي.

بعد نصف ســـنة زار مدينتنا التي نقطن فيها، وكان انتهى من إجـــراءات الطلاق وقتئذ، وذهبتْ إلى الفندق الذي يقيم فيه بعد تناول طعام العشاء، وقبل أن تنصرف أخبرتني بأنها تذهب إليه. وأجلس على الأريكة طول الليل، وذهني صفحة بيضاء وتفكيري يـــكاد يموت. ولم ترجـــع إلى البيت إلا عند انبـــلاج النهار، ودار

بخلدها أنني أغط في نومي، وتفتح الباب بحذر شـــديد، وتراني أجلــس على الأريكة، ولم تتمالك نفســـها وأصابها الارتباك، ثم تتابها مشاعر الجبن وهي تدلف إلى الداخل وتجلس على مقربة مني.

تتحلى بالثقة في نفســـها على هـــذا النحو دائمًا، وكانت هذه المرة الأولى التي أراها جبانة، وتنكس رأسها في ارتباك، ويتهدج صوتهـــا وتخبرني بأن ذاك الشـــاب قد طلق زوجتـــه من أجلها، وتشـــعر بأنها يجب أن ترافقه لأن التطلعات المشـــتركة تربطهما ويســـيران علـــى الدرب الواحد. لـــم أتفوه بحـــرف، وتكرر على مســـامعي أنه طلق زوجته من أجلها، وســـمعت نبرة التوكيد في كلامهـــا. أقلّب الموضوع في رأســـي؛ أي رجل يرغب في الطلاق مـــن أجلهـــا. ومازلت ألتزم الصمـــت، ولكن نفســـي أدركت أنها فقدتهـــا، وفهمت أنها عندما ترافقني تســـتطيع فقط أن تعيش حياة ســـهلة وناعمة وعادية، أما مع ذلك الشاب فيمكن أن تفتح مجالاً للمصالح، وفي الحقيقة لدي شـــعور مســـبق خفي منذ ما قبل نصف ســـنة مفاده أنها سوف تفارقني، ويقوى ويتعاظم هذا الشعور منذ سنة، وفي هذه اللحظة أصبح حقيقة.

تتنفس نفسًا عميقًا وتخاطبني: «الطلاق».

أقول: «حسنًا».

أفرغ من كلامي، ولم أتمالك نفســـي، وتســـح دموعي، وعلى الرغم من أنني لا أرغب بالانفصال عنها، ولكن أفتقر إلى المقدرة لإجبارها على البقاء معي. ترفع رأســـها وتحدق في وجهي وأنا أنتحب وأبكـــي، فانخرطت في البكاء أيضًـــا، وتكفكف دموعها بيدها، وتقول:

«آسفة، آسفة...».

أمسح دموعي، وأقول: «لا داعي للأسف».

نغشى الشركة معًا كما كانت عادتنا في الماضي في صباح هذا اليوم، وأطلب إجازة شخصية لمدة يوم، وهي تقدم استقالتها، ثم نسير في الشارع المؤدي إلى مكتب إجراءات الطلاق. تعود أدراجها أولا لترتيب الحقائب، وأنا ذهبت إلى البنك وسحبت الوديعة المالية التي نمتلكها سويًا وتُقدر بأكثر من ستين ألف يوان، وهي الوديعة التي كنا نعتزم بها شراء شقة، وسلمتها الوديعة بعد عودتي إلى البيت، وترددت بعض الشيء وأخذت فقط عشرين ألفًا. أطأطئ رأسي تلميحًا بأن تأخذ الوديعة كلها، وقالت تكفي عشرون ألفًا. وقلت: تأخذين مبلغًا ضئيلاً يجعلني أشعر بالقلق. تحني رأسها وتقول: لا داعي للقلق، ويتعين عليّ معرفة قدرتها وهي تعالج كل شيء معالجة صحيحة. تضع عشرين ألف يوان في حقيبة يدوية، والمبلغ الباقي أكثر من أربعين ألفًا فوق الطاولة. وبعد ذلك، تجيل بصرها بمشاعر عميقة في الشقة التي شهدت حياتنا المشتركة، وتخاطب الشقة قائلة:

«أنصرف من هنا».

أساعدها في ترتيب ملابسها ولوازمها اليومية، وقد عبأناها في حقيبتين كبيرتين، وحملتهما إلى الشارع أسفل المبنى لتوديعها، وأعرف أنها تذهب أولاً إلى الفندق الذي يقيم فيه ذاك الشاب، ثم يذهبان إلى المطار، وبحثت لها عن سيارة تاكسي، ووضعت الحقيبتين في الحقيبة الاحتياطية للتاكسي. وحانت لحظة الوداع، وألوح لها بيدي، وتأتي إلى وتحتضنني بحرارة شديدة، وتقول لي:

«لايزال حبك في قلبي».

أقول: «أنا أحبك إلى الأبد».

تتخرط في البكاء، وتقول: «ســأكتب لك رســالة واتصل بي هاتفيًا».

أقول: «لا داعي للمراسلة ولا داعي للاتصال هاتفيًا، لأن ذلك يجعلني حزينًا ومتألمًا».

تستقل سـيارة التاكسـي التي عندما تنطلق في الشارع ولم ترمقنـي بنظرة، وراحت تكفكف دموعهـا. وانصرفت على هذه الحال، وسارت على درب الحياة المقدر لها.

نبـأ طلاقـي المباغت وقـع على والـدي وقـوع الصاعقة، وحملـق في وجهي بنظرات الدهشـة والذهول، وأخبرت والدي سـبب طلاقنا بصورة عادية. وذكـرت أن زواجي منها كان يعتبر أصلاً سـوء تفاهم، لأنني لسـت جديرًا بها. يومئ والدي برأسه باستمرار، ولا يمكن أن يتقبل كلامي. ويخاطبني بحزن قائلا: «كنت أعتقد دائمًا أنها تنحدر من أسـرة طيبة، كانت نظرتي خاطئة».

هاو تشينغ شينغ، ولي بوي جين هما زوجان من زملاء والدي في العمل يعتبرانني طفلهما دائمًا، وألجمتهما الدهشـة عندما عرفا نبأ طلاقي. وأكد هاو تشينغ شينغ بحزم أن صديقها ذلك الشاب خداع، وسـوف يدهسـها بأقدامه، وقال إنها لا تستطيع التمييز بين الجيد والرديء، وإنها سـتعض أناملهـا من الندم بكل تأكيد، وكانت لي بوي جين تحبها هكـذا وتقول إنها ذكية وجميلة ونيتها طيبـة. والآن تقرر أنها تتعالى وتزدري أفراد طبقتها الاجتماعية، ثـم تتنهـد وتقول في هـذا المجتمع الذي يسـتحيي مـن الفقر

ولا يخجل من الدعارة يكثر فيه عدد هؤلاء النسوة اللاتي يتكبرن علــى أفراد طبقتهن الاجتماعية يومًا بعد يوم. تواســيني لي يوي جين، وتقول إن هذا العالم يضم فتيات أفضل منها وتعرف الكثير منهن، وقدمت إلي عــددا غير قليل منهن، ولكن لم تكلل جهودها بالنجاح في هذا الشــأن. ويكمن الســبب الرئيس في نفسي أنا، في أيام حياتي المشــتركة مــع زوجتي التي غيرتنــي بهدوء وبلا ضجة، وهي تتوســد قلبي لا تُجارى ولا تُبارى. وكنت لا أتحمل أن أقارنهــا بهؤلاء الفتيات عند مقابلتهن بعد تحديد موعد غرام، ثم لا أستطيع أن أجد راحة لنفسي وسط فقدان الأمل والرجاء.

في الســنوات التالية كنت أشاهدها في التلفاز في حوار مع المذيع أحيانًا، وأحيانًا أُخرى أقرأ أخبارها في الصحف والمجلات. وجعلني ذلــك على دراية بخصالها، كما شــعرت بالاســتغراب أيضًا، والشــيء المألوف لدي وجهها الباسم ومظهرها وسلوكها، أما الشيء الغريب الذي رأيته مضمون كلامها ولهجتها. وشعرت بأنها الشخصية المحورية في الشركة، وزوجها الشخصية الثانوية. وشعرت بالســعادة من أجلها، ومازالت تتمتع بالجمال هكذا في الصور التي تنشــرها الصحف والمجلات والتلفــاز، وباتت الآن تســتغل رخصة جمالها من أجل نفســها في نهاية المطاف. وبعد ذلك شعرت بالحزن الشديد من أجل نفسي، لقد عشنا معًا لمدة ثلاث ســنوات، ويُعتبر ذلك جزءًا من طريقها الأعوج في حياتها، وبعد أن فارقتني تمكنت أن تسير على الدرب المستقيم.

* * *

يترامى إلى مسامعي مرة أُخرى، وسط الهدوء الذي يتلاشى، صورة تلك المرأة الغريبة التي تنادي وتقول: «يانغ فيي..».

أحملق بعينـــي وأجيل بصري في كافة الجهـــات، رذاذ المطر دقيق، وكرات الثلج صغيرة جدًا، ويبدو أن هناك امرأة تشبه «لي تشـــينغ» تتقدم نحوي قادمة من الجانب الأيســـر، وترتدي روب النوم، وعندما تمشـــي تتقطر قطرات الماء إلى أسفل روب النوم. تمشي وتقف أمامي، وتتفرس ملامح وجهي، كما تتفحص بعينها ثوب نومي بدقة، وشـــاهدت الكلمتين «لي تشينغ» باتت ألوانهما باهتة. ثم تنادي اسمي وكأنها تسألني:

«أأنت يانغ فيي؟».

أشعر بأنها لي تشينغ، ولكن لماذا صوتها غريب هكذا؟ وأجلس علـــى مقعد طويـــل وأحملق فيها، ولا أنبس ببنت شـــفة. وتظهر أمارات غريبة على وجهها، وتقول:

«أنت ترتدي ثياب نوم يانغ فيي، من أنت؟».

أقول: «أنا يانغ فيي».

تحـــدق في وجهي الغريب في ارتياب، وتقول: «أنت لا تشـــبه يانغ فيي».

أمد يدي، وأتحســـس وجهي، حيث العين اليسرى انتقلت إلى عظام الخد، وهناك أنف بجوار أنفي، وذقن أسفل ذقني.

أقول: «لقد نسيت تجميل وجهي».

تمد يديها وتعيد بحذر شـــديد قطـــرات الدموع التي انثالت فـــي الخارج إلى محجر عيني، وتعيد أنفـــي إلى مكانه الأصلي، وتتحسس ذقني التي علقتها وتدفعها إلى أسفل.

ثم تتراجع خطـــوة إلى الخلف، وتحملق فـــي وجهي، وتقول: «أنت الآن تشبه يانغ فيي».

أقول: «أنا يانغ فيي، وأنت تشبهين لي تشينغ».

تقول: «أنا لي تشينغ حقًا».

نبتسم معًا في آن واحد، وتعرَّف كل منا على الآخر بفضل الابتسامة المألوفة التي ارتسمت على وجهينا.

أقول: «أنت لي تشينغ».

قالت: «وأنت يانغ فيي حقا».

أقول: «صوتك طرأ عليه تغيير».

تقول: «وصوتك تغير أيضًا».

نتبادل النظرات، أقول: «صوتك الآن يشبه إنساناً لا أعرفه».

تقول: «صوتك يشبه أيضًا إنساناً غريباً».

أقول: «غريب حقًا، صوتك مألوف لدي، بل حتى صوت شخيرك مألوف لدي أيضًا».

تتوقف برهة، ثم تبتسم، وتقول: «وأنا أشعر بالغرابة أيضًا، يجب أن يكون صوتك مألوفاً لدي..».

تميل بجسدها، وتتحسس ثياب نومي بيدها حتى الياقة.

تقول: «الياقة لم تهترئ بعد».

أقول: «لم أرتد ثياب النوم بعد رحيلك».

تقول: «أنت تلبسها الآن، أليس كذلك؟».

أقول: «الآن هي كفني».

تقول ولديها بعض عدم الفهم: «ماذا يعني كفنك؟».

أسألها: «أين ثياب نومك؟».

تجيب: «لم أرتدها مرة أخرى، لا أدري أين وضعتها».

أقول: «ينبغي ألا تلبسيها مرة أُخرى، مطرز عليها اسمي».

تقول: «نعم، تزوجت ذلك الشاب».

أطأطئ رأسي.

ترتسم ابتســـامة مزعجة على وجهها، وتقول: «أشعر بالندم، يجب أن ألبس ثياب نومي، وأرى رد الفعل لدى زوجي الشاب».

وبعد ذلك، تنهض، ويبدو عليها الحزن والأسى، وتقول: «ياغ في، حضرت اليوم من أجل توديعك».

أرى قطــرات المــاء مـــا زالت تتقطـــر من روب النـــوم الذي تلبسه، وأســـألها: «أأنت لبســـت روب النوم وتمددت في طشت الاستحمام؟».

تلتمع أمارات الألفة في عينيها وتسأل: «أتعرف أحوالي؟».

- «أعرف».

- «متى عرفت؟».

- «أمس»، وأفكر برهة، وأقول: «ربما أمس الأول».

تتفرس ملامحي، وتدرك شيئًا ما، وتقول: «وأنت ميت أيضًا، أليس كذلك؟».

أقول: «أجل، لقد وافتني المنية».

تحدق في وجهي بحزن وأسى، وأنا أحملق في وجهها بحزن وألم.

تقول: «يبدو أن عينيك تقومان بمراسم تأبيني».

أقول: «تتابني المشاعر نفسها، ويظهر أن كلا منا يقوم بتأبين الآخر».

تجيل بصرها في كافة الجهات في حيرة وارتباك، وتسألني: «ما هذا المكان؟».

أشير إلى المباني القديمة العالية التي تظهر مبهمة وغامضة خلف الأمطار والثلج، وتســـمر نظراتها برهة، ويجول بخاطرها تلك الشقة التي سجلت جانبًا من حياتنا. وتسألني: «هل ما زلت تقطن هناك؟».

أومئ برأسي، وأقول: «نقلت إلى مسكن آخر بعد فراقك».
تقول: «هل نقلت إلى مسكن والدك؟».
أهز رأسي.
تبتسم قائلة: «أعرف السبب الذي جعلك تأتي إلى هنا».
أقول: «في الظلام الحالك، لم نتفق على موعد وحضرنا إلى هنا في آن واحد».
- «من يسكن الآن في تلك الشقة؟».
- «لا أدري».
عيناها تنأيان عن ذاك المبنى السكني، ومازالت تلف يديها بإحكام في روب النوم المبلل بقطرات الماء، وتقول: «أشعر بالإرهاق، وقطعت شوطًا طويلا على طريق بعيد حتى جئت إلى هنا».
أقول وأشعر بالتعب الشديد أيضًا: «ولم آت من طريق قصي».
يترنح جسمها مرة أخرى، وتجلس على المقعد الطويل، تجلس على جانبي الأيسر، وتشعر بأن جسمها ينهار، وتقول: «هذا المقعد يوشك أن يسقط».
أقول: «تتحسن حالتك بعد فترة وجيزة».
تجلس بحذر شديد، ويتصلب جسمها، وبعد برهة يسترخي جسدها، وتقول: «لا يمكن أن يتحطم المقعد».
أقول: «يبدو أنك تجلسين فوق حجر».
تقول: «أجل».
نجلس معًا في هدوء ودعة كأننا نغط في النوم، وبعد فترة طويلة جدًا يعود الوعي إلى صوتها تقريبًا.
تسألني: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أقــول: «لا أدري»، وتذكــرت المشــهد الأخيــر فــي ذاكرتي، وأردف قائلا: «كنت أتناول سلطانية معكرونة في مطعم، وهناك صحيفة فوق طاولة، وقرأت فيها أخبارك، ثم شــب حريق هائل فــي مطبخ المطعم، ولاذ كثيرون بالفرار إلى الخارج، ولم أتحرك البتــة، وأمضي قدمًا في قراءة الأخبــار الخاصة بانتحارك في الصحيفــة، وبعد ذلك، يــدوي صوت انفجار رهيــب، ولا أدري ما جرى بعد ذلك».

تسألني: «حدث ذلك أمس؟».

أقول: «ربما حدث قبل أمس».

تقول: «أنا سببت لك ضررًا رهيبًا».

أقول: «لست أنت، إنها الصحيفة».

تقول ورأســها على منكبي: «هل يمكن أن تسمح لي أن أسند رأسي؟».

أقول: «لقد أسندت رأسك على كتفي».

يبدو أنها تبتســم، وتهز رأسها مرتين فوق كتفي برفق، وترى شــريطاً قماشــياً أســود معلقاً على ذراعي الأيسر، وتمد يدها وتتحسسه.

تســألني: «هل علقت ذلك الشــريط القماشــي الأسود من أجلي؟».

- «علقته من أجل نفسي».

- «ألا يوجد إنسان يعلق شريطاً أسود حداداً من أجلك؟».

- «أبدًا».

- «أين والدك؟».

- «انصــرف، فارقنا منذ أكثر من عام، وأصابه مرض خطير

جـــدًا، وأدرك أنه لا يمكـــن أن يبرأ من مرضــــه، وحتى لا يثقل كاهلي بالأعباء، انصرف في هدوء. وبحثت عنه في كافة البقاع ولم أجده».

- «أبوك طيب القلب، وكان يعاملني معاملة حسنة أيضًا».
- «إنه أحسن أب».
- «أين زوجتك؟».

لم أنبس بحرف.

- «أليس عندك أطفال؟».

أجيب: «ليس عندي أطفال، ولم أتزوج مرة أُخرى بعد طلاقنا».

- «لماذا لم تتزوج؟».
- «أرغب عن الزواج».
- «ألم أجعلك تشعر بالحزن؟».

أجيب: «كلا، لأنني لم أقابل امرأة مثلك على هذا النحو».

- «أسفًا ومعذرة».

ما زالت يدها تتحسس الشريط القماشي الأسود المعلق على ذراعي الأيسر، وشعرت بأن عاطفتها تتدفق.

وسألتها: «هل أنجبت طفلاً؟».

تقـــول: «كنت أرغب فـــي إنجاب طفل، ثم تخليــت عن فكرة الإنجاب».

- «لماذا؟».
- «أصابني مرض تناسلي، أصابني بعدوى مرضه».

أشــعر بأن قطرات الماء تظهر في مــوق عينها، إنها قطرات المـــاء بالإضافة إلى مياه المطر وبكـــرات الثلج، وأمد يدي اليمنى وأكفكف تلك القطرات.

وتسألني: «أأنت تبكي؟».

- «يبدو هذا».

- «هل تبكي من أجلي؟».

- «ربما».

ترسل زفرة طويلة، وتقول: «يرافق خليلة في الخارج، ويغشى دائمًا الملهى الليلي بحثًا عن عاهرة، وبعد أن أصابني المرض التناسلي نعيش منفصلين».

وتردف قائلة: «هل أنت تعلم؟ أنا أتذكرك دائمًا في جوف الليل».

- «بعد أن هجرت فراش النوم معه؟».

ترددت برهة، وتقول: «أجل، وبعد أن أنهيت علاقتي مع الرجال الآخرين».

- «هل أنت تحبين رجالاً آخرين؟».

تجيب: «لم أحب أحدًا، عرفت موظفًا حكوميًا، وبعد أن أنتهي من علاقتي، أتذكرك دائمًا».

أبتسم ابتسامة صفراء.

تقول: «هل تغار من أجلي؟».

أقول: «لقد انفصلنا منذ ردح طويل».

تقول بصوت خفيض: «بعد أن ينصرف، جسدي يستلقي فوق الفراش بمفردي، وأنهمك في التفكير فيك وقتًا طويلا، وعندما نكون سويًا، أذهب دائمًا في رد الزيارات والمجاملات، وأنت لا تنام عندما يكون الوقت متأخرًا، وأنتظرك دائمًا، وأرجع أدراجي وأنا مرهقة، وأتمنى أن أرتمي في أحضانك، وأشعر بالارتياح عندما أقترب من جسدك..».

تظهر قطرات الماء من طرفي عيني مرة أخرى، وأكفكفها بيدي اليمنى.

وتسألني: «هل أنت تتذكرني؟».

- «أحاول أن أنساك بكل ما أملك من قوة».

- «هل نسيتني؟».

- «لم أنسك بصورة كاملة».

تقول: «أعرف أنك لا تقدر على أن تتساني، ربما هو نسيني تمامًا».

وأسألها: «أين هو الآن؟».

تجيب: «هرب إلى أستراليا، هرب إلى هناك في التو بمجرد شائعة تم ترويجها بتفتيش شركتنا، ولم يخبرني بذلك مقدمًا».

أومئ برأسي، وأقول: «لا يمكن أن نعتبره زوجك».

تضحك برفق شديد، وتقول: «تزوجت مرتين، ولدي زوج واحد فقط، هو أنت».

أرفع يدي اليمنى وأمسح عيوني.

تقول: «أأنت تبكي مرة أخرى؟».

أقول: «أنا مسرور».

تسرد المشهد الأخير في ذاكرتها، وتقول: «كنت أمدد جسمي في حوض الاستحمام، وسمعت الذين جاؤوا لإلقاء القبض عليّ يركلون الباب الخارجي بشراسة، ويصرخون وينادون اسمي مثل اللصوص، ورأيت الدم يسبح في الماء مثل السمك، وتتسع بقعة الدم رويدًا رويدًا، ولون الماء يتحول إلى الأحمر أكثر فأكثر.. أتعرف ذلك؟ وفي اللحظة الأخيرة وقلبي متعلق بك دائمًا، أتذكر تلك الشقة الصغيرة التي كنا نعيش فيها معًا».

أقول: «لذلك حضرت إلى هنا؟».

تقول: «نعم، جئت من مكان ناء».

تســـحب رأسها من فوق كتفي، وتسألني: «أما تزال تسكن مع والدك؟».

أجيب: «تلك الشــقة قد بيعت مــن أجل ادخار النقود لعلاج والدي».

تسأل: «أين تسكن الآن؟».

- «أقطن في غرفة استأجرتها».
- «خذني معك ونذهب إلى هناك».
- «تلك الغرفة صغيرة وبالية أيضًا، كما أنها قذرة جدًا».
- «لا أعير اهتمامًا لذلك».
- «ألا تشعرين بالراحة هناك؟».
- «أنا مرهقة جدًا، وأريد لجســـمي أن يستلقي على الفراش وأستريح».
- «حسنًا».

ننهــض معًا في آن واحد، ويتجمع رذاذ المطر وكرات الثلج من جديد وتتطاير تباعًـــا، وتقبض على ذراعي بإحكام كأننا نبدأ حبنا للوهلة الأولى. نســـير علـــى طريق في درب خيالنا ويجمعنـــا التفاهم التام، ولا ندري كم اســـتغرقنا في المشـــي حتـــى وصلنا إلى الغرفـــة التي اســـتأجرتها، وعندما فتحت الباب، شـــاهدت على الباب قصاصتـــين من الورق، إحداهما فاتورة المياه، والأخرى فاتورة الكهرباء، وسمعتها ترسل زفرة، وسألتها:

«لماذا تتنهدين؟».

تجيب: «أنت ما زلت مديناً بفاتورة المياه وفاتورة الكهرباء».

أمزق القصاصتين، وأقول: «لقد دفعتهما».

ندلـف إلى داخل الغرفة الصغيرة التي تعد محتوياتها خليطا مشوشـا، ويبدو أن فوضى الأشياء في الغرفة لم تلفت انتباهها، وتطرح جسـمها على الفـراش، وأنا أجلس على كرسـي بجوار السرير. وبعد أن استلقت على السرير، ينفتح روب نومها، وكانت في غاية الإرهاق والتعب، وتغمض عينيها، ويبدو جسـمها يطفو فوق الفراش. وبعد فترة وجيزة تفتح عينيها.

تسأل: «لماذا تجلس؟».

أجيب: «من أجل رعايتك وراحتك».

- «أطرح جسمك على السرير».
- «أشعر براحة في الجلوس».
- «أصعد إلى الفراش».
- «ما زلت أصر على الجلوس».
- «لماذا؟».
- «أشعر بالخجل».

تنهض من الفراش وتجلس، وتمد يدها نحوي، وأمد لها يدي، وتسـحبني إلى الفراش. مسـتلقيان على ظهرينا جنبا إلى جنب فوق السرير، وتتعانق أيدينا، وسمعت صوت تنفسها المنتظم مثل موجـة تتهادى على صفحة مياه بحيرة هادئة، وبعد هُنيهة تتكلم بصـوت خفيض، كما أنني بدأت الكلام أيضًا. وتتدفق مشـاعر غريبـة في قلبي مرة أخرى، وتدرك نفسـي أنني مسـتلق على الفراش مع امـرأة مألوفة لدي، ولكن صوت كلامها غريب، مما جعلني أشعر بأنني أتقاسم الفراش مع امرأة لم تسبق لي معرفة

بها. وأخبرتها بمشـاعري على هذا النحـو، وذكرت أنها تتتابها مثل تلك المشـاعر الغريبة أيضًا، كأنها تستلقي فوق الفراش مع رجل غريب بالنسبة لها.

تدير جسـمها على الفراش، وتقول: «نعدِّل وضع أجسـامنا حتى يرى كل منا الآخر».

وألف جسـمي أيضًا، وأحدق فيها، وتسـألني: «هل تشـعر بتحسن بعض الشيء؟».

أجيب: «الآن أحسن إلى حد ما».

تتحسـس وجهـي المصاب بيدهـا المبللة، وتقـول: «في ذاك اليوم الذي شـهد فراقنا، وعندما ودعتني عند سيارة التاكسي، ارتميـت في أحضانك، وأنت تفوهت ببعض الكلمات، هل مازلت تتذكرها؟».

أقول: «أتذكرها، وأنت ذكرت أنك مازلت تحبينني».

تطأطئ رأسـها، وتقول: «نعم قلت هذه الكلمات، وأنت ذكرت بعض الكلمات أيضًا».

- «أنا قلت أحبك إلى الأبد».

* * *

تخاطبني قائلة: «استيقظت من النوم؟».

- «لم أنم».

- «سمعت صوت شخيرك».

- «لم أنم حقًا».

تقول: «حسنًا، أنت لم تنم».

تشد حزام روب النوم حول خصرها، وتخاطبني قائلة: «أريد الانصراف، ثلـة من الأصدقاء أعدوا لي جنازة مهيبة،

وأريد العودة واللحاق بهم في التو».

أطأطئ رأســـي، وتمشـــي إلى المدخل، وتفتح البـــاب، وتدير رأســـها آنذاك، وتحملـــق في وجهي، وتقول وهـــي فاقدة الهمة: «يانغ فيي، انصرف من هنا».

اليوم الثالث

تتجول نفسي في الخط الفاصل بين الحياة والموت. الثلج الأبيض أبلج، والمطر مظلم معتم، ويبدو أنني أسير في البكور وفي المساء في آن واحد.

قادتني قدماي مرات عديدة نحو تلك الغرفة التي استأجرتها، وأمس تركت أنا ولي تشينغ آثار لقاء بعد فراق طويل، واليوم لا أحتمل السير على مقربة منها، وحاولت - من عدة اتجاهات متباينة - التقدم نحوها، ولكن لا أستطيع الاقتراب منها في نهاية المطاف، ومن الظاهر أنني أمشي وسط الهدوء والسكون، وتلك الغرفة تراها العين وتقصر عنها اليد. ودار بخلدي عندما كنت طفلاً غريرًا أسحب يد والدي، وأحاول كل ما في استطاعتي أن نمشي تحت القمر، وعلى كل حال نترجل على طريق طويل جدًا، والمسافة بيننا وبين القمر لا تتغير أبدًا.

في تلك الأثناء، ينبثق تحت أقدامي قضيبان من قضبان السكة الحديدية يلتمعان ويتمددان إلى الأمام، ويظهران الحيرة والتردد كأنهما أضواء ساطعة ويفضيان إلى طريقين من الضلال. وبعد ذلك، رأيت بأم عيني مشهد ولادتي.

* * *

كانـــت ولادتي بين تينـــك القضيبين بعد مـــرور قطار يخترق ظلام الليل الدامس. وكان بكاء طفولتي في البداية تحت ســـماء مرصعة بالنجوم، وليس في خضم عاصفة هوجاء، ويسمع صوت بكائـــي الواهن عامل التحويل الشـــاب، كان يمشـــي على امتداد القضبان الحديدية، ويأتي من مكان بعيد بأقصى سرعة ويجعل القضبـــان تهتز، وبعد أن يضمني إلى صـــدره، يمر ذاك القطار أمامنا بسرعته الفائقة وتدوي صفارته. وعلى هذا النحو، أصبح عنـــدي أب بعد مرور قطار وقبل قدوم قطار آخر. وبعد انقضاء بضعة أيام، أصبح عندي اســـم يُطلق علي، أما اسم والدي فكان (يانغ جين بياو).

طريق وجودي في هذه الدنيا كان غير معقولاً، فلم تكن ولادتي في غرفة التوليد بالمستشـــفى، ولا في المنزل، بل كانت في دورة مياه ضيقة في قطار سائر على القضبان.

ومنذ واحد وأربعين عامًا خلت، كانت والدتي حُبلى في الشهر التاســـع، وأنا طفلها الثالث، واستقلت قطارًا متوجهًا إلى مسقط رأســـها لزيارة جدتها لأمها هناك. وعندما قطع القطار المسافة إلى هناك في عشـــر ساعات وأكثر ويدخل المحطة رويدًا رويدًا، شعرت بألم طفيف في بطنها ولم تُدرك أنني في بطنها قد عيل صبـــري، لأن الميقات المحدد لولادتي مازال أمامه عشـــرين يومًا ونيفًـــا، وكانت ولادة أخي الأكبر والأخت الكبرى قبل ولادتي، في الموعد المحدد، ودار بخلدها أنني سأحذو حذوهما، ولذا شعرت أنه يجب أن تغشى دورة المياه.

تهبـــط والدتي من ســـرير القطار إلـــى أديم الأرض، وتتحمل بطنهـــا المنتفخة، وتترنح في مشـــيتها وتتوجه إلى دورة المياه عند

ملتقــى عربة الركاب بأخرى، وبعد أن توقف القطار، أحدقت بها الصعوبــات في طريقها إلى دورة المياه، بســبب أن بعض الركاب يحملون على ظهورهــم حقائب كبيرة وصغيــرة، وتأخذ حذرها وحيطتها في مواجهة تدافع الركاب وتلك الحقائب. تدور عجلات القطار ببطء عندما تدخل والدتــي دورة المياه، وكان القطار في ذلك الحين بسيطًا، وقضاء الحاجة في المرحاض يجب على المرء فيــه أن يجلــس القرفصاء، فقد كان المرحــاض عبارة عن فتحة واســعة مســتديرة يمكن أن ترى من خلالها صفوف من عوارض السكة الحديدية اللامعة. ولم تستطع والدتي جلوس القرفصاء، لأن وجــودي فــي بطنها أعاق ذلــك، واضطــرت لأن تركع على قدميها وألا تعير اهتمامًا للأوســاخ على أرضية دورة المياه، وبعد أن خلعت بنطالها، وما كادت تســتجمع قواها حتى شــق رأســي طريقه من داخل الرحم إلى الخارج. انزلقتُ من الفتحة المستديرة للمرحاض، والقطار الذي يتقدم إلى الأمام يقطع في طرفة عين الرابط الذي يجمعني بوالدتي وهو الحبل السري. إنها السرعة، السرعة المعاكســة بين انزلاقي من تلك الفتحة وانطلاق القطار إلى الأمام فكت الوثاق بيني وبين والدتي، وفقدنا جميعًا السرعة.

والدتــي تنبطح أرضًا من جراء ألم ممــضّ أصابها فترة من الوقت، وبعد برهة تشــعر بأن بطنهــا خاوية، وتبحث عني بفزع وهلع، ثم أدركت أنني سقطت من تلك الفتحة المستديرة وتتحامل على نفسها بصعوبة بالغة وتنهض، وبعد أن تفتح باب دورة المياه، تبكي وتصرخ في وجــه راكب كان في الخارج ينتظر دخول دورة المياه، وتقول:

«طفلي، طفلي...».

تسقط على الأرض في الحال، وذلك الراكب ينادي في عجالة ركاب العربة ويقول: «هنا سيدة سقطت في غيبوبة».

تهرول عاملة القطار أولا، ثم يتبعها مدير القطار. تكتشف العاملة - في المقام الأول - أن والدتي نصفها السـفلي يغرق فـي الدم، ثم توجه نداءً عاجلاً لركاب القطار تطلب العاملين فـي هيئة طبية من بين الركاب الحضور فورًا إلى العربة رقم (11). كان هناك طبيبان وممرضة في صفوف الركاب جاؤوا إلى عربة والدتي التي تستلقي علـى ظهرها في ممر عربة الـركاب، وتبكي بحرقة وتطلب الاستغاثة بـلا انقطاع، ولا يفهم أحـد كلامها، وتدخل في غيبوبة في الحال. ويحملونها وينقلونها إلى سـرير القطار، ويضطلـع الطبيبان والممرضة باجـراءات إنقاذهـا، بينما القطار يمضي قدمًـا إلى الأمام بالسرعة العالية.

في هذه الأثنـاء، كنت في الغرفة الصغيرة التي يمتلكها ذلك الشـاب عامل التحويلـة، والذي أصبح والدي بصـورة فجائية، ويحملـق في غاية الارتبـاك والقلق باللون الأحمـر الأرجواني الذي يكتسـي به جسـمي من رأسـي حتى أخمص قدمي، وأنا أبكـي وأنتحب بصورة مسـتمرة، وتهتز مـع بكائي قطعة الحبل السري التي ما زالت معلقة في بطني. ولذا يعتقد ذلك الشاب أن جسـمي به ذيل، وكلما ضعف ووهن صوت بكائي، يدرك الشاب أننـي أعاني من وطأة الجوع رويدًا رويدًا. كنا في منتصف الليل في ذاك الحين، وأبواب الدكاكين موصدة، ولا يوجد لبن في تلك الليلـة. ويتذكر في خضم قلقه واضطرابـه أن زوجة زميله في العمل عامل التحويلة (هاوتشيانغ شنيغ) أنجبت طفلة منذ ثلاثة

أيام، ثم يلفني في سترته المحشوة بالقطن ويهرول إلى منزل زميله.

هاو تشيانغ شنيغ يغط في نوم عميق، واستيقظ مذعورًا من جراء الطرق على الباب، وبعد أن يفتح الباب يرى زميله يحمل في يده لفة، ويسمعه يقول بمشاعر القلق والهم:

«لبن، لبن، لبن..».

هاو تشيانغ شينغ الذي يستبد به النعاس، يفرك عينيه حينًا، ويسأل حينًا آخر: «أي لبن؟».

والدي يفتح سترته القطنية ويجعل زميله يراني أنخرط في بكاء شديد، وفي الوقت نفسه يسلمه اللفة وأنا في داخلها. هاو ينتفض ذعرًا كأنه تسلم حبة بطاطا حلوة ولسعت يده، وتبدو عليه أمارات الدهشة ويحملني إلى داخل الغرفة، وكانت زوجته وتُدعى (لي يوي جين) استيقظت من نومها أيضًا بسبب الجلبة والضوضاء، ويقول لها زوجها: «طفل زميلي في العمل يانغ جين بياو»، ترى لي يوي جين جسمي يغص باللون الأحمر الأرجواني وتدرك أنني وُلدت توًا، وتحتضنني وتسحب رداء وتغطيني، وتهدأ نفسي، وأمتص حليب الأم الذي يُعتبر حجر الأساس في هذه الدنيا.

يجلس في خارج الغرفة كل من والدي (يانغ جين بياو)، وزميله الشاب عامل التحويلة (هاوتشيانغ شينغ)، وكان والدي يبلغ واحداً وعشرين عامًا فقط آنذاك، ويكفكف عرق وجهه، ويسرد بالتفصيل عملية الالتقاء بي، ويتفهم ذلك هاو تشيانغ شينغ، ويقول إن الجهل أصابه بالفزع توًا لأنه يعرف أن والدي ليس عنده حتى صديقة، فكيف يخاطر وينجب طفلا. والدي تصدر منه بضعة أصوات ضاحكة: هيه، هيه! كأنه أبله، ثم يعرب

عن مخاوفه من أنني ربما أكون مخلوقًا غريبًا، ويذكر أن جسدي به ذيل في الأمام وليس في الخلف.

عندمـــا كانت لي يـــوي جين ترضعني ثديها، ســـمعت رجلين أصبحـــا أبوين توًا يتجاذبان أطـــراف الحديث في الخارج، وبعد أن رضعت وشـــبعت وارتويت، وانخرطت فـــي النوم، تطرح على جسدي ملابس ابنتها التي خيطتها بنفسها، كما تأخذ صرة من الأقمشة البالية وتدلف إلى خارج الغرفة.

أعود إلى أحضان والدي. تأخذ لي يوي جين صرة الأقمشـــة المهترئـــة وتُعلم والدي كيف يغير لي حفاض الطفل، وأخبرته بأن يقص تلك الأقمشة ويجعلها حفاضات، وكلما كانت بالية، تصبح أفضل لأن الأقمشة البالية تكون ناعمة ورقيقة. وأخيرًا، أشارت إلى ذلك الذيل المعلق في بطني، وتقول:

«إنه الحبل السُـــري، تذهب إلى عيـــادة المحطة غدًا، وتطلب من الطبيب أن يقصه، ولا تقصه بنفسك خشية حدوث عدوى».

* * *

أمشـــي إلى الأمـــام على امتـــداد قضبان الســـكة الحديدية التي تشبه الأضواء الســـاطعة، وأبحث عن تلك الغرفة الصغيرة المتداعية بجوار تلك القضبـــان، والتي تضم بين أروقتها العديد مـــن قصص نشـــأتي. أرى أمامي المطر والثلـــج، وأمامها بنايات ســـامقة تتألف من عـــدة طوابق وتحتوي على عـــدد ضئيل من النوافذ المعتمة، وعندما كنت أتقدم نحوها، أشـــعر بأنها تتقهقر إلى الخلف، وأدركت أن ذلك العالم يرحل الآن رويدًا رويدًا.

أســـمع صوت أبي يزأر بالشـــكوى، كان صوتـــه بعيدًا هكذا، وحميمًا هكذا، وصوت شكواه بجوار أذني يقدم النزر اليسير من

أجل مســاعدتي ويشــبه تلك الطوابق في البنايات القصية، ولم أتمالك نفسي عن الضحك.

كان والــدي يانغ جين بياو يعتقد بإصــرار لفترة طويلة جدًا أن أبويّ اللذين أنحدر مــن صلبهما ودمهما قد تخليا عني على قضبان الســكة الحديدية رغبة منهما فــي أن عجلات القطار تسحق عظامي، ومن ثم كان والدي يناجي نفسه دائمًا، ويقول: «أيوجــد فــي هذه الدنيــا أبوان بمثــل هذه القســوة وعدم الرحمة؟».

هذا التفكير المتصلب جعل والدي يحبني كثيرًا، ولا أفارق ظله منذ أن غادرت قضبان الســكة الحديــد وارتميت في أحضانه. وفــي البداية كبرت في جيب لبان صدره، وكان أول جيب خيطته لي يــوي جين، ولونــه أزرق، ثم خيــط والدي بنفســه الجيوب الأخــرى فيما بعــد، وكان لونها أزرق أيضًــا. وعندما يخرج من البيت قاصدًا الدوام، يخلط مســحوق اللبن بالماء ويســخنه، ثم يســكبه في زجاجة الرضاعة التي يدسها في لباس لبان صدره وتلتصق بقلبه النابض ويجعل حرارة جسمه تحافظ على سخونة زجاجة الرضاعة. وبعد ذلك، يحشــرني في الجيب القماشــي أمام صدره، ويحمل على كتفه بصورة مائلة إبريقًا يشــبه نظيره المســتخدم في الجيش، كما يحمل على ظهره صُرتين، إحداهما معبأة بالحفاضات النظيفة، والأخرى مجهزة لحفظ الحفاضات التي تحتوي على مفرزات جسمي.

والــدي يذرع المكان جيئة وذهابًا عندما يحوِّل خط القطار على السكة الحديدية، وأنا أتمايل يمنة ويسرة أمام صدره، وهذه أجمل هــزة في هــذه الدنيا، كما أنهــا أحلى نومة فــي مرحلة طفولتي،

وإذا لم أشعر بالجوع ربما أتمنى ألا أستيقظ من حضن والدي إلى الأبد، وعندما أستيقظ أنفجر باكيًا، ويعرف أنني جائع، ويمد يده ويتحسس زجاجة الرضاعة وحرارة جسم والدي. وفيما بعد، لم أعد أعرف البكاء والصراخ بعد أن أستيقظ من النوم بسبب شعوري بالجوع، بل أمد يدي وأتحسس زجاجة الرضاعة أمام صدر والدي، مما جعله مدهوشًا ومسرورًا مرة تلو مرة، وهرول إلى هاوتشيانغ شينغ، ولي يوي جين ويخبرهما أنني أذكى طفل في العالم.

وهناك وفاق كامل وتفاهم تام بين والدي ونموي وترعرعي، فهو يعرف ميقات تضوري جوعًا وشعوري بالظمأ. وعند شعوري بالعطش يفتح الإبريق ويرتشف رشفة ماء، ثم يصوب فمه أمام فمي، ويتدفق الماء بمهل داخل فمي. ويدعي والدي أمام لي يوي جين أنه يستطيع أن يميز الفرق الطفيف بين صوت شعوري بالجوع، وصوت شعوري بالظمأ. وظلت لي يوي جين بين مكذِّب ومصدِّق، فهي تستطيع فقط أن تقدر شعور ابنتها بالجوع والعطش حسب عقارب الساعة.

يمشي والدي على السكة الحديدية ويشم رائحة كريهة تفوح أمام صدره فترة من الوقت، ويعرف أنه يجب أن يغير حفاضي. ويجلس القرفصاء على مقربة من القضبان، ويضعني على أديم الأرض وسط دوي صافرة قطار يسير بأقصى سرعة، وينظف مؤخرتي بالورق الخشن ويشد على مؤخرتي حفاضًا نظيفًا ثم ينظف الحفاضات القذرة من البراز بالتراب بجوار القضبان، ثم يطويها ويحشرها في الصرة المخصصة لذلك. وبعد انتهاء الدوام وعودته إلى البيت، يضعني في السرير، ويغسل الحفاضات الوسخة وينظفها بالماء والصابون.

كان بيتنا عبارة عن غرفة صغيرة على بعد أكثر من عشـــرين مترًا من قضبان الســـكة الحديدية، ويغص مدخله من أعلى إلى أســـفل بالحفاضات التي تُجفف في الشمس مثل أوراق الشجر، وفي عبارة أُخرى، فإن بيتنا يشـــبه شجرة ناضرة تتفتق أوراقها الواحدة تلو الأخرى.

كانت نشأتي في خضم دوي قطار يسير بأقصى سرعة، وفي داخل غرفة صغيرة تتمايل وتهتز، ونما جســـمي بعض الشـــيء، وأمضي قدمًا في النمو فوق ظهر والدي. والجيب القماشي أمام صدر والدي أصبح الجيب القماشـــي خلف ظهره، وهناك أشب عن الطوق رويدًا رويدًا.

والدي ذهنه متقد وأناملـــه بارعة، فقد تعلَّم تفصيل الملابس وحبـــك الثوب الصوفي. وفي الدوام لا يتمالك زملاؤه في العمل أنفســـهم وينخرطون في القهقهة والضحـــك عندما يرونه، لأنه يحملني على ظهره ويســـير على الســـكة الحديدية تارة، ويحيك كنـــزة صوف صغيرة لي تارة أُخـــرى، وأنامله حاذقة في الحياكة بمهارة ولا يستعين بعينيه.

بعد أن تعلمت المشـــي، يد والدي تســـحب يـــدي. وفي نهاية الأســـبوع، يأخذني والـــدي وندلف إلى الحديقـــة للتنزه والمرح، وهنـــاك يحرر والدي يدي وهو مطمئـــن ويقتفي أثري في مكان أركـــض إليه. ويجمعنا الوئام والانســـجام، وعندما نمشـــي على طريق صغيـــر داخل الحديقة، يمد يده نحوي وأتأثر تأثرًا بالغًا، وأمد يدي نحوه في الحال.

نعـــود أدراجنا إلى الغرفـــة الصغيرة بجوار قضبان الســـكة الحديدية، ووالدي شـــديد الحذر والانتباه تمامًا، فهو يطبخ في

الغرفــة، وأنا أريد اللعب واللهو خـــارج الغرفة، ويربطنا بالحبل، حيــث يربط طرف الحبل في قدمــه، ويربط الطرف الآخر في قدمي. وأستطيع فقط الحراك أمام مدخل البيت، ويترامى إلى مســامعي صراخ والدي ينطلق من داخل الغرفة محذرًا إياي في كل مـــرة أرى فيها القطار ينطلق ســـريعًا، ولا أتحمل ذلك، وألوذ بأذيال الفرار إلى الأمام، ويصرخ والدي قائلا:

«يانغ فيي، تعال هنا».

* * *

لاحت أمـــام عيني الغرفة الصغيرة التـــي أبحث عنها عندما قطعت شوطًا طويلاً وبعيدًا على القضيبين اللامعين. ولم تظهر الغرفـــة قبل لحظة، ثم ما لبثت أن ظهـــرت في مثل لمح البصر. ورأيت ســـنوات طفولتي، ووالدي الشاب، فضلا عن فتاة تتدلى ضفائرهـــا علـــى منكبيهـــا، وانصرفنا نحن الثلاثـــة من الغرفة الصغيرة. تقاسيم وجهي كانت مألوفة ومعروفة، وملامح والدي ما زالت ماثلة في الأذهان، وأمارات الفتاة مبهمة وغامضة.

* * *

اتســـمت ســـنوات طفولتـــي بالغبطة والســـرور مثـــل قهقهة الضحـــكات، ولـــم أدرك البتة أنني أدمر حيـــاة والدي. ومنذ أن ســـقطت على قضبان السكة الحديدية ضاق الخناق على طريق حيـــاة والدي. والدي ليس عنده صديقـــة، والزواج صعب المنال. وقدم له هاو تشـــيانغ شـــينغ وزوجته لي يوي جين، وهما أفضل أصدقائه، عددًا من الصديقات، وعلى الرغم من أنهما أخبرا تلك الصديقات بخلفيتي الماضية، مما يبرز للعيان أن والدي مخلص وموثوق فيه، بيد أنهن عندما شـــاهدن والدي للوهلة الأولى كان

يحيك كنزة صوف لي وليس يغير الحفاض، هذا المشــهد جعلهن يبتسمن ويضحكن لحظة، ثم يستدرن بأجسامهن وينصرفن.

عندمــا كنت في الرابعة، ظهرت فتاة ضفائرها طويلة، وأكبر من والدي بثلاث ســنوات، ولم تر مشهد تغيير الحفاض وحياكة الكنــزة، بل رأت طفــلاً محبوبًا يمكن أن تعتبــره نموذجًا، وتمد يدها وتداعب شــعري وتتحســس وجهي، وبعد أن ناديتها بلقب «عمتي»، ضمتني إلى صدرها بســرور شــديد، وجعلتني أجلس على ســاقيها. وهذه التصرفات جعلت والدي يرى شــعاعًا من الأمل في الزواج بقلق وأعصابه متوترة.

بــدأت بينهما مواعيــد الغرام، ولم أصطحبهمــا عندما كانا يتقابلان، بل يتم إرســالي إلى منزل الزوجين هاوتشــيانغ شينغ، ولي يوي جين. وكانا يتقابلان بعد أن يسدل الليل سدوله ويمشيان على امتداد السكة الحديدية ببطء، ثم يرجعان أدراجهما بتمهل أيضًــا. والدي إنســان انطوائي وخجول، يصطحــب تلك الفتاة ذهابًــا وإيابًا، ولم يطلق والدي بعــض كلماته، بيد أن صوته كان يتناثر وسط دوي السرعة العالية للقطار.

في البداية، كان لقاؤهما يســتمر وقتًا قصيرًا، حيث يسيران علــى القضبان مرة أو مرتين ذهابًا وإيابًا، وبعد ذلك يأتي والدي إلى منزل هاوتشيانغ شينغ ويأخذني ونعود إلى بيتنا. ولكنهما - فيما بعد - كانا يسيران خمس أو ست مرات ذهابًا وإيابًا، وكانا يمشــيان حتى انبلاج الفجر في بعض الأحايين، أما أنا فأتقاسم الفراش مع الطفلة (هاوشــيا) الأكبــر مني بثلاثة أيام، وتجمعنا وســادة واحدة، وهاوتشــيانغ شــينغ غير قادر علــى الاحتمال، فيســتلقي على الفراش ويشخر. وليس هناك سوى لي يوي جين

تجلس بصبــر في خارج الغرفة تنتظر قدوم والدي، وتســألهما بصــورة عادية عن التقدم الذي أحرزتــه مواعيد الغرام بينهما، ثــم تطلب من والدي أن يحملني وينصرف. وفي تلك الأيام، كنت في المســاء دائمًا أنام على الســرير في منزل هاوتشيانغ شينغ، وأستيقظ في الصباح الباكر فوق فراشي في غرفتي الصغيرة.

اســتمر هذه الحال زهاء شــهرين، وشعرت لي يوي جين بأن والدي وتلك الفتاة يبدو أن علاقتهما لم تشــهد ثمة تقدمًا سوى إطالة زمن مشــيتهما على امتداد القضبان أكثر فأكثر. وبعد أن سألت والدي بالتفصيل عن تفاصيل اللقاءات بينهما، اكتشفت أن هناك مشكلة ما وعندما كانا يمشيان في منتصف الليل والسكون يعم الكون، شــعرت تلك الفتاة بالتعب وتسمرت أقدامها وقالت: «مع الســلامة»، والدي لسانه قطعة من الخشب وبطيء الكلام، وبعد أن يطأطئ رأسه، يلف جسمه وينصرف عنها، ويهرول إلى منزل هاوشيانغ شينغ ليأخذني ونعود بيتنا.

لي يوي جين تسأل والدي: «لماذا لم تودعها حتى بيتها؟».

يجيب والدي: «قالت لي، مع السلامة».

لي يوي جين تهز رأســها، وتتنفس الصعداء، وأخبرت والدي بأن الفتاة قالت «مع السلامة»، وهي تأمل في سويداء قلبها بأن تودعها وتصطحبها حتى بيتها، علائم عدم الفهم والإدراك تظهر على وجه والدي، وتقول بصورة حازمة وصارمة:

«أنت تودعها وتصطحبها حتى باب بيتها مساء غدٍ».

يزخر قلب والدي بالشكر والامتنان تجاه هاوشيانغ، ولي يوي جين اللذين يســاعدان والدي وأنا بعد أن ســقطت على قضبان الســكة الحديديــة. وينصــاع والدي لكلام لي يــوي جين، ففي

مســـاء اليوم التالي وبعد أن قالت تلك الفتاة «مع الســـلامة»، لم يستدر جسمه وينصرف، بل ودعها حتى باب بيتها بهدوء ودعة، وأمـــام مدخل بيتها وفي ضوء القمر في منتصف الليل قالت «مع السلامة» للمرة الثانية، وفي هذه المرة ترتسم على وجهها أمارات الغبطة والبهجة.

شهدت علاقتهما تقدمًا مباغتًا ومطردًا، ويتقابلان خلسة ولم يعودا ينتظـــران ظلمة الليل، وفي يوم الأحـــد يدلفان إلى داخل الحديقة جنبًا إلى جنب، وهما يمشـــيان باتـــزان وثقة بالنفس، ويتبـــادلان أحاديـــث الهوى بصورة رســـمية، ويجمعهما الشـــوق والحنـــين، ويبدأان اللقاء فـــي تلك الغرفة الصغيـــرة التي تهتز أركانها وتتمايل عندما يمر القطـــار بجوارها، وأرى ربما ارتمى كل منهما فـــي حضن الآخر وتبادلا القبلات الحارة، ولم تتجاوز تصرفاتهما أبعد من ذلك.

تطـــورت علاقتهما من موعد غرام إلى العشـــق، وكنت غائبًا عن ذلك المشـــهد. وكان ذلك رأي لي يوي جين التي اعتقدت إذا حشـــرت نفســـي بينهما، بأن ذلك يعيق التطور الطبيعي لمشاعر الحب بينهما، ويجب علـــيّ الظهور على غرار الماء الجاري يكوّن المجاري. ولي يوي جين لديها يقين بأنه ما دامت تلك الفتاة تحب والـــدي حبًا حقيقيًا، فإنها من الطبيعي أن تتقبل وجودي. وكنت في أثناء تلك الفترة أعيش تقريبًا في منزل لي يوي جين، وأحب هذه الأســـرة وتربطني أواصـــر الصداقة الحميمـــة مع الطفلة هاوشيا، ولي يوي جين تُعد بمثابة والدتي.

عندمـــا يناقش والدي وتلـــك الفتاة زواجهمـــا، يجب عليهما مناقشـــة وجودي معهما. وعندما يقعان في حمأة الشـــوق يكون

نصيبي النسيان من جانبهما بصورة مؤقتة. بدأ والدي يسرد لها بالتفصيل قصتي التي بدأت منذ أن سـمع بكائي وانتحابي قبل أربع سـنوات وحملني من فوق القضبان، كما حكى لها الحوادث الكثيرة المشـوّقة في نشـأتي ونموي منذ أربعـة أعوام، وعندما يتحدث عني أشـعر بأن والدي المحظوظ حقًـا، كما أنه والدي الفخور بنفسـه. كما سـرد العديد من القصص القصيرة حول ذكائي، وكان يعتقد بأنني أذكى طفل في العالم.

والـدي لم يتحـدث طويلاً على هـذا النحو أبـدًا، وبعد أن استرسـل في كلامه بلا توقف لأكثر من ساعة، تقول تلك الفتاة التي ستصبح زوجته في المستقبل، بتروٍّ:

«لا يجـوز أن تنسـى هذا الطفـل، يجب أن ترسـله إلى دار الأيتام».

بُهـت والدي فجأة، وتحجرت ملامح وجهـه، وبدا عليه الهم والقلق، بعد أن كانت تعلوه أمارات السـعادة الزاخرة، وظلت مثل تلك التعابير ترتسـم على وجهـه فترة من الزمن، ولم تتبدد مثل العواصف والأمطار. وسقط والدي في حبائل الصراع العاطفي، فهو يحب تلك الفتاة حبًا عميقًا وقتئذ، وطبعًا يحبني أيضًا، ويعد ذلك نوعـين مختلفين من الحب، ويحتاج إلـى اختيار أحدهما، ويتخلى عن الآخر.

في الواقع، فإن تلك الفتاة لم ترفض وجودي معها البتة، وعلى كل حـال هي فتاة واقعية جدًا، وتبلغ من العمر ثمانية وعشـرين عامًا، ويعتبر سـنها كبيرا في ذلك العصر، والرجال الذين يمكن أن يقع اختيارهم عليها ليسوا كثيرين، وهي قابلت والدي وشعرت بأنه لا بأس به في كافة الجوانب، والشـيء الوحيد المؤسف أنه

يتبنى لقيطًا. وتفكر أنها ســوف تتجــب أطفالاً، ووجودي داخل أروقة أســرتها مــن المحتمل أن يكون شــيئًا مزعجًــا. ومن ثم، تفوهت بمثل تلك الكلمات، وحياتهما ســتكون أفضل بشكل كبير إذا لــم أكن موجودًا بينهمــا. وكان تفكيرهــا صائبًا، لأنهما قد ينجبــان طفلين أو أكثر، فضلاً عــن تبني طفل، ويمثل ذلك عبئًا ثقيلاً وضخمًا في حياة زوجين يعيشــان في ظروف مالية صعبة وعســيرة. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة، فهي ما زالت تتقبل وجــودي غير أنها ترى أن والدي يجب - في البداية - أن يرسلني إلى دار الأيتام. وكان ذلك كل ما تفوهت به من كلمات.

كان والدي عنيدًا ومكابرًا، ودخل تفكيره في طريق مســدود في التو ولا يمكن الفكاك من ذلك، وقرر في مناحي نفســه أنها لا تستطيع قبول وجودي. وربما كان صائبًا، وعلى الرغم من أنها تتقبلني كرهًا، ولكن ربما ســأكون بمثابة سبب مسبق للخلافات والمصاعب داخل هذه الأســرة. آلام والدي لا تحتمل، فهو يشبه منشفة مبللة بالعواطف، ومسكتها أنا وهذه الفتاة بإحكام شديد وعصرنــا طرفيهــا بقوة حتــى جففنا ما بداخلهــا من عواطف ومشاعر.

فــي ذلك الحــين كان عمري أربــع ســنوات، والوحيد الذي لا يعــرف عن ذلك أي شــيء، كما لا أعرف تمييــز رؤية والدي نحــوي إذا كان تعبير عينيه من الفرحــة والبهجة قد تحول إلى تعبير من الشــفقة والرحمــة. ويبدو في تلك الأيــام أن والدي بــات يحبني أكثر. وأجيد المشــي ببراعة ومهــارة آنذاك، ولكن والــدي يحتضنني عندما ندلف إلى خــارج البيت كأنني مازلت أتعثــر في خطواتي. وعندما يتقدم إلــى الأمام يلصق وجهه في

وجهي. ووالدي يتمسك بالتقشف الدائم، ويشتري لي قطعتين من الحلويات كل يوم، قطعة يقشر ورقتها ويدسها في فمي، والأخرى يدسها في جيب ملابسي الصغير.

وعندما يعز عليه فراقي في عالم عواطفه، يشعر في أعماق قلبه بأنه ينأى عني كلما مشينا، ووالدي البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا يحتاج إلى امرأة تقاسمه الحياة سواء في الجانب النفسي أو الفيزيولوجي. ويحبني أكثر آنذاك، ولكنه في حاجة ماسة إلى حب امرأة. وبعد أن يعيش نوبة العذاب الذاتي، يقرر اختيارها ويتخلى عني.

ذات يوم في البكور، وعندما استيقظت من نومي، رأيت والدي جالسًا على جانب السرير، ويحني ظهره ويقول بصوت خفيض:

«يانغ فيي، نذهب ونركب القطار».

عشت أربع سنوات بجوار قضبان السكة الحديدية وسط دوي القطارات التي تسير بسرعة عالية، ولكن لم أركب القطار. وبعد أن ركبت القطار للمرة الأولى ألصق وجهي بزجاج نافذة القطار. وحينما شرع القطار بالتحرك، رأيت الركاب على رصيف المحطة يتراجعون إلى الخلف أكثر فأكثر، وألجمتني الدهشة والذهول وصرخت بصوت عال. وبعد ذلك، رأيت البيوت والمساكن والشوارع تتراجع بسرعة، كما رأيت الحقول والبركات تتراجع بسرعة أيضًا، واكتشفت أنه كلما تراجعت الأشياء القريبة يكون تراجعها سريعًا، وكلما تراجعت الأشياء البعيدة يكون تراجعها بطيئًا. وسألت والدي:

«ما السبب في ذلك؟».

يجيب والدي وصوته يشوبه القلق والحزن: «لا أدري».

يحملني والدي وننزل من القطار في مدينة صغيرة، وكان ذلك وقت الظهيرة، ونتناول المعكرونة في دكان صغير قبالة محطة القطار. والدي يطلب لي سلطانية الشعيرية باللحم المشرط، وطلب لنفسه معكرونة الصلصة السادة. لا أستطيع أن آكل سلطانية الشعيرية الكبيرة، وما تبقى منها يأكله والدي، وبعد ذلك، يطلب والدي مني الجلوس، ويمشي في الشارع يسأل المارة عن مكان دار الأيتام. سأل ثلاثة أشخاص ذكروا أنهم ليسوا متأكدين إذا كان هذا المكان يوجد به دار أيتام أم لا، أما الشخص الرابع فيأخذ مهلة للتفكير ويخبره بالمكان المحدد لهذه الدار.

والدي يحملني ونسير في طريق طويل جدًا، ونصل إلى جانب جسر من البلاط الصخري، ويوجد تحته نهر (جي جيه)، وكان فصل الجفاف وقتئذ. ويسمع صوت غناء أطفال ينبعث من غرفة قبالة الجسر، ويعتقد أنها دار أيتام، وفي الحقيقة هناك رياض أطفال. يحملني والدي ونقف على رأس الجسر، وسمعت صوت غناء ينبثق من بناية قبالة الجسر وأخاطبه بسرور قائلاً:

«بابا، هناك أطفال كُثر».

والدي يحني رأسه ويجيل بصره في كافة الجهات، ويرى غابة صغيرة على مقربة من الجسر، وهناك بضعة أحجار ضخمة تتخلل الأعشاب الكثيفة والملتفة. وأضخم حجر يوجد في أحد الجوانب لونه أخضر وسطحه أملس، ويمسح والدي أعلاه بيديه، ويزيل التراب وبعض الحصى المتكسرة من فوقه مثل جلو آثار الصدأ من فوق لوح حديدي باستخدام ورق السنفرة، ويصقله حتى يلتمع ويشرق، ثم يحملني ويضعني فوق ذلك الحجر، ويستل من جيبه كمية كبيرة من الحلويات ويدسها في جيوبي، وأحملق

بفرح شـــديد في تلك الحلويات، وما جعلني أكثر غبطة وابتهاجًا أن والدي اشترى أيضًا كمية كبيرة جدًا من البسكويت الذي يملأ جيوبـــي الثلاثة الأخرى. وبعد ذلـــك، يجلب والدي الإبريق الذي يحمله على ظهره، ويعلقه في رقبتي ويقف أمامي، وتحملق عيناه في الأعشاب الكثيفة على أديم الأرض، ويقول:

«انصرف».

أقول: «حسنًا».

يســتدير والدي جســمه وينصـــرف ولا يجرؤ علـــى أن يلف رأسه وينظر إلي، وســـار حتى وصل إلى منعطف، وفي الحقيقة لا يتحمـــل، ويدور رأســـه ويرمقني بنظرة، ويرانـــي أجلس على الحجر وأهز قدمي في سعادة وغبطة.

يركب والدي قطار العودة، ويرجع إلى مدينتنا في المساء. وبعد نزوله من القطار، لـــم يذهب إلى غرفته الصغيرة، بل عرج على منـــزل تلك الفتاة، وينادي عليها بـــأن تخرج، وبعد ذلك يتوجهان إلى الحديقة في صمت مطبق، الفتاة تقتفي أثره في الخلف وقد اعتادت على أنه كثير الصمت.

عندما وصلنا إلـــى الحديقة، كانت بوابتهـــا موصدة. والدي يســـير على امتداد ســـور الحديقة وهي تســـير وراءه، حتى دلفا إلى مكان ناء وهادئ، وتتســـمر قدماه، وينكس رأســـه ويحكي ما فعلـــه في ذاك اليوم، وأخيـــرًا يؤكد أنه تركنـــي على مقربة من دار الأيتام. الفتاة تلجمها الدهشـــة والذهول، ولا تجرؤ على أن تصدق أنه تخلى عني بهذه الطريقة، حتى شـــعرت بالخوف إلى حـــد ما. ثم أدركت أنه فعل ذلك مـــن أجل حبها، وتحتضنه بقوة وتقبله بحرارة، وهو بدوره يحتضنها بشدة أيضًا. الحطب الجاف

يتوق إلى النار المتأججة، ويتفقان بعد التشاور وبفارغ الصبر على الاضطلاع بإجراءات تسجيل الزواج غدًا. وبعد أن هدأت حمأة جيشان العواطف، يقول والدي إنه يشعر بالإعياء، ويعود إلى الغرفة الصغيرة بجوار قضبان السكة الحديدية.

في ذاك المساء ظل والدي ساهرًا طوال الليل، وكانت هذه المرة الأولى التي نفترق فيها بعد أن حملني من فوق القضبان، وبدأ يكون نهبًا للمخاوف والقلق، ولا يعرف مكاني في هذه اللحظة، ولا يعرف هل اكتشف مسؤول دار الأيتام وجودي أم لا؟ وإذا لم يكتشف وجودي، فمن المحتمل أن أظل جالسًا فوق تلك الصخرة، ومن المحتمل أيضًا أن يدنو مني كلب عقور في جوف الليل.

وفي اليوم التالي، والدي قلبه مفعم بالأسى ويمشي مع تلك الفتاة في الشارع الذي يفضي إلى مكتب تسجيل الزواج، ولم تدرك تلك الفتاة أن قلب والدي يشهد تغيرات تقلب وجه الأرض، وشعرت فقط بأن أمارات التعب تبدو على وجهه، وبعد أن استفسرت عن ذلك باهتمام، عرفت أنه لم ينم طوال الليل، وتعتقد أن ذلك من جراء تأثره بالقلق، ولذا ترتسم بسمة حلوة على زاوية فمها.

يقول والدي بعد أن قطع نصف المسافة إنه يشعر بالإرهاق، ويجلس على جانب الرصيف، ويضع يديه على ركبتيه، ثم يدفن رأسه بين ذراعيه وينفجر في نوبة بكاء بحرقة. أخذت تلك الفتاة على حين غرة، تقف هناك ببلادة، وتشعر بالقلق بصورة غامضة. يبكي والدي فترة من الوقت، وبعد ذلك ينهض واقفًا بسرعة، ويقول:

«أريد العودة، أريدُ العودة، وأبحث عن يانغ فيي».

لم يدر بخلدي أن والدي تخلى عني، وأخبرني بكل المشاهد فيما بعد، ثم أبحث في أعماق ذكرياتي عن نُتف من تلك المشاهد. وأتذكر أنني كنت سعيدًا وأشعر بالاطمئنان في البداية، وأجلس فوق ذلك الحجر طوال ما بعد الظهر وأتناول البسكويت والحلويات، وأستمر في الأكل حتى عندما يمـر أمامي أطفال رياض الأطفال، ويبدون إعجابهم بي بصورة مسـتمرة، وسـمعت هـؤلاء الأطفال يقولون لآبائهم: «نريد حلويات، نريد بسـكويت». بعد ذلك، يغشـى الليل وسـمعت نباح كلب في مكان ليس بعيدًا، وبدأت أشـعر بالخوف، ونزلـت من فوق ذلك الحجر، وتواريت عن الأنظار خلفه، ولا يزال الخوف يداهمني، ألملم أوراق الشـجر المتسـاقطة على الأعشاب الكثيفة، ورقة ورقة وأغطي بها جسـمي، وأغطي بها رأسي أيضًا، ولا أشـعر بالأمان. ويغالبني النوم في غطائي من أوراق الأشجار، وأسـتيقظ في الصباح الباكر على صوت جلبـة وضوضاء هؤلاء الأطفال الذاهبين إلى رياض الأطفال، وأرى شـروق الشـمس من الشقوق بين تلك الأوراق، وأصعد من جديد إلى أعلى ذاك الحجر، وأجلس هناك انتظارًا لقـدوم والدي. انتظرت وقتًا طويلاً، ويبدو أن أناسًـا جاؤوا إليّ وتحدثوا معي، وتخونني الذاكرة ولا أتذكر ما دار بيننا من حديث. ليس عندي حلويات ولا بسكويت أيضًا، عندي فقط بعض الماء في الإبريق، وأسـتطيع فقط أن أرتشـف رشفتَي مـاء إذا تضـورت جوعًا، وأفتقـر إلى الماء بعد ذلك. وأنا أشـعر بالجوع والعطش والإرهاق، وأهبط من أعلى الحجر وأستلقي على الأعشـاب الكثيفة خلف الحجر، كما سمعت نباح كلب مرة أخرى، وأغطي نفسـي من رأسي إلى أخمص قدمي بأوراق الأشجار مرة أخرى، ثم رحت في نوم عميق.

يصل والدي إلى تلـك المدينة في الظهيرة، وبعد أن ينزل من القطـار، يركض ويهرول علـى الطريق، وفي مـكان بعيد يركز نظراته، ولم ير شبح جسمي فوق الحجر. تتهادى خطوات هرولته تدريجيًا. وتتسمر قدماه في مكان ليس بعيدًا عن الحجر، وطار لبه هلعًا ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وعندما يستبد به القلق والاضطراب، يسمع صوتاً ينطلق من منامي خلف الحجر، ويقول:

«لماذا لم يحضر والدي ويأخذني بعد؟».

أخبرني والدي فيما بعـد، بأنه عندما رأى لحافي من أوراق الشجر ضحك أولا، ثم ما لبث أن انخرط في البكاء. يزيح أوراق الشجر، ويحملني من داخل الأعشاب الكثيفة، وعندما استيقظت ورأيت والدي، أهتف في فرحة غامرة:

«جاء بابا، حضر والدي أخيرًا».

حياة والدي عادت إلى فلك حياتي. ومنذ ذلك الوقت، والدي يرفض الـزواج، طبعًا في البداية رفض تلـك الفتاة التي تتدلى ضفائرها علـى منكبيها، وكانت حزينة جدًا، واسـتعصى عليها الفهم وهرولت إلى لي يوي جين تبكي بعد أن شـعرت بالحيف. وعرفـت لي يوي جين ما حـدث بينهما، وألقـت باللائمة على والدي، وقالت إنها وزوجها هاوتشـيانغ شينغ يرغبان في تبنيَّ، وتشـعر بأنني ابنها لأنني رضعت من ثديها. ويهز والدي رأسـه بخجل ويعتـرف بأنه ارتكب خطأ. ولكـن عندما تطلب منه لي يوي جين أن يستعيد علاقته وانسجامه من جديد مع تلك الفتاة، يقرر والدي المتشـبث برأيه، أنه يسـتطيع فقـط أن يكون لديه اختيار واحد أنا أم تلك الفتاة، ويقول:

«أريد يانغ فيي فقط».

والــدي يلتــزم بالصمت ولا يقــدم جوابًا مهما أســدت إليه لــي يوي جين مــن النصح، التي استشــاطت غضبًا وشــعرت بأنه لا حول ولا قوة لها، وذكرت أنها لم تعد تعير اهتمامًا لشؤون والدي.

رأيت تلك الفتاة ذات الضفائر الطويلة المسترسلة على ظهرها مرات عديدة بعد ذلك. والدي يســحب يدي ونمشي في الشارع، ورأيتها مقبلة علينا بســرور بالغ، وتســحب يــدي بقوة وأناديها «مربيتي». والدي يحني رأســه دائمًا في ذلك الحين، ويســحب يدي ونمشــي بســرعة في البداية، كانت تلك الفتاة تبتســم في وجهي، ثم تظاهرت بعدم رؤيتنا بعد ذلك ولم تسمع صوتي. وبعد ثلاث ســنوات، تزوجت قائد سرية في جيش التحرير أكبر منها بعشــر سنوات ونيف، وسافرت إلى شــمال الصين البعيد لتكون من أسر الجنود هناك. ومنذ ذلك الحين، قلب والدي لم تساوره الوســاوس بشــأن تربيتي وإعدادي، فقد أصبحت كل شيء في حياته، نتقاســم متاعب الحياة حتى نعيــش حياة قصيرة مؤقتة نتــذوق فيها المعاناة أحيانًا، ونتمتع بالذكريــات الطويلة أحيانًا. وهو يسجل على الحائط عملية نموي وترعرعي، ويطلب مني كل ستة شــهور أن أقف وألصق جسمي في الحائط، ويرسم بالقلم الرصاص خطوطا عريضة فوق رأسي. وتنمو قامتي في المدرسة التمهيدية بســرعة، ويرى على الحائط اتســاع الفارق بين تلك الخطوط أكثر فأكثر، ويبتسم من سويداء قلبه.

قامتي تناهــز قامة والــدي تقريبًا عندما كنــت في الفرقة الأولى بالمدرســة التمهيدية، وأبتسم دائمًا في وجه والدي وألوح لــه بيدي، وهو يضحك: هيه، هيه! ويمشــي بجــواري، وأنصب قامتــي عاليًا حتــى أكون أطول منه عنــد المقارنة. واظبت على

ذلك حتى الفرقة الثالثة بالمدرسة الإعدادية، وقامتي تزداد طولا أكثـــر فأكثر، وتتضاءل قامة والدي يومًـــا بعد يوم، ورأيت بجلاء شـــعيرات بيضاء في قمة رأسه، ثم لفت انتباهي التجاعيد التي يغص بها وجهه، لقد أجهد والدي نفســـه بصورة مفرطة، ويبدو عليه أنه أكبر من عمره الحقيقي بعشر سنوات.

لـــم يعد والـــدي عامل التحويلـــة آنذاك، فقـــد حلت المحولة الكهربائيـــة محـــل المحولة اليدوية في أتمتة الســـكة الحديدية. وغيـــر والدي عمله وأصبح عامل محطة، واســـتغرق وقتًا طويلاً حتى تأقلم مع عمله الجديـــد. ووالدي يحب العمل الذي يتحلى بالمســـؤولية. ويركز جل اهتمامـــه عندما كان يعمل عامل تحويلة على خط الســـكة الحديدية، وإذا أخطأ في عملية التحويل تقع حادثـــة مفجعة. ثم ما لبث أن أصابـــه الترهل والتراخي بعد أن أصبح عامل محطة، وعمل بلا مســـؤولية جعله يشعر دائما بأنه طاقة كبيرة في حيز ضيق.

* * *

الفرقة الصغيرة تنأى رويدًا رويدًا، وقضيبا السكة الحديدية يلتمعان ويمتدان ويبتعدان، وأنا ما زلت قابعاً في كياني نســـجته حولي، أنغمس في المتعة حتى نســـيت العودة، وشعرت بالإرهاق، وجلست على حجر. وجسدي يشبه شجرة ساكنة، وذاكرتي تركض بخطوات وئيدة في ذاك العالم البعيد الذي يشبه الماراثون.

* * *

يعيش والدي عيشـــة التقشـــف، ويتحمل مصاريف دراســـتي من المدرســـة الابتدائية إلى الجامعة، وعلى الرغم من أن حياتنا فقيرة، بيـــد أنها لطيفة وهادئة وجميلـــة، وحتى جاء يوم تبحث

أمي عني، وتأتي من مســافة ألف ميــل، وتزلزلت أركان حياتي الهادئة. كنت في الفرقة الرابعة بالجامعة آنذاك، ووالدتي تبحث عني مــن مدينة إلى أُخرى على امتداد الســكة الحديدية، وفي الواقع، فإنها بحثت عني منذ ســنوات خلت، وبعد أن أفاقت من الإغماء في القطار، وقطع القطــار زهاء مئتي كيلومتر، تذكرت أنهــا ولدتني قبيل نزولها في محطة القطار، ولا تدري تمامًا في أي محطة كانت ولادتي، وكلفت أحد الأشخاص البحث عني في ثــلاث محطات تجاوزها القطار، ولم يجد أثرًا لي. واعتقدت أن القطار قطع لحمــي إربًا إربًا، أو تضــورت جوعًا ولقيت حتفي على القضبان، أو التهمني كلب، وانفجرت في البكاء وهي كسيرة القلب وبائســة. وبعد ذلك، تخلت عن فكــرة البحث عني، ولكن ذؤابات الأمل ما زالت تشــغل قلبها دائمًا وأبدًا، وتأمل بأن يعثر عليّ رجل طيب ويقوم بتربيتي وإعالتي حتى أشــب عن الطوق، وبعد أن تقاعدت والدتي في الخامســة والخمســين، قررت أن تســافر إلى جنوب الصين بحثًا عني في ذاك العام، وإذا لم تعثر عليّ هــذه المرة، فمن المحتمل أن تتخلى عــن فكرة البحث عني إلى الأبد، وينســق التلفاز والصحــف هنا جهود البحث عني مع والدتي. وكانت ولادتي العجيبة والغريبة قصة طريفة حقًا، وبالغ التلفاز والصحف في تقديم قصة ولادتي، وكان مانشــيت إحدى الصحف بعنوان: «ولادة طفل في القطار».

ورأيت في الصحيفة صورة والدتي ودموعها تنثال، كما سمعت قصة تدفق دموعها في التلفاز، وكان ينتابني شعور مسبق آنذاك بــأن الطفل الذي تبحث عنــه هو أنا، لأن ما ذكرتــه من تاريخ الســنة والشــهر واليوم يوافق ذاك اليوم الذي وُلدت فيه، وعلى

كل حال، نبضـــات قلبها لا تعرف الخوف كأن هذه القصة تتعلق بشـــأن إنسان آخر. ولم يكن في الحسبان أن يكون عندي اهتمام للمقارنة وأعرف الاختلاف بين دموعها في الصورة التي نشرتها الصحيفة، ودموعها على شاشـــة التلفاز، فقد كانت دموعها في الصحيفة ثابتة وتلتصق بخديها، أما دموعها على شاشة التلفاز فمتحركة وتســـح من زاوية فمها. وأنا ووالدي الذي يُدعى (يانغ جين بياو) نتقاســـم متاعب الحياة لمدة اثنتين وعشـــرين ســـنة، وتعودت نفســـي على الأم التي تُدعى (لي يوي جين)، وتظهر الأم الأخرى الغريبة بصورة فجائية، وتتدافع مشاعر غريبة في قلبي.

يقرأ والدي القصة التي ســـردتها أمـــي في الصحيفة آنذاك بدقة، كما يســـمع قصتها في التلفاز بدقة أيضًا. وقرر أن الابن الذي تبحث عنـــه هو أنا. ويعرف دار الضيافـــة التي تقيم فيها والدتـــي من أخبـــار الصحيفة، وفي بكـــور ذاك اليوم عرّج على مكتب محطة القطـــار واتصل هاتفيًا بـــدار الضيافة التي تقيم فيها، واســـتقبلت المكالمة الهاتفية بكل ســـهولة ويســـر، وبعد أن يدققا في كافة التفاصيل، ســـمع والدي بكاءها بحرقة، وتنهمر دموع والدي أيضًـــا، ويتجاذبان أطراف الحديث في الهاتف لمدة ساعة وأكثر وصوتهما ينشج، ووالدتي تسأل عن أحوالي بصورة مستمرة، ووالدي يجيب بلا انقطاع، ثم يتفقان على الالتقاء بعد الظهر في الفندق الذي تقيم فيه. والدي متأثر بالغ الأثر، ويعود أدراجه، ويقول:

«جاءت أمك لزيارتك».

يذهب والدي إلى البنك ويسحب من دفتر التوفير ثلاثة آلاف يـــوان، وهـــذا المبلغ هو كل مدخراته، ويســـحب يدي وندلف إلى

أكبر مركز مشـتريات في مدينتنا فتح أبوابه أمام الجمهور توًا، والدي يعتزم شراء ملابس غربية ذات ماركة مشهورة من أجلي. ويـرى والدي أنني يجب أن أرتدي ملابـس على غرار تلك التي يرتديهـا النجوم اللامعة التي تظهر على شاشـة التلفاز، وأقابل والدتي في كبرياء وكرامة، ويجعلها تشعر بأنه لم يعاملني معاملة سيئة طوال اثنين وعشـرين عامًا. يعيش والدي في هذه المدينة منذ سـنوات طويلة، ولكنه لم يبرح محيط محطة القطار بصورة أساسية، وتُعد هذه المرة الأولى التي يدخل فيها مركز المشتريات ذا التصميـم من طراز رفيـع وتتألف من سـتة طوابق، ويتطلع حواليه، ويدمدم، ويقول: «رائع جدًا، فخم جدًا».

الطابق الأول في مركز المشتريات يضم مستحضرات التجميل من جميع الماركات، والدي يأخذ نفسًـا بالقوة، ويخاطبني قائلاً: «تفوح رائحة زكية هنا».

والدي يتقدم إلى أمام كونتر المشتريات الذي يضم مستحضرات التجميل، ويسأل آنسة: «الملابس الغربية ذات الماركة الشهيرة في أي طابق؟».

تجيب الآنسة: «في الطابق الثاني».

والدي مفعم بالحماسة ويسحب يدي، ونخطو خطوات واسعة، ونسند أيدينا على السلم الكهربائي كأن والدي يلف ألوفاً مؤلفة مـن لفائف المال حول خصره، ونصل إلـى الطابق الثاني، ونجد أمامنـا دكان الماركات الأجنبية الشـهيرة، وعندما يدخل والدي هناك يلقي نظرة على أسـعار أربطة العنق في عدة صفوف عند مدخل الدكان، وتُصيبه الدهشة ويخاطبني قائلا:

«رباط العنق يُباع بمئتين وثمانين يوانًا».

أقول: «يا بابا، أخطأت في قراءة السعر، إنه ألفان وثمانمئة يوان».

ترتسم علائم الحزن وليست أمارات الدهشة على وجه والدي، ويحاصره الخجل والحياء، ويقف مشدوهًا هناك. وفي الأيام الماضية، وعلى الرغم من أنه يحيا الحياة الفقيرة ويعيش عيشة التقشف، بيد أنه كان لديه خداع الحواس دائمًا من أنه يمتلك كساء وفيراً وطعاماً كثيراً، وفي تلك اللحظة يشعر بصورة حقيقية بأنه فقير. ولا يجرؤ أن يدخل ذلك الدكان للماركات الأجنبية الشهيرة، ويتقدم إلى الآنسة المسؤولة عن المشتريات ويسألها وتنتابه مشاعر مركب النقص:

- «أين توجد الملابس الغربية رخيصة الثمن؟».

- «في الطابق الرابع».

يحني والدي رأسه ويتدلى ويتقدم نحو السلم الكهربائي للصعود إلى أعلي، وسمعت صوت زفراته ونحن نعتلي ذلك السلم، كما سمعته يقول بصوت خفيض في البداية بأنني لو لم أسقط من القطار، لكان الوضع أحسن، وحياتي ستكون أفضل بكثير مما هي عليه الآن. وقد عرف من الصحف والتلفاز أن والدتي الحقيقية تتمتع بمعاش نائب رئيس قسم، أما والدي الحقيقي فما زال مدير الشعبة في مخفر. وفي الواقع، فإن والدي الحقيقي هو موظف بسيط في تلك المدينة الواقعة شمال الصين، ولكن يرى نفسه أنه شخصية قوية تتحلى بالنفوذ.

يحتوي الطابق الرابع على ملابس الرجال من الماركات المحلية، أنفق والدي ألفين وستمئة يوان واشترى بزة غربية، وقميصًا، وربطة عنق، وحذاءً جلديًا، ثم ما لبث أن عادت إليه خداع

الحواس من الكساء الوفير والطعام الكثير، ويقف على درجات السلم الكهربائي الذي يهبط إلى أسفل رويدًا رويدًا ويفيض حماسة وحيوية، ويشرف من علٍ وينظر إلى إعلان معلق في الطابق الثاني فيه رجل أجنبي يرتدي بزة غربية وحذاء جلديًا، ويقول إنني أكثر أناقة من ذلك الرجل الأجنبي في الإعلان بعد أن ارتديت اللباس الغربي، ثم يتنهد ويتحسر، ولسان حاله يقول إن المرء يعتمد على الملابس لإظهار مكانته وأناقته حقًا.

في هذا اليوم في الساعة الثانية بعد الظهر، يرتدي والدي البزة النظامية للسكة الحديدية، وأنا أرتدي البزة الغربية والحذاء الجلدي، وعرجنا على دار الضيافة ذات النجوم الثلاث التي تقيم فيها والدتي الحقيقية. يتقدم والدي إلى الكونتر الأمامي ويسأل الفتاة هناك عن والدتي، وتخبره بأنها خرجت في الصباح ولم ترجع بعد، ومن المحتمل أنها ذهبت إلى التلفاز. ويبدو أن الفتاة التي تعمل في الكونتر الأمامي تعرف قصة والدتي الحقيقية، وترمقني بنظرة، وهي لا تعرف أنني بطل هذه القصة. جلسنا على الأريكة عند مدخل الردهة ننتظر قدوم والدتي الحقيقية. وبدأ لون الأريكة الأسود يتسخ ويبهت فعلاً، لأن الجلساء كُثر جدًا، ومؤخرتهم نالت كثيرًا من دهان الأريكة. أرتدي البزة الغربية وأصلح هندامي وأجلس بوقار، ويساورني القلق والخوف ومقطب الجبين، ووالدي يصلح لباسه ويجلس باحترام، وتنتابه مشاعر الهم والقلق وهو مقطب الجبين أيضًا، ويرتدي البزة النظامية الجديدة.

لم يمض وقت طويل، وتدخل امرأة في أواسط العمر، وتتجه نحونا وترمقنا بنظرة، وتعرَّفنا عليها ونهضنا في الحال،

وجذبنا انتباهها، وتسـمرت قدماها تحملق في وجهي. وتخبرها فتـاة الكونتر الأمامي آنذاك بأننا ننتظرها وتشـير إلينا بيدها اليُسـرى. وتعرَّفت علينـا والدتي الحقيقية، وعلـى الرغم من أنهـا اتفقت مع والـدي على الموعد المحدد بعـد الظهر، ولكنها لم تتحمـل الانتظار، وعرجت على محطـة القطار في الصباح بحثًـا عن والدي، وكنا في مركز المشـتريات في ذلك الحين ولم تعثر علينا، وقابلت هاوتشيانغ شينغ الذي أخبرها بالتفصيل بأن (يانغ جين بياو) تولى رعايتي وإعالتي حتى كبرت، كما ذهبت إلى الجامعة التي درسـت فيها وأقامت في مسكن الطلاب، وسألت زملائي في الدراسـة عن أحوالي بالتفصيـل. والآن تدخل دار الضيافة وجسمها يرتعش، وتحدق في وجهي وجعلتني أشعر بأن نظراتها تخترق وجهي، تمشـي حتى تصل أمامي، وتفتح ثغرها عـدة مرات ولم تتفـوه بحرف، وطفرت الدموع مـن عينيها، ثم أصدرت صوتًا بصعوبة بالغة، وسألتي:

«أأنت يانغ فيي؟».

أومئ برأسي.

وتسأل والدي: «أأنت يانغ جين بياو؟».

والدي يطأطئ رأسه أيضًا.

تنحرط فـي البكاء، تبكي تارة وتخاطبني تارة أُخرى، وتقول: «ملامحك تشبه أخاك الكبير كثيرًا، وقامتك أعلى من قامته».

تفرغ مـن تلك الكلمات، وتركع أمام والـدي بصورة فجائية، وتقول: «صاحب الفضل، صاحب الفضل..».

والدي يسندها بسرعة وتجلس على الأريكة ذات اللون الأسود الباهـت، وتبكي بحرقة بلا انقطاع، وتغمـر الدموع وجه والدي

أيضًــا. والدتي الحقيقية تتقدم بالشــكر والامتنــان إلى والدي بصورة مســتمرة، وكل جملة شكر وامتنان تتبعها كلمات تعبر عن أنها لا تستطيع أن تشكر والدي على ما قدمه من جميل ومعروف كبيريــن، وعرفت أنه تخلى عن حيــاة الزوجية من أجلي، وتتكلم وفي عينيها دمع يترقرق:

«أنت قدمت تضحيات كبيــرة من أجل ابني، تضحيات كبيرة جدًا».

والدي لم يتعود على سماع تلك الكلمات ورؤية تلك التصرفات، ويحملق في وجهي ويقول: «يانغ فيي ابني أيضًا».

والدتــي الحقيقية تكفكف دموعها، وتقــول: «أجل، نعم، هو ابنك أيضًا، هو ابنك إلى الأبد».

بعد أن يسود الهدوء تدريجيًا، تمسك والدتي الحقيقية يدي، وتحدق فــي وجهي بعينــين مذهولتين، وتتحــدث معي بكلمات مفككة ومشوشــة، وفي كل مرة عندما أجيب على أسئلتها، تدير رأسها، وتخبر يانغ جين بياو بسرور بالغ:

«صوته يشبه صوت أخيه الأكبر تمامًا».

والدتي الحقيقية تثق ثقــة تامة بأنني ابنها الذي أنجبته في مرحاض قطار متحرك قبل اثنين وعشــرين عامًا، وذلك بفضل معالم وجهي وصوتي.

وفيما بعد، أثبتت نتيجة تقييم رابطة الدم في الحمض النووي (DNA) بالدليــل الحقيقي أنني ابنها. وبعد ذلك، جاء أقربائي الغربــاء مهرولين من تلك المدينة في شــمال الصين، جاء والدي الحقيقي، ووالدتي الحقيقية، وأخي الأكبر، وأختي الكبرى، كما جــاءت زوجة أخي الأكبــر، وزوج أختي الكبرى. وشــهد التلفاز

والصحف في مدينتنا جلبة وضوضاء بعد لم شمل أسرة «الطفل الذي وُلد في القطار»، وشاهدت نفسي في التلفاز مرتبكًا وقلقًا، أما في الصحف فكنت أبتسم على مضض.

واستمرت هذه الحملة والضوضاء لمدة يومين، وفي اليوم الثالث تحول الاهتمام في التلفاز والصحف إلى «حملة الرعد المفاجئ» التي تقوم بها الشرطة للقضاء على الأدب الإباحي. وذكرت الصحف أن الشرطة تضطلع بالتمشيط المباغت والصاعق لمراكز الاستحمام والممرات في مدينتنا تحت جنح الظلام، وألقت القبض على المخالفين للقانون وبلغ عددهم ثمانية وسبعين من المشتبه بهم في الدعارة والمومسات، وكان من بينهم مومس لم يُتوقع أنها رجل واسمه (لي)، تهندم في ملابس امرأة لممارسة الدعارة من أجل كسب المال، ويتحلى بالمهارة العالية جدًا في طرائق الدعارة، واستقبل أكثر من مئة زبون في أكثر من عام. ولم يكن في الحسبان افتضاح أمره من جانب الداعرين. وكان ذلك بؤرة الاهتمام في الأخبار، ثم انتقل الاهتمام في التلفاز والصحف من «ولادة طفل في القطار»، وتركز على ذلك الرجل المتنكر في زي النسوة ويمارس الدعارة الزائفة وكأنه فتاة، وأشار فقط إلى مهارته الحاذقة في ممارسة الدعارة، أما تفاصيل كيفية استغلال تلك المهارة في الدعارة، فقد أشار التلفاز إلى ذلك بصورة غامضة، والناس في مدينتنا يحلو لهم الحديث في هذا الموضوع، وخمنوا طرائق متعددة ومتنوعة تتسم بها تلك المهارة في ممارسة الرذيلة.

* * *

يحوم حولي المطر والثلج، ولكن لم يصلا إلى عيني وجسدي، وأعرف أنهما ينأيان ويبتعدان. لا أزال أجلس فوق حجر، ومازالت ذاكرتي تركض في عالم الفوضى والارتباك.

* * *

تخرجت في الجامعة بعد انقضاء شــهرين من عودة أقربائي الغرباء إلى مدينتهم في شــمال الصــين. وعندما جمعنا اللقاء، أعــرب والدي ووالدتي اللذان أنحدر مــن صلبهما ودمهما، عن أملهمــا في أن أعمل في المدينة التي يقطنان فيها بعد تخرجي. وقال والدي الحقيقي إنه يســتطيع أن يعمل لمدة أربع سنوات في منصب رئيس شــعبة بالمخفر، وبعدها ستتم إحالته إلى المعاش، وينتهز فرصة أنه ما زال يتمتع ببعض النفوذ والســلطة، ويجري اتصالات ببعض الجهات للحصول على عمل جيد. ووافق والدي يانــغ جين بياوعلــى ذلك بصورة كاملة، فقــد كان يرى أنه رجل عادي بســيط لا حول ولا قوة له، ويفتقر إلى وســيلة لمساعدتي في الحصول على عمل يرضي طموحاتي، ويعتقد أن مســتقبلي ســيكون بلا حدود عندما أســافر إلى تلك المدينة في الشمال. وكان والــدي الحقيقــي قدم هذا الاقتراح آنذاك بحذر شــديد خشــية أن يثير غضب يانغ جين بياو، ويوضح مرارًا وتكرارًا أنه لا بأس أن أمكث هنا وأعمل، ويستطيع أن يفكر في وسيلة ويقيم علاقات هنا ويجعلني أحصل على عمل جيد. ولم يدر بخلده أن يانغ جين بياو يقبل اقتراحه بكل همة ويشــكره بإخلاص على ما قدمه من تضحيات من أجلي، بل جعله في غاية الحرج، ويصحح يانغ جين بياو أقواله بعد أن رأى علامات الحيرة والارتباك تظهر على وجهه، ويقول:

«لا يجوز أن أقول شكرًا وامتنانًا، يانغ فيي هو ابنكما».

تتأثر والدتي الحقيقية تأثرًا بالغًا، وتمسح دموعها بمنأى عن الأنظار، وتخاطبني قائلة: «إنه رجل طيب، إنه رجل صالح حقًا».

يدرك والدي أن المدينة التي أسـافر إليها باردة جدًا، ويحيك من أجلي كنزة صوف سـميكة، ناهيك عـن بنطال صوفي. كما اشـترى لي معطفا أسـود من الجوخ، وحقيبة سـفر كبيرة جدًا وعبأها بملابس الفصول الأربعة، ثم يُفرغ منها الملابس القديمة، ويذهب للسوق ويشتري ملابس جديدة لي. ولا أعرف أنه اقترض بعض المال من صديقه هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين من أجل شـراء ملابس جديدة لي. وفي بكور ذات يوم في فصل الصيف، أجرُّ حقيبة السـفر التي تكتظ بملابس الشتاء وفي داخلها البزة الغربية أيضًا، وأمشـي وراء يانغ جين بيـاو وندلف إلى محطة القطار، وبعد أن خرم التذكرة يسلمني إيَّاها ويوصني بالمحافظة عليها حيث هناك تفتيش على التذاكر داخل القطار. وعندما كنا ننتظر على رصيف المحطة، يحني والدي رأسه، ولم يتفوه بكلمة، وعندما ركبت القطار ويتحرك بخطوات وئيدة، رفع رأسه ويربت على كتفي، ويخاطبني قائلا:

«اكتب إليّ رسالة، واتصل بي هاتفيًا عندما يكون لديك متسع من الوقت حتى أشعر بالاطمئنان، وهذا وحده يكفي، ولا تجعلني فريسة للقلق من أجلك».

عندما كان القطار الذي ركبته يغادر المحطة، كان والدي يقف هنـاك يحدق في القطار ويلـوح بيده، وعلى الرغم من أن هناك ركابـاً كثراً على رصيف المحطة يذرعون المكان جيئة وذهابًا، بيد أنني أشعر بأن والدي يقف وحده هناك.

وأشعر دائمًا بالحزن عندما يدور بخلدي مشهد محطة القطار فـــي بكور أحد أيام فصل الصيف، وذلك بعد أن تلاشـــى وجوده في حياتي بهدوء. وعشـــت معه حتى ســـن الحادية والعشـــرين. واقتحمت حياته على حين غرة، وملأت عليه أقطار حياته تمامًا، وكان يجب أن يتمتع بالســـعادة، بيـــد أنه لم يتذوقها أبدًا. وبينما تحمل المشاق من أجل تربيتي وإعالتي، أنا تخليت عنه دون وعي فوق محطة القطار.

بدأت في تلـــك المدينة حياة غريبة وقصيـــرة. يذهب والدي الحقيقي إلـــى الدوام مبكـــرًا ويعود متأخرًا، وهـــو منهمك في العمل وحفلات العشـــاء. وأنا ووالدتي الحقيقية التي تقاعدت، لا نفتـــرق ليلاً نهاراً، وتصطحبني فـــي التجول بين المناظر التي تســـتحق المشـــاهدة في تلك المدينة، كما نعرج على بيوت عشرة من زملائها في العمل، وتبرز أمام عيونهم ابنها الذي فقدته لمدة اثنين وعشرين عامًا، ويشعرون بفرحة غامرة بعد لم الشمل بين الأم والابن، لكن مشـــاعر الاستغراب كانت الأكثر شيوعًا لديهم. ووالدتـــي الحقيقية، صاحبة الوجه البشـــوش، تحكي لهم قصة كيفية العثور علي، وعندما يتطـــرق حديثها إلى إثارة العواطف، يترقرق الدمع في عينيهـــا، وكنت مرتبكًا وحائرًا في البداية، ثم تعودت ببطء، وشعرت بأنني مثل سلعة ضاعت وتم العثور عليها، وأعارت أذنًا صاغية دون أن أشـــعر إلى حديث والدتي الحقيقية عن آلام الفقدان، وبهجة اللقاء بيننا.

كنـــت ضيفًا عزيزًا فـــي بداية إقامتي في الأســـرة الجديدة، ووالدي ووالدتي اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، وزوجة أخي الكبيـــر وزوج أختي الكبيرة يهتمـــون دائمًا بصحبتي والاطمئنان

علـــي، وأدركت بعد أســـبوعين أنني ضيف بلا دعـــوة. ونتزاحم جميعًا في شقة تتألف من ثلاث غرف يعيش فيها الوالدان وأخي الكبير وزوجته، وأختي الكبيرة وزوجها، أما أنا فأنام على سرير طواء في الردهة الضيقة، وفي المســـاء وقبـــل النوم، أطرح أولاً طاولة الطعام جانبًا بجوار الحائط، ثم أفرد السرير الطواء. وكل يوم في البكـــور، وعندما أغط في نومي، تأتي والدتي الحقيقية توقظني من نومي برفق شـــديد، وتطلب مني طي ســـريري في أسرع وقت ممكن، وأســـحب طاولة الطعام إلى مكانها الأصلي، وإلا لا يجـــد أفراد الأســـرة مكانًا يتناولون فيـــه طعام الإفطار. والدتي الحقيقية تبدي اعتذارها وأســـفها، وتواسيني وتقول إن وحـــدة عمل أخي الكبير ســـوف توزع عليه شـــقة قريبًا، كما أن وحـــدة عمل زوج أختي الكبيرة ســـتوزع عليه أيضًا شـــقة قريبًا، ويمكـــن أن يكون لي غرفة خاصة بعد أن ينتقلا إلى مســـكنهما الجديد.

وتشهد أسرتي الجديدة هذه الشـــجار والعراك دائمًا، حيث الشـــجار بين أخي الكبير وزوجته، وبـــين أختي الكبيرة وزوجها، وبين أبويّ الحقيقيين، وأحيانًا يقع العراك بين أفراد الأسرة كلها، وينجم عن ذلك المشـــهد الفوضوي الذي يجعلني لا أميز بوضوح الأطراف المتناحرة. وذات مرة حدث شـــجار بسببي عندما كنت على وشـــك الذهاب إلى وحدة عمل لأســـجل اسمي، وقال أخي الكبير إن نومي في الردهة يثير المشـــكلات، واقترح أن أستأجر غرفة في الخارج بعد الحصول على عمل وتقاضيّ راتباً، وحظي اقتراحه بتأييد أختـــي الكبيرة أيضًا. والدتي الحقيقية في ثورة غضب تشير إليهم بإصبعها وتصرخ في وجوههم قائلة:

«أنتم لديكم العمل وتتقاضون الراتب، فلماذا لا تســتأجرون شقة في الخارج؟».

والــدي الحقيقي يؤيد كلمات والدتي الحقيقية، ويقول إنهم يعملـون منذ بضع ســنوات خلت، ويدخرون بعــض النقود في البنك، ويتعين عليهم اســتئجار شــقة في الخارج. وبعد ذلك، نشــب عراك بين الأبناء والوالدين، وأخي الأكبر وأختي الكبيرة يعددان زملاءهم في الدراســة الذين يكــون أولياء أمورهم من ذوي السلطة والنفوذ وجهزوا لأبنائهم البيوت للمعيشة منذ زمن بعيــد. والــدي الحقيقي يغضب غضبًا شــديدًا وقد بُهت لونه ووجهه، ويلعــن أخي الكبير وأختي الكبيــرة، ويصفهما بأنهما جاحدا الجميل والمعروف، ثم ما لبثت والدتي الحقيقية تسبهما وتصفهمــا بأنهمــا يفتقران إلــى الضمير، وتقــول إنهما الآن يعمــلان بفضل علاقة والدي الحقيقــي. أقف في ركن وأرقب شجارهم الصاخب العاصف، وأشعر بالحزن والهم في سويداء قلبــي على حين غرة. وبعد ذلك جاء الدور على المشــاحنة بين أخي وزوجته وأختي وزوجها، الزوجتان تسبان زوجيهما بأنهما ليسا من ذوي الطموح والتطلعات، وتقولان إن زوج فلانة وفلانة في وحدة عمل كل منهما يتحلون بالكفاءة والمقدرة ولديهم شقة وســيارة ونقود، يأبى الزوجان الاعتراف بالضعف، ويقولان إن زوجتيهما تستطيعان الطلاق، وبعد الطلاق تبحثان عن الرجال الذين يملكون الشــقق والســيارات والمال. تهرول أختي الكبيرة إلــى الغرفة في التو وتكتب اتفاقية الطلاق، وقد حذت حذوها زوجة أخي الكبير، ويوقع على الاتفاقية كل من أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة. وبعد ذلك ينفجران في بكاء صاخب، كما يعتزمان

القفز من المبنى السكني، يهرول زوج أختي الكبيرة إلى الشرفة ويحاول القفز، ثم أختي الكبيرة تركض إلى الشرفة أيضًا، يهدأ أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة، الزوجان في الشــرفة يسحبان الزوجتين ويحاولان شــرح حجتيهمــا ويعتذران عن أخطائهما، وفي حضــوري وأمامي يركع أحد الزوجــين، أما الزوج الآخر فيضــرب فمه. في هــذه الأثناء، يدخل أبــواي الحقيقيان إلى غرفتيهما، ويوصدان الباب، ويأويان إلى فراشهما، فقد اعتادا على مثل تلك المشاحنات.

بعد أن هبت العواصف والأمطار الرعدية على هذه الأســرة، أقف في الشــرفة في هدأة جوف الليل، وأرقــب المناظر الليلية الفخمة في تلك المدينة الواقعة في شــمال الصين، ويخطر على بالي والدي يانغ جين بياو. ومنذ صغري حتى شببت عن الطوق، لم يســبني، ولم يضربني، وعندمــا أقترف خطأ يعنفني بكلمات قليلة وبرفق شديد، ثم يرسل زفرة كأنه ارتكب خطأ.

في بكور اليوم التالي، ســاد الســكون والهدوء الأسرة بعد أن هدأت العاصفة وكأن شيئًا لم يحدث. يتناول أفراد الأسرة طعام الإفطــار ويذهبون إلى الــدوام، أجلس أنــا ووالدتي الحقيقية على مقربة من طاولة الطعام، وتشــعر بتأنيب الضمير من جراء الشــجار الذي نشب مساء أمس بســببي، كما أنها أكثر شعورًا بالظلم الذي يقع عليها. وتجأر بالشــكوى بلا انقطاع، تشــتكي مــن أن أخي الكبير وأختي الكبيرة يأكلان ويشــربان بلا مقابل، ولا يدفعان تكاليف الطعام أبدًا، كما تجأر بالشــكوى من والدي الحقيقي الذي بعد انتهاء الدوام يشــارك في الكثير من حفلات العشاء والمآدب، ويعود إلى بيته ثملاً مساء كل يوم تقريبًا.

والدتي الحقيقية تثرثر وقتًا طويلا جدًا، وتشتكي من أن بيتها عبارة عن ركام من المشــكلات، وتقول إن معالجة شــؤون البيت على هذا النحو يشــعرها بالإرهاق والتعــب. وقد انتظرت حتى فرغت من كلامها، وأخبرتها بصوت خفيض:

«أريد العودة إلى البيت».

تشــعر بالارتباك والحيرة بعد أن ســمعت كلامي، ثم أدركت أن البيــت الذي أقصده ليس هنا، بل في جنوب الصين. وتســح دموعها في صمت رهيب، ولم تنصحني بالعدول عن فكرة العودة إلى هناك، بل تكفكف دموعها بيدها وتقول:

«هل تعود إلى بيتي هنا مرة أخرى وتأتي لزيارتي؟».

أطأطئ رأسي.

تقول بحزن وألم شديدين: «تعرضت للتعسف والحيف خلال تلك الأيام التي قضيتها هنا».

لم أتفوه بحرف.

بعد أن عشــت ســبعة وعشــرين يومًا داخل هذه الأســرة الجديدة، أركب القطار وأعود أدراجي إلى أســرتي القديمة. ولم أخــرج من المحطة بعد أن نزلت مــن القطار، بل أجرجر حقيبة السفر وأعبر ممرًا تحت الأرض، وأجتاز ثلاثة أرصفة بحثًــا عن والدي الذي رأيت شــبحه فــي الرصيف رقم (4)، وعندما توجهت نحوه، كان يرشــد أحد الركاب بالتفصيل إلى الطريق الصحيح بعد أن أخطأ في تحديد الرصيف، وانتظرت حتى قال ذاك الراكب «شــكرًا»، ويلف جســمه ويمشي، وبعد ذلك، أنادي:

«بابا».

والدي عندما يمشي يصبح جسمه متيبسًا بصورة فجائية، وأناديه مرة أخرى، ويستدير بجسمه ويحملق في وجهي بدهشة، كما ينظر بذهول إلى حقيبة السفر التي تجرها يدي، ويرى أن الملابس التي أرتديها هي الملابس نفسها عند مغادرتي، بالإضافة إلى حقيبة السفر، فكيف غادرت؟ وكيف رجعت أيضًا؟

أقول: «بابا، رجعت إليك».

والدي يدرك المعنى الذي أقصده بما تفوهت به من «رجعت إليك»، ويومئ برأسه قليلا، ويترقرق الدمع من عينيه، ويلف جسمه في عجالة، وينصرف، ويمضي قدمًا في عمله. أنظر إلى ساعة الرصيف وأعرف أنه مازال في وقت الدوام، أجرجر حقيبة السفر وأمشي حتى أصل إلى جوار السلم في الممر تحت الأرض، وأقف هناك أنظر إليه وهو يعمل بكل دقة متناهية، ويقوم بتوجيه وإرشاد نفر من الركاب إلى مكان العربة التي يستقلونها في القطار، كما يحمل حقيبة سفر راكب طاعن في السن ويساعده في ركوب القطار، وبعد أن يغادر هذا القطار رصيف المحطة، يرفع رأسه وينظر إلى الساعة ويعرف أنه قد حان وقت انتهاء الدوام، ويأتي إلى جواري ويحمل حقيبتي وينزل درجات السلم، وأمد يدي وأحاول أن أستعيد الحقيبة من يده، ولكنه يدفعني بقوة بيده اليسري كأنني ما زلت طفلا لا أستطيع حمل مثل تلك الحقيبة الكبيرة.

رجعت أدراجي إلى بيتي، وفي تلك الأثناء، تركنا الغرفة الصغيرة بجوار السكة الحديدية، ونقلنا إلى بناية مساكن عمال السكة الحديدية، وعلى الرغم من أننا نقطن في غرفتين، ولكن لا تسمع فيهما صوت شجار وعراك.

يشــعر والدي بالهدوء التام إزاء عودتـــي المباغتة، ويقول إنه لا يعرف أنني أرجع هنا، ومن ثم لا يوجد طعام في البيت، وطلب مني الاستحمام، بينما يذهب إلى مطعم على مقربة من مسكننا ويشتري أربعة أصناف من الخضراوات. وهو قلما يغشى المطعم، وكانت هذه المرة الأولى التي يشتري فيها مثل تلك الخضار على حين غــرة. ولم ينطق بكلمــة تقريبًا أثناء تنــاول الطعام، وكان يلتقط الطعام بصورة مستمرة ويضعه في سلطانية طعامي. وأنا لم أتكلم كثيرًا أيضًا، وأخبرته فقط بأنني أشــعر بأن هذا البيت يناســب إقامتي، والآن من الســهل إلى حد ما أن يحصل طالب الجامعــة على عمل، وبحثي عــن عمل هنا لا يكون أقل عن ذاك العمل الذي قدمه لي والدي الحقيقي. والدي ينصت إلى كلامي تارة، ويومئ برأســه تارة أُخرى. وعندما قلت أعتزم البحث عن عمل غدًا، بدأ يتكلم:

«علام كل هذه العجلة؟ استرح بضعة أيام».

أخبرني هاو تشيانغ شينغ فيما بعد، أنني بعد أن غلبني النوم في مســاء ذاك اليوم، وحضــر والدي إلى بيتــه، ودخل الغرفة وانثالت دموعه، وكانت تنهمر دموعه حينًا، ويتحدث إليه وزوجته لي يوي جين حينًا آخر، ويقول:

«رجع يانغ فيي، عاد ابني إلى أحضاني».

كان والــدي يعتقــد حتى آخــر لحظة في حياته أنه أحســن عمــل اضطلع به طــوال حياته هو تربية ابن اســمه (يانغ فيي) وإعالته. وقــد تقاعد عن العمل آنذاك، وأنا أعمل مدير قســم في تلك الشــركة، وادخرت بعض المال وأعتزم شراء شقة جديدة تتألف من غرفتين. وأســتغل الإجازة في نهاية الأسبوع، وأغشى

مـــع والدي أكثر من عشـــرة أحياء ســـكنية صغيرة قيـــد البناء والتعمير، وأعجبتني شـــقة هناك، ونستعد لأن نبيع شقة والدي ذات الغرفتين في مســـاكن الســـكة الحديدية، وهـي الشقة التي وُزعت عليه ومصدر رفاهيته، أضف إلى ذلك مدخراتي في تلك الأعـــوام، ويمكن أن ما فـــي جعبتنا من نقود يكفي لشـــراء تلك الشقة الجديدة. وعلى الرغم من إخفاقي في الزواج جعله يتنهد ويتحســـر دائمًا، بيد أن نجاحي في عملي جعله يشـــعر بالسرور والرضى بصورة عميقة.

في تلك الأيام، أشـــارك في عدد غير قليل من حفلات العشاء والمآدب في المســـاء، وعندما أعود متأخرًا إلى البيت، أجد والدي طها طعامًـــا لذيذًا وينتظر حضـــوري، وإذا لم أرجـــع إلى البيت، لا يتناول الطعام ولا ينام أيضًا. وبدأت أعتذر بقدر استطاعتي عن تلك الحفلات والمآدب في المساء، وأرجع إلى البيت وأتناول الطعام مع والدي، ونشـــاهد التلفاز ســـويًا. وفي إجازة العام، يرافقني في الســـفر إلى الجبل الأصفـــر[1]. وكان ذلك المرة الأولى وكذلك المرة الأخيرة التي يغادر بيته ويســـافر للسياحة. والدي البالغ من العمر ســـتين عامًا، قوي البنية والعافيـــة، وعندما أصعد الجبل الأصفر تتقطع أنفاســـي، وهو لا يزال أنيقًا خفيف الحركة مثل السُنونو[2]، وأحتاج إليه في أن يشد جسمي في الأماكن شديدة الانحدار.

أحيل هاو تشيانغ ولي يوي جين إلى التقاعد، وبعد أن تخرجت ابنتاهما في الجامعة في بكين، ســـافرت إلـــى الولايات المتحدة

(1) الجبل الأصفر يقع في جنوب مقاطعة آنهوي في شمال غرب الصين، ويعد من أهم المناطق الســـياحية العشرة في الصين، وقد أدرجته منظمة اليونســـكو في قائمة التراث العالمي في عام 1990. [المترجم]

(2) السُنونو أو الخطاف: طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. [المترجم]

لإعداد الدراسات العليا، ثم مكثت هناك، وعملت هناك وتزوجت أمريكياً وأنجبت طفلين هجينين جميلين. وبعد تقاعدهما يستعدان للهجرة إلى الولايات المتحدة. وفي طور انتظارهما للحصول على تأشيرة الهجرة، كانا يأتيان لزيارة والدي دائمًا، وكان ذلك بمثابة أسعد لحظة في حياته، وأعرف أنهما جاءا لزيارتنا عندما أعود إلى البيت وأســمع قهقهات الضحك تصطخب وتدوي، وعندما أظهر أمامهما، تشعر لي يوي جين بسعادة وتناديني:

«يا ابني».

كانــت لي يوي جين تناديني دائمًا بـ «يا بُنيّ»، وأشــعر دائمًا في أعماقي أنها أمي طوال نموي وكبري. وعندما كنت أمص إصبع يانغ جين بياو وأنا قابع في الجيب القماشي أمام صدره، كانت تأتي إلى غرفتنا الصغيرة بجوار الســكة الحديدية كل يوم تقريبًا، وترضعني مــن ثديها، وتخاطب والدي قائلة: حليب الأم أفضل من مســحوق اللبن. وتختزن ذاكرتي صورتها بأنها نحيفة الجســم دائمًا. ويقول والدي: إنها كانت سمينة، وأنا التهمت لبنها وصارت نحيلة، وأوافق ضمنيًا على مقولة والدي، ففي ذلك العصر من الفقر المدقع، كانت تعاني من سوء التغذية، وفي الوقت نفسه ترضع طفلا.

معرفتي بأحوال بيتهما ليست أقل من معرفتي بأحوال بيتي، فقد عشــت ردحًا طويلا من طفولتي فــي بيتهما. وعندما يكون والدي فيورديــة ليلية، أتناول الطعام وأنــام في بيتهما أيضًا. وتعاملني لي يوي جين مثل ابنتيهما هاوشياو تمامًا، وكأنها تعامل ابنها وبنتها. وعندما نأكل اللحــم بالمصادفة، تلتقط آخر قطعة في الســلطانية وتعطيني إيَّاها، ولا تعطيها لابنتها هاوشياو التي بكت ذات مرة، وقالت:

«يا ماما، أنا ابنتك من صلبك ودمك».

تقول لي يوي جين: «أعطيك المرة القادمة».

بيني وبين هاوشياو صداقة تكونت في مهد الطفولة، وعقدنا اتفاقًا سـريًا أن نتزوج بعد أن نشبّ عن الطوق، وبذلك نستطيع أن نمكث سويًا دائمًا وأبدًا، وذكرت هاوشياو آنذاك:

«أنت ستكون أبًا، وأنا سأكون أما».

كان إدراكنا للزواج في ذلك الحين عبارة عن رابطة تجمع بين الأب والأم، ولكن بعد أن فهمنـا المقولة الأكثر دقة، ومفادها أن تلك الرابطة يجـب أن تكون بعد أن نصبح زوجا وزوجة، لم يعد أحد منا يذكر ذلك الاتفاق السـري مرة أخرى، ونسـيناه بنفس السرعة التي وافقنا عليه.

في الأيام التالية، لم أسـافر مرة أُخرى إلى تلك الأسرة التي تقطن في مدينة شـمال الصـين، غير أنني أتصـل بهم هاتفيًا في عيد رأس السـنة أو في غيره من الأعياد، وتسـتقبل والدتي الحقيقية المكالمة الهاتفية، وبعد أن تسألني عن التطورات الأخيرة بالتفصيل في الهاتف، توصيني دائمًا بالاهتمام ورعاية يانغ جين بياو، وأخيرًا تتنهد شوقًا وتقول الجملة التالية:

«هو رجل صالح».

تعتـل صحة والـدي يانغ جين بياو بعد انقضاء شـهرين من تقاعده، ويعـزف عن تناول الطعام، وقـد وهنت صحته بصورة مطـردة، وطـول اليوم ليس فيـه إلا نفس يتـردد. وأخفى عني حقيقة مرضه، ولـم أعرف أنه يخوض صراعًا مع المرض، وكان يثق بأنه يبرأ من سـقمه رويدًا رويدًا. وعندما كان يصيبه مرض في الماضي، لا يذهب إلى المستشـفى، ولا يتناول الدواء، ويعول

على قـــوة بنيانه وعافيته ويتحمل ويتجلد، وفي هذه المرة ما زال يثق بأنه قادر على النهوض والشـــفاء. كنت مشـــغولا في عملي وقتئـــذ، ولم يلفـــت انتباهـي منظر والدي الـــذي يلتهمه الإرهاق والتعـــب يومًا بعد يوم، وفـــي ذات يوم اكتشـــفت أن والدي بات نحيلاً ونحيفًا وجفّ عوده، وعرفت آنذاك أن المرض أصابه منذ نصف ســـنة. وأجبرته على إجراء الكشف الطبي في المستشفى، وبعد إعداد التقرير الطبي وأخذته بيدي المرتعشـــة، عرفت أنه مصاب بمرض الورم اللمفاوي.

جحظت عيناي وأرى غوائل المـــرض المزمن تلتهم والدي إربًا إربًا، وأنا بلا حول ولا قوة. والمعالجة بالإشعاع، وإجراء العمليات، والعـــلاج بالكيماوي تتهافت على قوة بنيان والدي ويتآكل لدرجة أنه يترنح ويتمايل في مشـــيته، ويســـقط علـــى الأرض من جراء عاصفـــة ريح. وتتحمل هيئة الســـكة الحديدية جزءًا من نفقات عـــلاج والـــدي بصفته عامـــلاً متقاعـــدًا كان يعمل بهـــا. ولكن مصاريـــف العلاج ضخمة جـــدًا، ويجب علـــيّ أن أتحمل الجزء الأكبر منها، وأبيع شـــقة والدي في مســـاكن الســـكة الحديدية بهدوء وبلا ضجة. وتقدمت باستقالتي من عملي من أجل رعاية والدي، واشتريت حانوتًا صغيرًا على مقربة من المستشفى، وينام والدي في الغرفة الداخليـــة، وأنا أنام في الحانوت في الخارج، أبيع اللوازم اليوميـــة للزبائن الذين يذرعون المكان جيئة وذهابًا، وذلك من أجل الاستمرار في الحياة اليومية.

يشعر والدي بحزن شديد لأنني لم أتشاور معه بشأن استقالتي من العمل وبيع شـــقته، وعندما علم بالأمر الواقع، يتأوه ويصعد الزفرات دائمًا، ويقول وقلبه مفعم بالأسى:

«بعت الشقة، وتقدمت بالاستقالة من العمل، ماذا تعمل في المستقبل؟».

أقوم بمواساة والدي، وأنتظر حتى يبرأ من سقمه، وأعود إلى عملي في الشركة من جديد، وأدخر بعض المال، وأشتري شقة جديدة، وأجعل والدي ينعم بالراحة في خريف العمر. يهز والدي رأسه، ويقول هل ما زال هناك نقود تشتري شقة؟ أقول: لا يمكن أن ندفع كل ما نملكه من النقود، ويمكن شراء الشقة بالقروض التي نسددها بالتقسيط. ولايزال والدي يهز رأسه باستمرار ويقول لا أريد شراء شقة، ولا أريد الاقتراض. ألتزم الصمت ولم أنطق بكلمة، وقبل الارتفاع الهائل في أسعار الشقق، كان عندي خطة للشراء بالتقسيط ولكن والدي تنتابه المخاوف من اقتراض مبالغ كبيرة من البنك، واضطررت لأن أتخلى عن هذه الخطة.

يبدو أن حياتنا عادت إلى ما كانت عليه في الغرفة الصغيرة الآيلة للسقوط بالقرب من السكة الحديدية. وبعد أن نوصد باب الحانوت في المساء، نتكوم أنا ووالدي فوق الفراش ونغط في النوم. وأسمع تنهدات والدي وأنينه في المساء كل يوم، فهو يرسل الزفرات بسبب مستقبلي في الأيام القادمة، ويئن أنينًا بسبب آلام مرضه. وعندما تخف حدة آلام مرضه بعض الشيء، نتذكر سويًا ماضينا. ويزخر صوت والدي بالغبطة والفرحة آنذاك، ويسرد الكثير من الحكايات في طفولتي، ويقول عندما كنت صغيرًا وأريد النوم، أصر على أن أحظى باهتمامه ورعايته، وفي بعض الأحايين عندما يعدّل والدي وضعه في النوم ولا يستدير بظهره، أصرخ في التو مرة تلو مرة، وأقول:

«يا بابا، اهتم بي، يا بابا، اعتن بي..».

أخبرت والـــدي بأنني كنت أصغي إلى صوت شـــخيره دائمًا عندما أســتيقظ في منتصف الليل وأنـــا صغير غرير، ولكن لم أسمعه عدة مرات، وبكيت بخوف شديد خشية أنه ربما قد رحل عن دنيانا، وهززته بقوة حتى اســتيقظ من نومه، ورأيته جالسًا على السرير، وابتسمت ابتسامة تبللها الدموع، وقلت له: لا تمت أبدًا.

ذات يوم في المســاء لم يتنهد والدي، ولــم يئن أيضًا، بل راح يتكلم بصوت خفيض جدًا، وذكر كيف أنه ســمع بكائي وانتحابي على السكة الحديدية، وكيف حملني إلى بيت لي يوي جين وطلب منها أن ترضعني من ثديها، وأنا في الرابعة من عمري، أخبرني في ذاك المســاء أيضًا بأنــه تخلى عن فكرة الــزواج من أجلي، وعندما تطرق بحديثه إلى هذا الموضوع بكى بمرارة، ويحاســب نفسه عن أعماله تكرارًا ومرارًا، ويقول:

«كيف أستطيع أن أكون قاسي القلب هكذا..».

كما أخبرتــه بأنني قد تخليت عنه عندما ســافرت إلى تلك الأســرة في مدينة شــمال الصين، وقلت: أصبحنا متعادلين لم ترجح كفة أحد منا. ويتحسس يدي في الظلام، ويقول: لا يمكن أن أعتبــر أنك تخليت عني عندما ســافرت إلــى منزل والديك اللذين تنحدر من صلبهما ودمهما.

ويبتسم ابتسامة رقيقة بعد أن يفرغ ما في جعبته من كلمات. ويتذكــر عندما رجع يبحــث عني أمام ذلــك الحجر الأخضر، وأوراق الشــجر تغطي جسدي كله بسبب البرد، ويقول: لا يوجد طفــل أكثر ذكاء منك فــي هذا العالم. وكانــت ذاكرتي واضحة جلية على حين غرة في ذاك المســاء، وتذكــرت الحجر، والغابة

والأعشـــاب الكثيفة، كما تذكرت نباح الكلب الذي جعل فرائصي ترتعـــد خوفًا ورعبًا. وقلت: ليس البـــرد بل الخوف، حيث هناك كلب ينبح دائمًا.

ويقول: «لا غرو، إذن، أن تغطي رأسك بأوراق الشجر».

أضحك: هيـــه، هيه، وهو يضحك أيضًـــا ويحذو حذوي. ثم يخاطبني بهدوء، ويقول: «أنا لا أخاف الموت، لا أخشـــاه إطلاقًا، وخوفي يكمن في عدم رؤيتك مرة أخرى».

وفي اليوم التالي، ينصرف والدي بلا اســـتئذان، ويمشي في ســـكون وهدوء تامين وبلا ضجة، ولم يترك حتى قصاصة ورق، وينأى بعيدًا عني ويجر خلفه حياة لم يبق منها شـــيء يســـتحق الذكر.

وفي الأيام المقبلة، لا أكف عن تعنيف نفســـي بلا انقطاع من جـــراء إهمالي، وقبل مغادرة والدي المنزل ببضعة أيام طلب مني أن أبحث له فـــي الدولاب عن بذلته النظامية الجديدة للســـكة الحديدية، ووضعها بجوار الوسادة. لم أعر اهتمامًا لهذه البادرة انطلاقًـــا من اعتقـــادي بأنه يرغب فـــي أن يمتع نظـــره بالبزة النظاميـــة الجديدة التي ارتداها في المرحلة الأخيرة قبل إحالته إلـــى المعاش، وأغفلت عادته منذ عدة ســـنوات خلت وهي ارتداء تلك البزة النظامية الجديدة في كل مرة يكون عنده أمر مهم.

وقعت كارثة حريق في مدينتنا في ذاك اليوم الذي انصرف فيه والدي بلا اســـتئذان، واندلع الحريق في سوق كبير على مسافة أقـــل من كيلومتر من الحانوت الصغير الذي اشـــتريته، ووصلني خبـــر هذه الكارثة بعد الظهر، وكنت فريســـة للهموم والهواجس والظنون في ذلك الحين لأن الوقت متأخر، ولم يرجع والدي إلى

البيت. والتمعت فكرة في ذهني حينئذ، وشــعرت بأنه ربما ذهب إلى ذلك الســوق. بيد أن عيد ميلادي سيحل بعد أكثر من شهر، ومن المرجح جدًا أن والدي انتهز فرصة أنه يســتطيع أن يمشي ببطء، ودلف إلى هناك لشراء هدية عيد ميلادي.

أوصدت باب الحانوت، وهرولت إلى ذلك الســوق. وقد تغير لون الســوق من الفضي الرمادي إلى اللون الأســود الفاحم مثل الفحم النباتي، وتتصاعــد أعمدة الدخان إلى أعلى، وتم إخماد النيران تقريبًا، ولا تزال حنفيات أكثر من عشــر سيارات إطفاء تضــخ أعمدة المياه العالية وتســقط على الســوق الذي احترق. وقفت بضع ســيارات إسعاف في الشــارع، ناهيك عن عدد من سيارات الشــرطة. وتصل ســلالم الإطفاء إلى السوق، ويدخل رجال الإطفاء إلى السوق لإنقاذ الناس، ويحملون بعض الأفراد، وبعد أن ينقلوهم إلى ســيارة الإســعاف يدوي بوقها وتمرق في الشارع بأقصى سرعة.

يتدافع الجمهور إلى تقاطع الطرق المحيطة بالســوق من كل جهة، ويســردون قصة اندلاع النيران، ويتكلمون في وقت واحد بســبعة أفواه وثمانية ألســنة، وبقيت بين ظهرانيهم أصغي إلى كلماتهــم المتقاطعة، يقول البعض إن الحريق شــب في الســاعة العاشرة صباحًا تقريبًا، بينما يقول آخرون إن النيران شبت وقت الظهيــرة. وأضطلع بحركة مكوكية بين صفوفهم، وأســتمع إلى مناقشاتهم في أسباب حدوث حريق وتقديرهم لأعداد الجرحى والضحايا، حتى غشي الليل، وأرجع إلى الحانوت.

يذيع التلفاز في المساء خبر الكارثة والحريق بالسوق، وزعمت الأخبار الرســمية أن الكارثة وقعت من جراء اندلاع النيران في

الدائرة الكهربائية في الساعة التاسعة ونصف الساعة صباحًا. وذكــر مذيع التلفاز أن الســوق كان - آنذاك - فتــح أبوابه توًا، والزبائن في داخله ليســوا كثيرين، وتم إخلاء السوق من معظم الزبائن في عجالة، ولم يبق هناك ســوى قلة قليلة لم يســعفها الوقــت أن تغادر موقع الحادث. أمــا بخصوص أعداد الجرحى والضحايا، فقد ذكر التلفاز أن ذلك قيد البحث والتحقيق.

لم يرجع والدي إلى البيت في مساء ذاك اليوم، وقلبي راجف واجف طوال الليل. ونشرة الأخبار في التلفاز في الصباح عرضت آخر أخبار كارثة الحريق في الســوق، وذكرت أن عدد الضحايا ســبعة، وأن المصابين واحد وعشرون، من بينهم اثنان إصابتهما بالغة. وبحلول الظهيرة، كرر التلفاز أســماء الضحايا والمصابين، ولا يوجد اسم والدي.

ولكن شبكة الإنترنت عرضت أخبارًا مختلفة، وذكر مستخدم على الشــبكة أن عدد الضحايا تجاوز الخمسين، ويقول آخر بل إن العــدد تجاوز المئة. وقلة قليلة انتقدت الحكومة على شــبكة الإنترنت لأنها أخفت حقيقة عدد الضحايا. وحصل البعض على تعريف عدد الضحايا فــي الحوادث من قبل لجنة الأمن التابعة لمجلس الدولــة الصيني، ومفاده إذا كان عــدد الضحايا يتراوح بين ثلاثة وتســعة يعتبر الحادث كبيرًا نســبيًا، أما إذا ارتفع إلى أكثر من عشــرة مصابــين فيعتبر حادثًا خطيــرًا، وإذا كان أكثر مــن ثلاثين مصابًــا يعتبر خطيرًا على وجــه الخصوص. ووجه البعض ضربة قاصمة للحكومة من خلال الشــبكة لأنها تتنصلت من مسؤوليتها إزاء الكارثة، وإذا كان عدد المصابين سبعة بصورة محددة، وحتى لو كان هناك اثنان إصابتهما بالغة ويلقيان حتفهما،

فإن إجمالـي المصابين والضحايا يبلغ تسـعة فقط، مما يجعل الحادث كبيرًا نسبيًا، ولا يلقي بظلاله القاتمة على وظيفة عمدة المدينة وأعضاء الأمانة العامة للمدينة.

وانتشرت الشائعات من كل حدب وصوب على شبكة الإنترنت، ويقول البعض إن أهالي هـؤلاء الضحايا الذين لم يتم الإفصاح عنهم، تلقوا تهديدًا، بينما يذكر البعض أن هؤلاء الأهالي تقاضوا مبالغ ضخمـة مقابل تكميـم أفواههم، كما قام البعض بنشـر أسـماء الضحايا الذين تم التسـتر عليهم، وما زال اسم والدي غير موجود بينهم.

لـم يرجع والدي إلى البيت لمـدة يومين، ورحت أبحث عنه. عرجـت - أولا- علـى محطة القطار أتنسـم أخبـاره، وجال بخاطـري أنه ربما رآه بعض العاملين في محطة القطار، ولكن انقطعـت أخباره. لقد بات نحيـلا ونحيفًا وربما حتى معارفه لا يتعرفون عليه أيضًا. وسـافرت إلى أسرة هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين مرة أخرى، وقد عادا من مدينة غوانغتشـو توا، واجتازا بسهولة ويسر اختبار منح تأشيرة الهجرة في القنصلية الأمريكية هناك، وبعد عودتهما يبدأان بيع الشـقة التي عاشا فيها سنوات عديدة، ويعتزمان الإقامة مع ابنتيهما اللتين تفصل بينهم وبينهما البحار الشاسـعة. ويشعران بحزن شديد عندما عرفا هذه الأخبار، ويتهد هاو تشيانغ شينغ، وتنهمر دموع لي يوي جين، وتقول:

«يا ابني، والدك لا يرغب في أن يثقل كاهلك بالمتاعب».

ويشـعران بـأن والدي من المرجـح جدًا أنه عـاد إلى قريته حيث مسـقط رأسه وسنوات تربيته ونشـأته على غرار الأوراق

المتساقطة تعود إلى جذورها، وطلبا مني أن أسافر إلى هناك وأبحث عنه.

أبيع الحانوت، وأستقل حافلة المسافات الطويلة متوجهًا إلى مسقط رأس والدي. وقد سافرت هناك في طفولتي، ويكرهني جدي وجدتي جدًا، ويشعران بأنني أشعت البلبلة والفوضى في حياة ابنهما. ووالدتي من أسرة تتألف من خمسة من الإخوة والأخوات، علاقاتهم مع والدي سيئة. وكان جدي يعمل في السكة الحديدية، وكانت الدولة تنتهج سياسة آنذاك مفادها أنه إذا تقاعد جدي مبكرًا، يمكن أن يحل محله في العمل أحد أبنائه، واختار جدي من بين أبنائه الستة الطفل الأصغر وكان والدي. مما أثار غضب وحنق سائر الأبناء الخمسة، وربما لهذا السبب لم يصطحبني والدي مرة أُخرى إلى مسقط رأسه.

رحل جدي وجدتي عن دنيانا منذ عشر سنوات ونيف، ومازال الإخوة والأخوات الخمسة يقطنون هناك، ويعمل أولادهم وبناتهم خارج القرية منذ سنوات عديدة، وتجذرت جذورهم في مدن مختلفة.

أنزل من الحافلة في مركز المحافظة المزدحم، وأركب تاكسي يوصلني إلى قرية والدي، يسير التاكسي على طريق مسفلت وعريض ومستو، وأتذكر في طفولتي عندما ركبت السيارة مع والدي وحضرنا هنا، كنا نمشي على طريق ترابي ووعر شديد الانحدار، وعندما يسير التاكسي ويتقدم إلى الأمام يهتز ويقفز. وتنهدت في قلبي إعجابًا بالتغيرات الهائلة، وتوقف التاكسي آنذاك، وانقطع الطريق الإسفلتي بصورة فجائية، وبدا للعيان مرة أخرى طريق ترابي وشديد الانحدار، ويقول سائق التاكسي

إن القيادات العليا لا تأتي إلى مثل تلك المنطقة القاصية المنعزلة، ومن ثم انتهى طريق الإسفلت عند هذا الحد. السائق يحملق في أمارات الدهشة التي ارتسمت على وجهي، ويشرح السبب في ذلك قائلا إن الطرق في الريف يتم إصلاحها فقط بغرض أن تتفقدها القيادات السياسية. ويشير السائق إلى طريق التراب الضيق في الأمام، ويقول إن القادة لا يحضرون إلى هذا المكان الموحش المقفر الذي لا تطئه أقدام الطيور. وأردف قائلا إن القرية التي أقصدها على بُعد خمسة كيلومترات في الأمام.

وعندما سافرت إلى قرية والدي في المرة الثانية، وجدتها ليست تلك القرية التي زرتها في طفولتي، إنها القرية التي كانت تحتوي على غابة الأشجار، وغابة البامبو، ناهيك عن بضع بِرَك. وأنا ونفرٌ من أبناء الخال نأخذ النبلة ونصطاد عصفور الدوري في تينك الغابتين، كما نثني البنطال ونقف في البرك ونصطاد الجمبري، وتختزن ذاكرتي زهور السلجم الحقلي التي تشرق وتلمع تحت أشعة الشمس، وأصوات الرجال والنساء، والعجائز والصغار، والدجاج والإوز، والأبقار والغنم.. سيل متدفق لا ينقطع، بالإضافة إلى عدد من إناث الخنزير تركض على الممر الترابي. أما القرية الآن فموحشة تسري فيها برودة العدم، والحقول جرداء وصفراء، والتهمت الفؤوس الأشجار والبامبو، وجفت المياه في البرك. والشباب اليافعون في القرية يعملون خارجها، ورأيت فقط بعضًا من العجائز يجلسن أمام حجراتهن، بالإضافة إلى ثلة من الأطفال يترنحون في مشيتهم، وقد غابت عن ذهني صورة هؤلاء الإخوة والأخوات الخمسة، وسألت رجلا طاعنا في السن أحدب، ويجلس أمام الباب ويدخن غليونه،

عن مكان إقامة أسرة والدي (يانغ جين بياو)، يغمغم باسم (يانغ جين بياو) عدة مرات، ويقدح زناد ذهنه، وينادي مسنًا يجلس أمام الغرفة المقابلة المائلة ويقشر الفول، ويقول:

«ضيف يبحث عنك».

ينهض ذلك الرجل المسن واقفًا، ويحدق في وجهي، وأنا أتقدم نحوه، ويمسح يديه في ملابسه، ويبدو أنه يستعد لمصافحتي. ومشيت حتى بلغت أمامه، وأخبرته بأنني (يانغ فيي)، ولم تظهر ملامحه ثمة بادرة رد فعل، وأقول أنا ابن يانغ جين بياو. وبعد أن يتفوه بالحرف «آه» للاستغراب، يفتح فمه الذي يخلو من القواطع وينادي إخوته وأخواته:

«حضر نجل يانغ جين بياو!».

ثم يخاطبني قائلا: «لقد كبرت وقامتك عالية، ولم أتعرَّف عليك البتة».

يحضر سائر الإخوة المسنين الأربعة تباعًا. وأرى الإخوة الخمسة يرتدون ملابس من قماش الألياف الكيماوية، وعندما يقفون معًا لم أتوقع أن أشكالهم متقاربة ووجوههم متشابهة، بيد أن أطوال قاماتهم متفاوتة مثل الأصابع الخمسة في راحة الكف.

ويشعرون بفرحة غامرة عند رؤيتي، وينقعون أوراق الشاي في الماء المغلي ويقدمون السجائر لاستضافتي، أتناول فنجان الشاي، وأومئ برأسي تجاه السجائر وأقول لا أدخن. وينهمكون في طهي الطعام ويشترون الخمر، وأرى عقارب الساعة لم تبلغ بعد الساعة الثالثة بعد الظهر، وأقول: الآن مازال الوقت مبكرًا إلى حد ما، وأنتم تطبخون، ويردون: ليس مبكرًا.

انصرمت سـنوات كثيرة على هذا النحو، وهم لا يحسـدون والـدي، ولا يبغضونه مرة أخرى، فقد علموا أنه مصاب بمرض عضال وغادر البيت ولا نعرف مكانه، وتتهمر الدموع من عيونهم، ويكفكفونها بظاهر أيديهم لأن أصابعهم خشنة جدًا. وأقول إنني أبحـث عن والدي طول الوقت، ودار بخلـدي أنه ربما عاد هنا، رجع إلى مسقط رأسه مثل الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها. ومن ثم حضرت إليكم، ويطأطئون رؤوسـهم، ويقولون إن والدي لم يرجع إلى قريته.

* * *

وقفت وسط السكون والهدوء، وغادرت ذلك الجحر، وأمشي وسط السـكون والهدوء أيضًا. لا يزال يسقط المطر والثلج على التوالي، ومازال جسـدي لم يبللـه ماء المطر ولا الثلج، بيد أنهما يحاصراني، وعندما أنصرف، المطـر والثلج ينفصلان، وعندما أدير رأسي يندمجان.

وأسير على درب الذاكرة متوجهًا نحو لي يوي جين.

* * *

تـودع (لي يوي جين) دنيانا عندما رجعت أدراجي إلى المدينة قادمًا من قرية والدي.. وقد صدمتها سيارة ماركة (بي.إم دبليو) تسير بسرعة فائقة وطارت في الهواء، ثم سقطت سقوطًا مروعًا على الأرض في الشـارع. كما سـحقتها شـاحنة وسيارة أعمال تجاريـة كانتا في الخلف. لقد تركتُ المدينة لمدة ثلاثة أيام فقط، ولقيَتْ والدتي التي تتوسد قلبي مصرعها.

هاوشـيا علـى متن طائرة فـي طريق عودتها إلى أسـرتها، وهاوتشـيانغ شـينغ تلقّى ضربة قاصمة فجأة وثبطت عزيمته.

وعندمـا عرجت على بيته، كان هناك ثلة من الرهبان يضطلعون بمراسم المذهب البوذي ويقيمون جنازًا بوذيًا لتعدية روح الميت إلى شاطئ الخلاص، وتتصاعد أعمدة الدخان من الغرفة، وتكتسي الطاولة بالقماش الأصفـر، وفوقها فواكه وكعك، بالإضافة إلى لوحـة جنائزية مكتوب عليها اسـم (لي يوي جين). ويقف هؤلاء الرهبان أمام الطاولة، ويغمضون عيونهم إغماضة طفيفة ويتلون الكتاب المقدس، وصوتهم يشبه طنين سراب من البعوض. يجلس هاوتشيانغ شينغ ونظراته ذاهلة، وأنا أجلس على كرسي بجواره.

وربمـا يعلم الرهبان أن لي يوي جين كانت تسـتعد للسـفر إلى الولايـات المتحدة، وبعد تلاوة الكتاب المقدس، يخبرون هاوتشـيانغ شـينغ بأنه عندمـا يتلون الكتاب المقدس تتعـدى روح لي يوي جين ركبتـه، كما تتعدى منكبيه، وتدوس علـى القدم اليمنى وتصعد إلى السماء. ويقول الرهبان إن مراسم الجنازة البوذية تتكلف ثلاثة آلاف يوان صيني، وإذا زدنا خمسـمائة يوان يمكن أن نجعل لي يوي جين تتقمص الأرواح الأمريكية. هاو تشيانغ شينغ يومئ برأسه مصعوقًا، ونفـر من الرهبـان يغمضون عيونهم قليلا مرة أخـرى، ويواصلون تلاوة الكتاب المقـدس. وكانت التلاوة قصيرة هذه المرة. وسـمعت كلمـة أمريكا فـي جلبة تلاوة الرهبان المبهمة الذيـن قالوها باللغة الإنجليزية (USA)، وليس باللغة الصينية. وبعد ذلك، ذكر الرهبان أن لـي يوي جـين وطئت أقدامهـا الطريق المفضي إلـى الولايات المتحدة، وسوف تصل هناك بسرعة جدًا، وأسرع من طائرة البوينج.

هاو تشيانغ شينغ لم يتعرف علي عندما رآني، وجلست بجواره طويـلا حتى أدرك من أنا، ويبكي زوجته التي ارتحلت إلى العالم الآخر، ويشد يدي ويقول:

«يانغ فيي، اذهب وألق نظرة على أمك، اذهب وألق نظرة على أمك..».

قبل وفـاة لي يوي جـين بثلاثة أيام، اكتشـفت فضيحة في مدينتنا، ويتوافق ذلك الصباح الباكر في اليوم الذي سافرت فيه إلى القرية بحثًا عـن والدي، وكانت في طريق عودتها إلى بيتها بعد أن اشترت خضراوات من سوق المحاصيل الزراعية، وعندما كانت تمشي على الجسر، رأت كوكبة من الأطفال الرضع يطفون على صفحة مياه النهر. في البداية اعتقدت أنهم ربما أسـماك نافقة، ثم شـعرت بالغرابة حيث لم تر في حياتها أسـماكاً على هذا النحو، أسـماك لها أذرع وسيقان. وشعرت بأنها طاعنة في السـن وبصرها بصر شـيخوخة، ثم تنادي شابين وتطلب منهما أن يدققـا النظر فـي معرفة ماذا يطفو على ميـاه النهر! يقول الشـابان إن ذلك لا يشبه السمك، بل يشبه أطفالاً رضعاً فاضت أرواحهم، وتطفو أجسادهم مختلطة بأوراق الأشجار والأعشاب المتنوعة ويدفعها التيـار إلى الأمام، بالإضافة إلى بضعة أطفال رضع تطفو أجسـادهم في الظلال تحت الجسر، ثم تغادر هذه الظلال إلى أشعة الشمس اللامعة على سطح الماء. وعندما كانت تمشي على ضفة النهر وشـاهدت بعينيها هؤلاء الأطفال الموتى يطفون على سطح الماء تعثرت قدمها، ثم رأت ثلاثة منهم وصلوا إلى طريق مسدود على الضفة.

لـي يوي جين الصادقة المخلصة لـم ترجع إلى بيتها، وتحمل سلة الخضراوات وتذهب مباشرة إلى دار الصحيفة. حرس الدار يمنعهـا من الدخول بعد أن رأى السـلة في يدهـا، واعتقد أنها جاءت شـاكية أو طلبًا للمسـاعدة، ويخبرها بأن تقديم الشكوى

وطلب المساعدة يجب أن يكونا في مكتب خطابات الالتماس في الإدارة البلدية. تعترض لي يوي جين طريق اثنين من الصحافيين جاءا للدوام توًا، وأخبرتهما بظهور أطفال رضع موتى في النهر، ثم يهرولان إلى موقع الحادث بعد أن سمعا كلامها، ويغص أعلى الجسر وضفة النهر بالجمهور في ذلك الحين، وهناك شخص يستخدم قصبة بامبو وينتشل عددا من هؤلاء الأطفال إلى ضفة النهر.

وشهدت فترة الصباح كلها، الصحافيان وأكثر من عشرة من أهالي المدينة يعثرون هناك على سبعة وعشرين وليدًا رضيعًا، من بينهم سبعة تعلق في أقدامهم علامة المستشفى في مدينتنا، بينما تسعة عشر آخرون أقدامهم خاوية من تلك العلامة. يلتقط الصحافيان صورًا لهؤلاء الأطفال الأموات باستخدام الهاتف النقال، ثم يغشيان المستشفى، ويستقبلهما مدير المستشفى بحماسة بالغة، ويعتقد أنهما يقومان بالتغطية الإعلامية ويجريان حديثًا صحافيًا معه، لأن المستشفى طرحت سياسة جديدة لإيجاد حل لصعوبة وغلاء زيارة الطبيب المعالج من أجل تخفيف حدة الانتقاد للمستشفى في المجتمع. وبعد أن شاهد مدير المستشفى صور الرضع الموتى في هاتفهما النقال، تلاشت الابتسامة من وجهه في الحال، وقال إنه يذهب إلى المدينة في التو لعقد اجتماع، وطلب من نائبه أن يعالج هذه المشكلة مع الصحافيين. وعندما يشاهد نائب مدير المستشفى تلك الصور، يقول إنه يذهب إلى مكتب الصحة فورًا لعقد اجتماع هناك، وطلب من مدير إدارة المستشفى أن يقابلهما. مدير إدارة المستشفى تبدو عليه علامات الضجر، وبعد أن يرى صور الرضع الأموات يميز العلامة في

أعلى أقدامهم، ثم يقول إن ثمانية من الأطفال الرضع الذين تعلق علامة في أقدامهم لقوا حتفهم حيث لم ينفع فيهم علاج أو دواء، وأوليـــاء أمورهم عجزوا عن تحمل نفقات العلاج ولاذوا بالفرار. مدير الإدارة مثقل بالهموم والمشكلات، ويقول: هناك الكثير من أهالي المرضى يلـــوذون بالفرار أيضًا لأنهم لا يدفعون مصاريف العلاج. وتتكبد المستشـــفى خسائر بسبب ذلك، وتقدر بأكثر من مليون يوان، وشـــرح مدير الإدارة أن الرضع الأموات الذين تخلو أقدامهم من العلامة وعددهم تسعة عشر ماتوا أجنّة في الشهر الســـادس تقريبًا بســـبب الإجهاض تنفيذًا لخطة تحديد النسل بالقـــوة، كما لفـــت انتباه هذين الصحافيين بغطرســـة، وذكر أن خطة تحديد النسل تُعد سياســـة دولة. وأخيرًا، زعم أن الرضع الأموات البالغ عددهم تسعة وعشرين هم نفايات العلاج الطبي، ولا يرى أن المستشـــفي ارتكبت خطأ، وقـــال: يجب التخلص من النفايات.

تتلقى الصحف في مدينتنا توجيهات القيادة العليا، وتســـحب التقاريـــر التي كتبها الصحافيان اللذان يشـــعران بالحنق، وكانا يعتزمان نشـــر الصور والمقالات الصحافية على شبكة الإنترنت، وتهييـــج الرأي العام فـــي المجتمع. وصوت النقد على الشـــبكة العنكبوتيـــة يطير إلى مدينتنا مثل تطاير شـــظايا قذيفة بصورة مركـــزة. في هـــذه الأثناء، اعترف المستشـــفى بالخطأ، وذكر أن المعالجـــة لنفايات العلاج الطبي ليســـت جيـــدة، وتمت معاقبة المســـؤولين في هذا الشـــأن، وعندمـــا ذكر المستشـــفى مرة تلو الأخرى أن الأطفال الرضع يعتبـــرون نفايات العلاج الطبي أثار غضب مستخدمي الإنترنت، وانطلقت شظايا قذيفة الاستهجان

بشكل أكبر من كل حدب وصوب في الجهة المقابلة، وانبرى المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية بالتعليق على هذا الحادث، وأكد أن المعالجة الصحيحة والسليمة لتسعة وعشرين طفلا من النفايات الطبية تكون بمعاملتهم معاملة إنسانية، ودفنهم بعد حرق أجسادهم.

ذهبت إلى مستودع الجثث في المستشفى حتى ألقي نظرة على جثة لي يوي جين، وعندما دخلت هناك كانت تزخر بباقات الورود في الجهات الأربع، حيث معلّق ومكتوب عليها: «ننعى بحزن شديد ليو شين تشينغ». ولا أعرف من هو ليو شين تشينغ الذي أرسل إليه أناس كثر باقات الورود. ومن الجلي، أن ذاك الرجل إما ثري وإما صاحب منزلة نبيلة. ولم أر لي يوي جين. وباقات الورود في الجهات الأربع جعلت حجرة مستودع الجثث تبدو خاوية على عروشها، وقلبي تساوره الريبة والشك إذا كنت دخلت المكان بالخطأ أم لا.

في هذه الأثناء اكتشفت غرفة صغيرة جانبًا، ودخلت من الباب، ورأيت قطعة قماش بيضاء كبيرة جدًا تغطي أديم الأرض، والتقعر البارز من القماش الأبيض جعلني أشعر بأن تحته جثة. أجلس القرفصاء وأسحب القماش الأبيض، ورأيت لي يوي جين ترتدي ملابس بيضاء من رأسها إلى أخمص قدميها، وثلة من الرضع الأموات على الأرض. تتمدد جثتها في منتصف الحجرة ويحيطها هؤلاء الرضع من الجهات الأربع الواحد تلو الآخر، وكأنها أصبحت أمًا لهم.

الأم التي شهدت سنوات تربيتي وترعرعي، جثتها مستلقية هناك، وتتحدر الدموع على الخدين، ولا تزال ملامحها المألوفة

لدي ترتسم على وجهها وهي ميتة، تتسمر نظراتي بحزن شديد على تلك الملامح الساكنة الهادئة، أمسح دموعي، وقلبي يردد في أعماقه كلمة «ماما».

وقع انهيار أرضي وانخسفت الأرض في مدينتنا في مساء ذاك اليوم. ففي الليل البهيم يسمع الأطباء والممرضات في الدوام الليلي والمرضى صوتًا يحدث هديرًا ودويًا، كما سمعه قاطنو المباني المتاخمة، واعتقدوا أنه زلزال، ويهرولون ويفرون إلى الخارج الواحد تلو الآخر، ثم اكتشفوا أن مستودع الجثث اندثر من الوجود، وظهرت مكانه حفرة مستديرة كبيرة جدًا. وأصاب الناس الهلع والفزع من جراء ظهور هذه الحفرة الناجمة عن الانهيار بصورة فجائية، ولا يجرؤ الناس في المستشفى، ولا قاطنو البنايات السكنية المتاخمة المكوث في بيوتهم، ويتدافعون إلى الشارع، ولم يبق هناك سوى المرضى من ذوي الأمراض المستعصية يستلقون على فراش المرض، ويستسلمون للقدر.

البشر في الشوارع لم يهدأ روعهم بعد، ويعربون عن امتنانهم للسماء، ويقولون إن السماء لها عيون تحمينا، والسماء نسفت مستودع جثث الموتى، وعلى كل حال نتوسل إليها ألا تخسف بالمباني السكنية المجاورة، وإذا تحركت هذه الحفرة الناجمة عن الانهيار الأرضي عشرات الأمتار، فإن تلك المباني تنهار سواء كانت في الشرق أو الجنوب أو الغرب أو الشمال، وأعداد الموتى والمصابين لا تُحصى، وثلة من الناس يدمدمون: «الشكر والامتنان للسماء»، وهناك عجوز تتدفق دموعه كالشلال، ويقول:

«أيتها السماء أنت رحيمة حقًا، افعلي كما تشائين بتحطيم ما يجب تحطيمه، ولا تهدمي ما لا يجوز هدمه».

وبعد أن سادت مشاعر الخوف والفزع طوال الليل، بدأت تهدأ رويدًا رويــدًا، وأعلنت الإدارة البلديــة أن قطر الحفرة الناجمة عــن الانهيار الأرضي يبلغ ثلاثين مترًا، وســبب الانهيار أنه بعد أن تجمعت الميــاه الجوفية بصورة مفرطة، تشــكل هناك هيكل جيولوجــي معلق في الهواء. خمســة من موظفــي جهاز مراقبة البيئة الجيولوجية يلقون حبلا إلى قاع تلك الحفرة، ثم يسحبونه بعد أكثر من ســاعة، وذكروا أن حجرة مســتودع الجثث مازالت سليمة تمامًا، غير أن السقف يعاني من سبعة شقوق.

ســيل متدفق من أهالي المدينة يهرولــون إلى موقع الحادث، ويقفون علــى مقربة من المــكان الأصلي لحجــرة جثث الموتى، ويمتعون عيونهم بمنظر الحفــرة الناجمة عن الانهيار الأرضي، ويتهــدون فــي عجب أن الحفرة مســتديرة حقًا وتشــبه تمامًا نظرتها المرسومة بالفرجار مسبقًا، إنها مستديرة مثل الآبار في الماضي.

وبعد انقضاء يومين، يتذكر أحد الأشــخاص أن لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا كانوا في حجرة جثث الموتى عندما وقع الانهيار الأرضي، ولكن الموظفين الخمســة من جهاز مراقبة البيئــة الجيولوجية الذين فحصوا قاع حجرة جثث الموتى، ذكروا أنها خاوية من الجثث. لي يوي جين وهؤلاء الرضع فقدوا بصورة تثير العجب والدهشة.

يقــوم صحافي بالتغطية الإعلامية للحادث، ويســأل العامل النظامي المســؤول عن تنظيف حجرة جثث الموتى، ويقول الأخير إن تلــك الجثث كانت ما زالت ملقاة فــي تلك الحجرة الصغيرة عندما انتهى من الدوام في أصيل ذاك اليوم. وســأله الصحافي

أيضًا: هل تم حرق تلك الجثث أم لا؟ وينفي ذلك بصورة قاطعة، ويقول إن مؤسسة الخدمات الجنائزية لا تعمل في المساء، ومن ثم لم تحرقها. كما عرج الصحافي أيضًا على إدارة المستشفى، ولا يدري الموظفون هناك السبب في اختفاء لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا. وقالوا: رأينا أشباحًا، ومن غير المعقول أن الجثث تصعد من تلك الحفرة إلى الخارج وتتجول في الشارع.

هاوشيا، التي نزلت من الطائرة توًا وتئن تحت وطأة الحزن والألم وفرق التوقيت، تسند والدها بذراعها الذي تبدو عليه تعابير اللب الشارد، وتغشى المستشفى، وتسأل عن مصير أمها، ويقول موظفو المستشفى إنهم لا يعلمون شيئًا عن ذلك.

ينتشر في مدينتنا خبر فقدان لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا بصورة تثير العجب والدهشة، ثم ما لبثت الصفحات الرئيسة في العديد من الشبكات الإلكترونية أن أذاعت الخبر نفسه، وتتسع دائرة الاهتمام بالحادث كلما أثيرت حوله الجلبة والضوضاء، وانتشرت الإشاعات في كافة تلك الشبكات، وأبدى البعض ارتيابه من أن الحادث ربما ينطوي على أسباب تم إخفاؤها عن أعين الجمهور. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام في مدينتنا تلقت توجيهات مفادها أنها جميعًا بلا استثناء لا تنشر أخبارًا حول هذا الحادث، ولكن وسائل الإعلام في المناطق الأخرى استخدمت العناوين الرئيسة في نشر خبر هذا الحادث المثير للعجب والدهشة. وعدد غير قليل من الصحافيين في تلك المناطق يسافرون إلى منطقتنا ويركبون وسائل المواصلات المختلفة من طائرة وسيارة وقطار، ويستعدون ويتجهزون لتقديم تقارير صحافية طويلة وواسعة النطاق حول هذا الحادث.

تعقــد الإدارة البلدية مؤتمرًا صحافيًا عاجلا، وصرح موظف في مكتب الإدارة الشعبية بأن جثث لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعًا في حجرة جثث الموتى تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية بعد الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي لحرقها. ويواصل الصحافي أسئلته: هل تم إعلام أهالي الأموات قبل حرق جثثهم أم لا؟ يقول الموظف: لم نســتطع الاتصال بأهالي هؤلاء الأطفال والبالغ عددهم ســبعة وعشرين. كما يســأل الصحافي أهل لي يوي جين مرة أخري. ويشعر الموظف بالارتباك والحيرة فترة من الزمن، وبعد ذلك يعلن انتهاء المؤتمر الصحافي، ويقول: «شكرًا لكم جميعًا».

في أصيل ذاك اليوم، يرســل موظف مكتب الإدارة الشــعبية ومندوب المستشــفى علبة رفات لي يوي جين إلى أهلها، ويقولان إنــه لا يمكن الحفاظ على جثتها بســبب الجو الحار، ولذا قاما بنفســيهما بحرقها. هاوشــيا مازالت بكامل وعيها ولم تنم منذ ثلاثين ساعة ونيفًا، وتشعر بالضجر والحنق، وتصرخ قائلة: «نحن الآن في فصل الربيع».

ذلك العامل النظامي في المستشفى المسؤول عن حجرة جثث الموتى يسحب أقواله، ويخبر الصحافيين الذين جاؤوا من المناطق الأخرى، بأن جثث لي يوي جين وســبعة وعشــرين طفلا رضيعًا تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية للحرق في الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي، وأضاف أنه بنفســه ســاعدهم في نقل الجثث إلى عربة الموتى. وهناك شخص زعم أنه يعمل في البنك ونشــر خبرًا على الإنترنت جاء فيه أن ذلك العامل النظامي في المستشــفى أودع في حسابه الخاص في ذاك اليوم خمسة آلاف

يوان، وأبدى ذلك الشـخص ارتيابه من أن ذلك العامل أخذ هذا المبلغ مقابل سحب أقواله.

طلبـت الإدارة البلدية من الصحافيين الذين جاؤوا سـرعة التوجه إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية لمشاهدة العلب الصغيرة لرفات سبعة وعشـرين طفلا رضيعًا مرصوصة في رتل واحد، وذلـك حتى تبرز للعيان أن جثث هؤلاء الأطفال تم حرقها، وأنها تعتزم الاضطـلاع بإجـراءات الدفن المناسـبة، وذلك من أجل القضاء على الشائعات المتفشية على شبكة الإنترنت. ولكن ما إن يتم القضاء على موجة شـائعات، حتى تصعد موجة أخرى. وفي اليوم التالي، كان هناك شخص لديه أخبار تفيد بأن رماد عظام لي يوي جين وهؤلاء الأطفال قد حسمت من رماد الجثث الأخرى التي حرقت في ذاك اليوم. وانتشـر هذا الخبر انتشارًا سريعًا، وبعد أن سـمع أقارب الموتى الذين حُرقت جثثهم في ذلك اليوم، فتحـوا علب رماد العظام الواحدة تلـو الأخرى، وكان لرد الفعل المنتشـر على نطاق واسـع أن رماد العظام يقل وزنه كثيرًا جدًا، وذلك علـى الرغم من أنه لا يوجد أحد منهـم يعرف وزن رماد العظم في العادة، وهناك أناس راحوا يسـألون الآخرين عن وزن رماد العظم الذين يطأطئون رؤوسهم باستمرار ويقولون لم نفتح علب رماد عظـام أقاربنا أبدًا ولا نعرف وزنها. وهناك صحافي غشـي مؤسسـة الخدمات الجنائزية على وجه الخصوص آملا بأن يتحلى موظفوها بالجسـارة ويتخلون عـن صمتهم ويثبتون بالأدلة حقيقة ما حدث فعلا. جميع العاملين في تلك المؤسسـة يدحضـون ذلك ويعتبرونه زلة لسـان، أما قيادة المؤسسـة فقد شجبت بشدة الشـائعات المنتشرة على شـبكة الإنترنت، ويهزأ

شـــخص على شـــبكة الإنترنت قائلاً: إن مكافــآت العاملين في مؤسســـة الخدمات الجنائزية تضاعفت في هذا الشهر أكثر من مرتين عن ذي قبل.

* * *

أنتشـــل نفســـي من ذاكرتي الثقيلة المعقدة كأنني أجتاز غابة من الجبال المتراكمة. تتمدد نفســـي طلبًــا للراحة، وينوء فكري بالإرهاق والإعياء، ولا يزال جسدي يتقدم إلى الأمام، وأسير في الأزلية اللانهائية، وفي الفراغ المجهول. لا طير يحلق في السماء، ولا ســمكة تطوف في الماء، ولا كائنات حيــة تنمو في الأراضي الشاسعة.

اليوم الرابع

أواصـــل تجوالي بين البكور والمســـاء. ليس عندي علبة رفات العظام، ولا أمتلك قبـــرا، وعاجز عن الوصول إلى أرض الراحة الأبديـــة. لا توجد كرات الثلج، ولا ماء المطر، ورأيت فقط الهواء المتحرك من بقعة إلى بقعة مثل ريح تذرع المكان جيئة وذهابا.

تمر بجواري امرأة شابة يبدو أنها تتجول هناك، وألفّ رأسي وأنظر إليها، وهي تدير رأســها، وتحدق في وجهي. ثم تمشـــي وتعود إلي، وتتفرس في معالم وجهي بوعي، وصوتها مثل الدخان ينتقل من مكان إلى آخر، وتسألني قائلة:

«في أي مكان رأيتك؟».

وكان ذلك بمثابة سؤالي أيضا. وتسمَّر نظري في وجهها الذي يبدو أنه تربطني به معرفة ســابقة، ويتطاير شعرها في الهواء، ولكن لا أشعر بأن الريح يداعب خصلات شعرها، ولفت انتباهي ظهور بقعة دم باقية في أذنها.

وتردف قائلة: «رأيتك من قبل».

ســؤالها يتحول إلى يقين، وجههـــا في ذاكرتي غريب، ما لبث أن يصبح مألوفا. ولا أدخر وســعا في استعادة الذكريات، ولكن ذاكرتي متعبة ومرهقة أكثر فأكثر مثل الصعود إلى الجبل.

وتلفت انتباهي، وتقول: «كنت تستأجر غرفة».

ذاكرتـــي تهبط برفق شـــديد من قمة الجبـــل، وتتحلى برؤية واسعةالنطاق.

* * *

قبل سنة ونصف السـنة، عندما انتقلت واستأجرت الغرفة، كان يقطن بجواري عاشـقان في شـرخ الشباب، ولون شعريهما زاهي الألـوان، يدلفان إلى الـدوام مبكرا، ويعـودان أدراجهما متأخرين، ولا أعرف اسميهما، كما لا أعرف ماذا يعملان؟ وهما يغيران لون شـعريهما مرة كل أسـبوع تقريبا بين اللون الصفر، والأخضـر، والأحمـر، والأرجواني، إلى اللـون المختلط، ولم أر اللون الأسـود. وكانت درجة اللون متشـابهة عندما يغيران لون شـعريهما،ويزعمان أن في ذلك جمالاً وحلاوة لدى العاشـقين. وعرفت بعد شـهر أنهما يعملان في كوافير، وذكر صاحبه أنهما لا يقصان شعر الزبائن، بل يقومان بغسل شعورهم في الكوافير. وهما ينقلان مسـكنهما ويرحلان بعد انقضاء ثلاثة شـهور من تأجير الغرفة.

ينقـلان في الغرفة المجاورة لي، وأقوالهما وأفعالهما واضحة وجلية ومسموعة، والجدار الفصال بيني وبينهما يمنع العين من الرؤية فقط، ولكن لا يعيق الأذن عن السـمع. وعندما يمارسان شـهوة الحب، يدوّي صوت صرير ذلك السرير بصورة مستمرة، كما تسـمع لهاث الأنفاس، ويبـدو أن الحجرة المجاورة لي تدوّي فيها أصوات صاخبة وهائجة كل مساء تقريبا.

وينشب الشجار بينهما دائما لأنهما يعيشان في ظروف مالية صعبة. وذات مرة سـمعت الفتاة تبكي وتنتحب تارة، وتتكلم تارة أخـرى، وتقـول إنها لا ترغب تماما في العيش مع هذا الشـاب

المسكين الفقير، وإنها تريد أن تتزوج ثريا من الجيل الثاني، ولا تشتغل العمل الشاق، وتمكث في البيت تلعب الماجيانغ[1] كل يوم. أما الشاب فيقول إنه يرغب عن العيش معها في أيام فقيرة، وإنه يسعى إلى التعرف على امرأة ثرية، ويعيش في فيلا، ويقود دراجة سباق. ويصف كل منهما تطلعاته نحو الثروة والجاه من أجل أن يحط من قدر الآخر، ويقسم بكل صدق وعزم على الفراق غدا، ويسعى كل واحد منهما نحو مستقبله العظيم. ولكن في اليوم التالي كأن لم يحدث بينهما شيء، ويخرجان من غرفتهما المستأجرة وأياديهما متعانقة وتربطهما أواصر الصداقة الحميمة، ويدلفان إلى الكوافير ويضطلعان بعملهما المرهق المتعب الذي يدر عليهما النزر اليسير من المال.

وحدث بينهما الشجار الأكثر عنفا وحدة عندما ضرب ذلك الشاب الفتاة عشيقته. في البداية، سمعت تلك الفتاة تسرد قصتها مع زميلتها عندما خرجا إلى العمل، ويبدو أنهما جاءا من قرية واحدة، وتعمل زميلتها في ملهى ليلي كمضيفة تستقبل الزبائن في كونتر الملهى وتصطحبهم للتسلية واللهو والمرح، وعندما يقع الزبائن في حبائلها، تغادر الكونتر وتكسب ألف يوان في المرة الواحدة، ويمكن أن تكسب ألفَي يوان إذا اصطحبت الزبون إلى غرفته، وتتقاسم النقود مع الملهى الليلي الذي يحصل على 40 ٪، وهي تستأثر بالباقي 60 ٪. وعلى هذا النحو، تكسب ما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا في كل شهر. وقد عملت أكثر من

(1) من ألعاب التسلية والترفيه في الصين، وتشبه الدومينو، وهي عبارة عن قطع مستطيلة الشكل مصنوعة من البامبو أو الحجر أو البلاستيك، منقوش فوقها تصميمات زخرفية وكلمات مطبوعة. [المترجم]

ثلاث سنوات، وتربطها علاقات مع بعض الزوار الدائمين الذين يتصلـون بها هاتفيا دائما ويطلبون منهـا أن تزورهم وترافقهم، ومن ثم، النقود التي تكسبها لا تتقاسمها مع الملهى، والآن تكسب ما يتراوح بين ستين وسبعين ألفا في الشهر. وتقول تلك الفتاة إن زميلتها تريد أن تتقدم للعمل كآنســة في الملهى، وقد اتفقت على ذلك مع مدير الملهى، وتعتزم أن تصطحبها معها إلى هناك غدا.

تلك الفتاة تسـأل عشـيقها الشاب: «هل تسـمح لي بالعمل هناك؟».

لم يفه ذلك الشـاب بحرف. أمـا تلك الفتاة فتقول إنها تبغي العمل كآنسة في الملهى الليلي حتى تتمكن من كسب المال الكثير، ويمكن لعشيقها الشاب ألا يعمل، وهي تقوم على إعالته. وتردف قائلـة: بعد أن أعمـل هناك بضع سـنوات، أعـود إلى الحياة الشـريفة، وأعود إلى مسقط رأسي مع عشيقي، ونشتري شقة، وندير حانوتا صغيرا.

الفتاة تسأل عشيقها الشاب مرة أخرى:

«هل توافق على أن أعمل في الملهى الليلي؟».

«تتعرضين للإصابة بالمرض التناسلي (الإيدز) بالتأكيد».

«مسـتحيل، أموت جوعا، ولا أوافق على أن تعملي آنسـة في الملهى الليلي».

«أنت يمكن أن تموت جوعا، أما أنا فلا».

«أقول مستحيل بكل ما تحمل الكلمة من معنى».

«عـلام كل هذا الإصرار؟ بالإضافة إلى أننـا لم نتزوج بعد، ويمكن أن يجمعنا الطلاق قبل الزواج».

«لا يجوز أن تتفوهي بمثل تلك الكلمات مرة أخرى».

«كل ما أريد قوله إن زميلتي لها صديق وافق على أن تعمل في الملهى، فلماذا أنت لا توافق؟».

«صديقها ليس إنسانا، هو حيوان».

«صديقها ليس حيوانا، ففي ذات مرة عضها أحد الزبائن وأصابها بجرح، وذهب صديقها إلى عقر دار ذلك الزبون ولعنه بأنه شرير، كما ضربه ضربا مبرحا».

«يوافق لصديقته على ممارسة الرذيلة، إذا لم يكن حيوانا، فماذا يكون؟ كما يسب الآخرين بأنهم أشرار، وهو نفسه شرير».

«لقد قاسيت شظف العيش، وأرغب عن العيش في أيام الفقر مرة أخرى. وزميلتي تستخدم iPhone 3 عندما تم طرحه في الأسواق، كما غيرت هاتفها الخلوي فور ظهور iphone s3، وفي العام الماضي غيرت هاتفها iphone 4، وتستخدم الآن الهاتف iphone s4. وأنا أستخدم هذا المحمول البالي ولا أحد يشتريه حتى بمئتي يوان.

«سوف أشتري لك iphone s4 فيما بعد».

«نقودك لا تكفي لشراء الطعام، وإذا انتظرتك حتى تشتري لي ذلك المحمول، فسيكون هناك «iphone s40.

«أشتري لك الهاتف الخلوي iphone s4 بالتأكيد».

«أنت تهذي بالكلام، أم تقول كلاما معقولا؟».

«أتكلم بعقلانية».

«لا أعيرك اهتماما، أذهب إلى الملهى الليلي غدا».

ثم سمعت صوت فرقعة صفعة على خدها.

تبكي وتصرخ: «أنت تضربني، أنت أشبعتني ضربا حتى الموت».

كما يبكي عاشقها الشاب، ويقول: «أسفا ومعذرة، أنا آسف».

تبكـــي وتشـــتكي بحزن شـــديد، وتقول: «لم يـــدر بخلدي أن تضربنـــي، أنت فقير هكذا، وأعيش معـــك لأنك تعاملني معاملة حسنة. أنت تضربني، أنت إنسان خبيث!».

ينشج ويقول: «آسف، أنا آسف».

كما ســـمعت صـــوت فرقعة صفعة على الخد، وشـــعرت بأن ذلك الشاب يضرب وجهه، وبعد ذلك، يدوي صوت ارتطام الرأس بالحائط.

تبكي بحرقة وتتوســـل إليه: «لا تضرب رأســـك في الحائط، لا تفعل ذلك، أتوســـل إليك، أتوســـل إليـــك، لا أذهب إلى الملهى الليلي حتى إذا مت جوعا».

* * *

تتوقف ذاكرتي عند هذا الحد. وأرى أمامي امرأة تدل تعابير وجهها على أنها تعيش وحيدة، وأومئ برأسـي، وأقول: «لقد رأيتك من قبل، عندما كنت أستأجر غرفة».

تبتســـم ابتســـامة خفيفة، ويلتمع في عيونهـــا الحزن والقلق، وتسألني: «كم يوما مضى على حضورك إلى هنا؟».

أطأطئ رأسي، وأقول: «ثلاثة أيام، وربما أربعة أيام».

تُحني رأســـها، وتقول: «حضرت إلى هنا منذ عشـــرين يوما ونيفا».

وسألتها:

«هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر».

«وأنت هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر أيضا».

ترفع رأسها وتحملق في وجهي بدقة، وتسألني:

«هل تحركت عيناك وأنفك من مكانهما من قبل؟».

«ما تحركت أذني أيضا».

«يبدو من الظاهر أن ذقنك لم تتحرك من مكانها».

ترى شريطا قماشيا أسود معلقا على ذراعي الأيسر، وتقول: «أنت تعلق شريطا قماشيا أسود وتنعى نفسك إلى الناس».

تلجمني الدهشة قليلا، وأفكر كيف عرفت أن الشريط القماشي الأسود علقته على ذراعي بغرض الحداد على وفاتي؟

تقول: «هناك أناس أيضا ينعون أنفسهم ويعلقون شرائط قماشية سوداء». أسألها: «في أي مكان؟».

تقول: «أصطحبك ونذهب سويا، والناس الذين يعيشون هناك يفتقرون جميعا إلى قبر».

ترافقني ونغشى مكانا مجهولا. أعرف اسمها، وهي لم تخبرني باسمها، بل ذاكرتي تبحث عنه في عالم الممات ذلك.

* * *

هناك فتاة يافعة تدعى (ليوميي) قفزت من بناية سامقة وانتحرت بعد أن أصابها الحزن والكآبة واليأس لأن صديقها قدّم لها هدية في عيد ميلادها عبارة عن هاتف خلوي iphone s4 مغشوش، ليس حقيقيا. وكان ذلك خبرا ذائعا في كافة الأنحاء منذ أكثر من عشرين يوما.

ونشرت عدة صحف في مدينتنا تقارير عن انتحار (ليوميي) على مدى ثلاثة أيام متتالية، وزعمت تلك الصحف أن تقاريرها في هذا الشأن عميقةُ الغور. وكشف الصحافيون النقاب عن

قصص ليست قليلة في حياة ليوميي التي تعرفت على صديق عندما كانت تعمل في الكوافير، ويضطلعان بعملين مستقرين في غضون ثلاث سنوات، هما: عامل غسيل الشعر في الكوافير، ونادل في مطعم، كما اشتغلا بالعديد من الأعمال غير المستقرة، وقاما بتغيير مسكنهما خمس مرات، وكان الإيجار رخيصا أكثر فأكثر، وكان مسكنهما الأخير في حجرة تحت الأرض، كانت ملجأ للأشرار تم بناؤه في فترة الثورة الثقافية (1966 - 1976)، وبعد التخلي عنه أصبح ذلك الملجأ أضخم مسكن تحت الأرض في مدينتنا. وأضافت الصحف أن ملجأ الأشرار في مدينتنا يقطنه أكثر من عشرين ألف فرد على الأقل، أطلق عليهم أنهم ينحدرون من فصيلة الفئران، وأنهم يشبهون الفئران ينطلقون من تحت الأرض، وبعد أن يعملوا طوال اليوم، يرجعون إلى تحت الأرض. ونشرت الصحف صورة لمكان إقامة ليوميي وصديقها تحت الأرض، ولا يفصلها عن الجار سوى ستارة قماشة. وأشارت الصحف إلى أن هؤلاء البشر الذين ينتمون إلى فصيلة الفئران يطهون الطعام ويذهبون إلى المرحاض في ملجأ الأشرار، وتكدست هناك القاذورات والأوساخ بلا حدود، ويشعر المرء بأن الهواء أصبح فاسدا، ولم يعد صالحا للبشر.

واكتشف الصحافيون سجل (ليوميي) اليومي في الفضاء الافتراضي على شبكة الفيسبوك الصينية كيوكيو (QQ)، وتدعى (شيوميي) في هذا الفضاء الافتراضي. وسردت ليوميي في سجلها اليومي قبل انتحارها بخمسة أيام قصة صديقها يهدي إليها هدية عيد ميلادها. ويقول صديقها إنه أنفق أكثر من خمسة آلاف يوان من أجل شراء iphone s4 لصديقته التي

شعرت بالبهجة والغبطة لمدة يوم واحد فقط، وتناولا طعام العشاء في مطعم الجائلين في العراء. وفي اليوم التالي، يسافر الشاب العاشق إلى مسقط رأسه لزيارة والده المريض. والتقت صديقته بزميلتها التي تستخدم الهاتف الخلوي الحقيقي iphone s4، وعقدت مقارنة بين هاتفها المغشوش ونظيره الحقيقي لدى زميلتها، كما أن هاتفها خفيف الوزن بجلاء أيضا، غير أن درجة وضوح الشاشة لا بأس به، وأدركت آنذاك أن صديقها قد خدعها، وأهدى لها هاتفا خلويا ثمنه أقل من ألف يوان. وهناك صديق على شبكة الإنترنت من أرباب الصناعة، كتب رسالة فيما بعد على السجل اليومي للفتاة (شوميي) جاء فيها: «إذا تحدثنا عن نسبة الوضوح العالية لشاشة العرض، يجب أن يكون المنتج من ماركة شارب». واحتكم هذا الصديق إلى نسبة الوضوح لتصحيح ما ذكرته الفتاة عن درجة وضوح الشاشة، كما صحح أقوالها حول الهاتف الخلوي المغشوش، وقال إذا كانت شاشة العرض من ماركة شارب، فإن ذلك يجب أن نطلق عليه هاتف من نسخة طبق الأصل، وثمنه يجب أن يكون أكثر من ألف يوان.

الفتاة (شوميي) لا تستطيع الاتصال بصديقها بعد أن تعطل هاتفه الخلوي بسبب القروض، واضطرت لأن تغشى مركز اتصالات الإنترنت، وتبحث عن صديقها وترسل رسالة صوتية باسمه في الفضاء الافتراضي على شبكة (كيوكيو) لمدة خمسة أيام متتالية، وتطلب منه العودة على جناح السرعة. وفي اليوم الخامس، مازال صديقها لم يظهر في الفضاء الافتراضي، وتلعنه بأنه زوج الفاسقة المرتعشة، ثم تعلن أنها ترغب عن الحياة، كما أعلنت على الملأ أنها تستعد للانتحار، وذكرت الميقات والمكان

اللذيــن يشــهدان انتحارها. وحـــددت الموعد فـــي ظهيرة اليوم التالي، أما المكان فقد حددته -بادئ ذي بدء- فوق أعلى الجسر، وكانت تخطط للانتحار قفزا في النهر. وهناك صديق على شبكة الإنترنت أســدى النصح لها بألا تنتحر غرقا في النهر، وأضاف أننا في فصل الشتاء قارس البرودة، ومياه النهر باردة ومتجمدة وتخترق العظام، ويجب البحث عن مكان دافئ للانتحار، وأردف أن الإنســان الذي ينتحــر يجب أن يعامل نفســه معاملة طيبة. وسألت ذلك الصديق كيف يكون الانتحار دافئا ولطيفا؟ ويقترح عليها أن تشــتري علبتين من الحبوب المنومة وتبتلعهما في نفس واحد، وتلف جسدها باللحاف، وتغط في أحلام سعيدة، ثم تودع دنيانــا. وذكر أصدقاء آخرون على الشــبكة أن ذلك هراء وكلام فارغ، والمستشــفى تعطيها فقط أكثر من عشــرة حبوب منومة، أما إذا كانت تريــد أن تبتلع علبتين، فإن ميقات الانتحار يتأجل إلى نصف سنة على الأقل. وذكرت أنها لا تؤجل موعد الانتحار، وقررت أن ترتدي الملابس المخملية وتنتحر قفزا من أعلى مبنى، وقررت أن مكان الانتحار هو ســقف البناية الســكنية التي تقع قبالة مخرج المكان الذي تســكن فيه تحت الأرض، وقالت: هناك صديقان على شــبكة الإنترنت يقطنان خلف هذا الحي السكني ويطلبــان منها عدم الانتحار أمام بوابــة منزلهما، لأن انتحارها هناك سيجلب لهما النحس والحظ المنكود. واقترح أحدهما أنها تفكر بطريقة وتصعد قمة البناية السامقة للإدارة البلدية، وتقفز إلى أســفل، وقــال إن ذلك يعد انتحارا عظيمــا. وذكر أصدقاء آخرون على الإنترنت أن ذلك مستحيل لأن البوليس المسلح يقوم بحراســة الإدارة البلديــة، وقد يرى أنها جاءت شــاكية أو طلبا

للمساعدة ويحتجزها ويقيد حريتها. وفي نهاية المطاف، اختارت بنايــة قصر (بينغ فيي)، وهي المبنى التجاري، ويتألف من ثمانية وخمســين طابقا، ويعد علامة بارزة في التخطيط المعماري في مدينتنــا، ولم يعارض ذلك أي صديق علــى الإنترنت، بل هناك أصدقاء امتدحوا هــذه الطريقة ووصفوها بأنهــا جيدة، وقبل الموعد الذي حددته تستطيع أن تقف عاليا وتنظر إلى بعيد، وفي الفضاء الافتراضي كتبت آخر كلمة لصديقها، وقالت: أكرهك.

الفتاة (شوميي) حددت موعد انتحارها بعد الظهر. وفي هذه الأثناء، وصلت توا إلى بناية قصر (بينغ فيي)، وأحمل في جيبي شــهادة التخرج الجامعية، وشهادة درجة الليسانس. وعثرت في شبكة الإنترنت على عدد من الشركات في تلك البناية التي تعمل في مجال التدريس الإضافي، ورحت أبحث عن فرصة عمل في إحدى تلك الشركات.

يتدافع ويتزاحم الناس أمام بناية قصر (بينغ فيي)، كما هرولت إلى هناك ســيارة الشــرطة وســيارة الإطفاء، والناس جميعهم هناك يفتحون أفواههم قليلا ويتطلعون إلى تلك البناية السامقة. والسماء صافية زرقاء بعد ســقوط كميات كبيرة من الثلج لأول مرة في هذا الشــتاء، وأشعة الشمس تجعل أكوام الثلج المتراكمة تشــرق وتتلألأ. أقف هناك، وأرفع رأسي عاليا، وأرنو إلى شبح إنسان صغير يقف على الحائط الخارجي المكشوف لتلك البناية التي تتألف من ثلاثين طابقا. وبعد فترة وجيزة، أشــعة الشمس توجع عيني، وأحني رأســي، وأفرك عيني. وشاهدت أناسا كثرا يحذون حذوي، حيث يرفعون رؤوســهم فترة وجيزة، ثم ينكسون رؤوســهم، ويفركون عيونهم، ثم يرفعون رؤوســهم ويتطلعون إلى

أعلى فترة قصيرة. وسـمعت مناقشة صاخبة جاء فيها أن هذه الفتاة تقف هناك لمدة أكثر من ساعتين.

ويسأل أحدهم: «لماذا تقف هناك هذه الفتاة؟».

يجيب أحد الأشخاص: «تستعد للانتحار».

«لماذا تنتحر؟».

«ترغب عن الحياة».

«لماذا لا تريد الحياة؟».

«أنت أحمق وأبله؛ كيف تسأل هذا السؤال، هناك كثرة كاثرة ترغب عن الحياة في هذه السنين».

يتدافع ويتزاحم بين الناس هناك تجار صغار، والباعة المتجولون يذرعون المكان جيئة وذهابا، ويروجون بضاعتهم من محفظة جيب جلدية، وحقيبة يد جلدية، بالإضافة إلى العقود والشالات وغيرها من البضائع غير الأصلية وذات الماركات المغشوشة. كما هناك تجار يروجون بضاعة «مرهم السعادة والبهجة».

وهناك من يروج منتجات عجيبة، ويقول بصوت خفيض: من يريد أن يشتري جهاز تنصت؟ ويسأل سائل: ما فائدة جهاز التنصت؟ وكانت الإجابة أن هذا الجهاز يمكنك من التلصص على زوجتك إذا كانت خليلة لأناس آخرين. وهناك من يروج نظارات شمسية، ويقول بصوت عال: النظارة بعشرة يوانات، كما يصيح بكلام مقفّى: النظارة تري من علِ، وترى من جلي، ولا تخشى الشمس التي تفسد الحلي. بعض الأشخاص يشترون نظارات ويضعونها على عيونهم ويرفعون رؤوسهم، ويتطلعون باستمرار إلى شبح الفتاة الصغيرة فوق

قصر (بينـغ فيي)، وترامى إلى مســامعي أنهم يقولون: رجل شــرطي يطل برأســه من نافذة بالقرب من تلـك الفتاة. كما سمعتهم يقولون إن الشرطة تقوم الآن بتهيئة ذهن الفتاة حتى لا تقبل على الانتحـار. وبعد فترة وجيزة يصرخ هؤلاء الناس الذيـن يضعون علـى عيونهم النظارات الشمســية من ذوات العشــرة يوانات،ويقولون: رجل الشرطة يمد يده، والفتاة تمد يدهـا أيضا، لقد نجحت الشــرطة في عملهـا المعنوي. وبعد ذلـك، يدوي صوت منتظم من صرخــة الخوف (آه)، ثم يتبعه هدوء وســكون، وفي الحال ســمعت صوت ارتطام تلك الفتاة بأديم الأرض يدوي ويحدث هديراً.

كان المشــهد الأخير للفتــاة (ليوميي) في ذلــك العالم الذي عاشــت فيه حيث يتدفق شــلال الدم من ثغرهــا وأذنيها، وقوة الارتطام الهائلة مزقت بنطالها الكاوبوي.

تقــول الفتاة المنتحرة: «ما زال اســمي (شــيوميي)، أين كنت آنذاك؟».

أومئ برأسي.

وتقــول: «هناك أناس يقولون إن موتي يبث الخوف في نفوس الآخرين؟ ويقولون إن وجهي يغص بالدم».

ثم تسأل:

«أليس كذلك؟».

«من قال ذلك؟».

«شخص آت من الخلف».

لم أفه بحرف.

«هل أجعل الناس يشعرون بالخوف الشديد؟».

أطأطئ رأسـي، وأقول:

«عندمـــا رأيتك كنت وديعة ولطيفة جدا كأنك تغطين في نوم عميق».

«هل رأيت الدم؟».

يصيبنـــي التردد برهة، وأرغب عن الإشـــارة إلى تلك الدماء، وأقول:

«رأيت بنطالك الكاوبوي يتمزق».

تصدر برفق شديد صوت آه، وتقول:

«لم يخبرني بذلك».

«من الذي لم يخبرك بذلك؟».

«ذاك الرجل الذي آتى من الخلف».

أهز رأسـي.

تدمدم وتقول:

«تمزق بنطالي الكاوبوي».

ثم تسألني:

«ما شكل البنطال بعد تمزقه؟».

«إربا، إربا».

«ما شكل إربا إربا».

فكرت برهة، ثم أخبرتها:

«يشبه شرائط ممسحة».

تحني رأســها، وتحملق فـــي بنطالها الذي أصبـــح عبارة عن شرائط طويلة وعريضة، وبات يشبه البنطال الذي يرتديه الرجال.

تقول:

«أيوجد شخص بدّل لي البنطال».

«هذا البنطال لا يشبه بنطالك».

«آه، ليس عندي بنطال بمثل هذه المواصفات».

«يجب أن يكون هناك رجل صالح غيّر لك البنطال».

تطأطئ رأسها، وتسألني: «كيف حضرت إلى هنا؟».

يجول بخاطري المشـــهد الأخير في مطعم (تاي جيا تساي)، وأقول:

«بعد أن انتهيت من تناول سلطانية المعكرونة في المطعم، وعندما كنت أطالع صحيفة وضعها أحد الزبائن على الطاولة نشـــب حريق في المطبخ، وحدث انفجار، ولا أدري ماذا جرى هناك بعد ذلك؟».

توافـــق على كلامي، وتقـــول: «يخبرك بذلـــك رجل يأتي من الخلف».

* * *

تقـــول: «في الواقع، لا أريد أن أرحل عن هذه الدنيا، كنت في سورة غضب فقط».

أقول: «أعرف ذلك، عندما مد رجل الشرطة يده، أنت مددت يدك أيضا».

«هل رأيت ذلك؟».

لم أر ذلك، ولكن شـــاهدت أناسا يضعون على عيونهم نظارة بعشـــرة يوانات، ولا أزال أومئ برأســـي تلميحا بأنني رأيت ذلك بأم عيني.

«وقفـــت هناك ردحـــا طويلا، وهبت ريح عاتيـــة وباردة جدا، وربما تكلس جسدي، وأريد الاستمساك بيد رجل الشرطة بقوة، وتـــزل قدماه كأنه يدوس على قطعة ثلج.. وجاء رجل من الخلف يقول إن حديث الصحف عن حادث انتحاري لا ينتهي».

أقول: «حديث الصحف استمر ثلاثة أيام، ثلاثة أيام بالتأكيد».

تقول: «ثلاثة أيام كثيرة جدا أيضا»، ثم تسألني: «كيف تناولت الصحف حادث انتحاري؟».

«ذكرت الصحف أن صديقك أهدى لك الهاتف الخلوي iphone s4 مغشوشا، مما جعلك تنتحرين».

تقول بهدوء: «الموضوع ليس على هذا النحو، لقد خدعني وقال إن iphone s4 حقيقي، وفي الواقع هو مغشوش حقا. ولم يقدم لي ثمة هدية، ولا يثير ذلك غضبي. إنه لا يستطيع أن يخدعني فعلا. إن الصحف تهرف بما لا تعرف، وماذا ذكرت أيضا؟».

«أضافت الصحف أن صديقك غشي مسقط رأسه لزيارة والده الذي سقط مريضا، بعد أن أهدى إليك iphone s4 المغشوش».

بعد أن تؤمئ برأسها، تقول: «هذه أخبار حقيقية، لا أريد الانتحار بسبب ذلك المنتج المغشوش».

«كما نقلت الصحف السجل اليومي الخاص بك في الفضاء الافتراضي كيو كيو (QQ)».

ترسل زفرة، وتقول: «كتبت له رسالة في الفضاء الافتراضي حتى يقرأها، وقد تعمدت أن أذكر فيها الانتحار حتى يرجع في التو ويقدم لي الاعتذار، وأنا أصفح عنه».

«ولكن أنت صعدت قمة بناية قصر (بينغ فيي)».

«إنه الديوث الجبان لم يظهر دائما، واضطررت أن أصعد أعلى تلك البناية، واعتقدت أنه يجب أن يظهر أمامي في ذلك الحين».

تتوقف هنيهة، وتسألني: «هل ذكرت الصحف أنه حزن حزنا شديدا بعد وفاتي أم لا؟».

أطأطئ رأسي، وأقول: «الصحف لم تذكر ثمة شيئاً عنه».

تحدق في وجهي بارتياب، وتقول: «ذكرت الشرطة أنه رجع بسـرعة. وأضافت أنه يبكي الآن أسفل تلك البناية، ومن ثم، مددت يدي وقبضت بإحكام على يد رجل الشـرطة»، وبعد أن ترددت أخبرها قائلا: «إنه لم يرجع من مسـقط رأسـه. وفي الأيام الثلاثة التاليـة للحادث لم تذكر الصحف كلها أنه رجع آنذاك».

«الشرطة خدعتني أيضا».

«الشرطة خدعتك من أجل إنقاذك».

تومئ برأسها برفق عدة مرات، وتقول: «لقد أدركت كل شيء يتعلق بالحادث».

تسألني: «ماذا كتبت عنه الصحف فيما بعد؟».

أقول: «لم تكتب شيئا».

تقول في ألم وحزن: «يقوم دائما بدور الديوث الجبان».

أقـول: «ربما لا يعـرف ذلك أبدا»، وأضيـف: «وربما لم يقم بالاتصال بشبكة الإنترنت دائما ولم يقرأ الرسالة التي كتبتها له في سجلك اليومي، كما أنه سافر إلى مسقط رأسه، ولا يستطيع أن يجد الصحف هناك أيضا».

وتقول مـرة أخرى: «وربمـا لا يعرف حـادث انتحاري، لأنه لا يعرف بكل تأكيد».

أقول: «الآن يجب عليه أن يعرف ذلك الحادث».

* * *

أصطحبها ونسـير علـى طريق طويل جدا، وتقول: «أشـعر بالإرهاق، أريد أن أجلس على كرسي وأستريح».

الجهات الأربع المكشوفة تعتبر بمثابة حقيقة مترامية الأطراف مدركة غير محسوسة، ونستطيع أن نرى السماء والأرض فقط. ولم نر مشــهد الأشجار، ولم نســمع خرير تدفق مياه النهر، ولم نسمع حفيف الأوراق في الريح، ولم نسمع قعقعة وقع الأقدام.

أقول: «لا يوجد هنا كرسي».

تردف قائلة: «أريد أن أجلس على كرســـي خشــبي، لا أجلس على كرسي إسمنتي، أو كرسي حديدي».

أقول: «أنت تستطعين الجلوس على الكرسي الذي يحلو لك».

تقول: «لقد فكرت جيدا، وقررت وجلســـت، إنه مقعد خشبي طويل، وأنت تجلس أيضا».

أقول: «حسنا».

نمشي تارة، ونجلس تارة على المقعد الخشبي الطويل المفضل لديها. ونجلس على طرفي المقعد، ويبدو أنها تحملق في وجهي.

وتخاطبني قائلة: «أشـــعر بالتعب الشديد، أبغي أن أتكئَ على كتفك.. لا، أنت لست هو، لا أستطيع أن أستند على كتفك».

أقول: «تستطعين أن تسندي جسدك على ظهر المقعد».

تميل بجســـمها إلى الوراء قليلا، وتقول: «أســـنده على ظهر المقعد».

«أتشعرين بالراحة؟».

«أشعر بالراحة قليلا».

نتقـــدم إلى الأمام في صمت مطبـــق كأننا نجلس على المقعد الخشبي الطويل ونأخذ قسطا من الراحة.

يبدو أننا جلســـنا وقتا طويلا، وتأمل في أعماقها أن تنهض، وتقول: «هيا بنا نمشي».

وتبدو خطواتنا أسرع بعض الشيء عندما نتقدم إلى الأمام.

تقــول في حزن وألم: «أبحث عنه دائما، ولم أعثر عليه. الآن يتعــين عليه أن يعرف حادث انتحاري، ولم يعد ديوثا وجبانا، إنه يبحث عني بالتأكيد».

أقول: «أنتما كتب عليكما الفراق».

«هو هناك، وأنا هنا».

تحني رأسها، وتقول بهدوء: «حالنا على هذا النحو».

أقول: «هو يشعر بالحزن والألم الآن».

تقــول: «هو حزين ويتألــم حقا، هو يحبني حبــا جمّا هكذا، وهو الآن بالتأكيد يبحث عن قبري حتى يجعلني أشــعر بالراحة الأبدية».

تتكلــم وتتنهد، ثم تردف قائلة: «ليــس عنده نقود، وهو فقير مثــل ثلة من أصدقائه، وأين يذهب ويحصل على النقود لشــراء قبر لي؟».

أقول: «سوف يدبر هذا الأمر جيدا».

تقول: «أجل، إنه يرغب في القيام بعمل أي شــيء من أجلي، ويفكر في وسيلة للحصول على نقود بالتأكيد».

تعلــو وجههــا علائم ســرورها ورضاهــا بأنها عثــرت على الذكريات الحلوة في عالم الممات ذلك.

تقول بصوت منخفض: «يقول إنني أجمل فتاة في العالم».

ثم تسألني: «هل أنا جميلة؟».

أقول بصدق وإخلاص: «جميلة جدا».

تبتسم بعد أن شــعرت بالبهجة والغبطة، ثم ما لبثت أمارات القلق تعلو قسمات وجهها. وتقول: «يعتريني خوف شديد، الربيع

سـيأتي حالا، والصيف أيضا، وجســدي يتعفن، وأصبح مجرد هيكل عظمي».

أقوم بمواســاتها قائلا: «سيشــتري لك قبرا حالا، ويمكن أن تتمتعي بالراحة الأبدية قبل قدوم الربيع».

تطأطئ رأسها، وتقول: «نعم، سوف يشتري بالتأكيد».

نمشي في الهدوء والسكون، والموت هو اسم ذلك الهدوء والسكون. لم نتجاذب أطراف الحديث مرة أخرى لأن ذاكرتنا تجمدت، ولم تعد تتحرك إلى الأمام. وهذا هو العالم الذي تتفصل فيه الذاكرة، عالم أرقش متعدد الألوان، كما أنه عالم الزيف والحقيقة أيضا. وأشــعر بــأن هذه المرأة، التي ترتســم على وجهها تعابيــر الوحدة والعزلة، تســير بجواري في صمت مطبق، وأتنهــد تعجبا من أن ذاك العالم عالم الموت يجعل المرء عاطفيا ورقيق القلب جدا.

يبدو أننا مشينا إلى نهاية البرية، وتتسمر قدماها، وتخاطبني قائلة: «لقد وصلنا».

أنظر بدهشــة وذهول إلى عالم.. تتدفق فيه المياه، وينتشــر العشــب الأخضر في أصقاعه، والأشــجار مزدهــرة وناضرة، وتغص فروع الأشــجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشجار تشبه القلب، وعندما تهتز يشبه حفيفها دقات القلب. وشاهدت أناسا كثرا، كما شاهدت بشرا كثرا لم يبق منهم سوى الهيكل العظمي، بالإضافــة إلى بعض البشــر الذيــن مازالوا يحتفظون بجســم الإنسان، يذرعون المكان جيئة وذهابا.

وسألتها: «ما هذا المكان؟».

تقول: «هنا المكان الذي يموت فيه المرء ولا يجد دفانا».

* * *

يعيــق تقدمنا نحو الأمــام هيكلان عظميان يجلســان على الأرض ويلعبان الشطرنج، ويشبهان الباب الذي يعيقنا عن المشي. ونقف أمامهما، الهيكلان العظميان يتشــاجران ويتبادلان الاتهامات بأن كل واحد منهما يحاول التراجع عن لعبته في الشــطرنج، وصوت عراكهما عال رنان أكثر فأكثر مثل ألسنة اللهب تتصاعد عاليا كلما قفزت في الهواء.

الهيــكل العظمي في الجانب الأيســر يتظاهر أنه يرمي قطع الشطرنج، ويقول: «لا ألعب معك الشطرنج».

الهيــكل العظمــي في الجانــب الأيمن يتظاهــر برمي قطع الشطرنج أيضا، ويقول: «أنا لا ألعب معك الشطرنج أيضا».

الفتاة (شــوميي) تتفوه بكلمــات، وتقول: «لا تتعــاركا، أنتما تحاولان التراجع عن لعبتكما في الشطرنج».

يكف الهيكلان العظميان عن الشــجار، ويرفعان رأســيهما، وبعد أن ينظرا إلى شــوميي، يفتحان تجويف فمهما، واعتقدت أن ذلك يجب أن يرسم الابتسامة على وجهيهما. وبعد ذلك، لفت انتباههما أن هناك شــخصا بجوار شــوميي، ويلقيان عليّ نظرة فاحصة من أعلى إلى أسفل من تجويف عيونهما.

الهيــكل العظمي في الجانب الأيســر يســأل شــوميي: «إنه صديقك، أليس كذلك؟».

الهيكل العظمي في الجانب الأيمن يسأل شوميي: «صديقك طاعن في السن».

تقول شــوميي: «هو ليس صديقــي، وليس عجوزا أيضا، إنه حضر هنا حديثا».

يقــول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «عرفت أنه حضر حديثا حيث ما زال جسده به لحم».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسـر يسـألني: «هل تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاما ونيفا؟».

أجيب قائلا: «عمري واحد وأربعون عاما».

يقول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «مسـتحيل، عمرك خمسون عاما على الأقل».

أقول: «عمري واحد وأربعون عاما حقا».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسـر يسأل نظيره في الجانب الأيمن: «هل يعرف قصتنا؟».

يقـول الهيكل العظمي في الجانب الأيمـن: «يجب أن يعرف قصتنا ما دام بلغ الواحد والأربعين عاما».

يسـألني الهيـكل العظمي في الجانب الأيسـر: «أنت تعرف قصتنا؟».

«أي قصة؟ ».

«قصتنا هناك».

«توجد قصص كثيرة جدا هناك».

«قصتنا أشهر قصة بين تلك القصص هناك».

«ما قصتكما؟».

انتظرت حتى سردا قصتيهما، ولكن لم ينطقا بكلمة بعد ذلك، وينهمكان في لعب الشطرنج. وأنا وشوميي نجتاز الطريق بينهما قفزا مثل اجتياز عتبة الباب بخطوات واسعة.

* * *

أسحب شوميي ونمضي قدما إلى الأمام، أمشي حينا، وأتطلع حولـي حينا آخر، وشـعرت بأن أوراق الأشـجار كأنها تلوح لي، والأشجار تبتسم في وجهي، ومياه النهر ترسل إلي تحية.

بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تنطلق من ضفة النهر، وتنبثق من داخل طبقات عشبية، وتخرج من الغابة. وعندما يمشون أمامنا يطأطئون رؤوسهم قليلا، وعلى الرغم من أنهم مروا بجانبنا ولمسوا أكتافنا، بيد أنني ما زلت أشعر أنهم إخوة أحماء، وكان من بينهم بضعة أشخاص سجلوا أسئلتهم بصورة حميمة؟ وهناك شخص يسأل (شوميي) إذا رأت صديقا أم لا؟ وشخص آخر يسأل هل حضرت هنا تواً؟ ويبدو أن أصواتهم تتجول أولا في كافة البقاع، ثم تترامى إلى مسامعي بعد أن يبللها ماء النهر، وتجلب معها نضارة العشب الأخضر، وحفيف أوراق الأشجار.

كما سمعنا صوت شجار الهيكلين العظميين وهما يلعبان الشطرنج ويدوي مثل صوت فرقعة السوط في الفضاء ويأتي من مكان ناء، وتسمع فقط صوت عراكهما يدوي بقوة في الفضاء الواسع.

وتخبرني (شوميي) أنهما عندما يلعبان الشطرنج تتسم تصرفاتهما بالوقاحة، حيث يلعبان الشطرنج تارة، ويحاولات التراجع عن ألعابهما في الشطرنج تارة أخرى، ثم ينشب بينهما الشجار، ويقولان إنهما يفترقان مرات عديدة تقدر بالآلاف، ويريدان حرق جسديهما، ويرغب كل منهما في الذهاب إلى قبره، وعلى كل حال عندما يتفوهان بتلك الكلمات، لم ينهض أحد منهما واقفا ولو مرة واحدة.

«هل لديهما قبر؟».

تقول شوميي: «يمتلك كل منهما قبرا».

«لماذا لم يذهبا إلى قبريهما؟».

كل ما تعرفه شــوميي أنهما جاءا هنا منذ عشـــر سنوات وأكثر، أحدهما اســـمه (تشـــينغ) في ذاك الجانب وهو رجل شـــرطة، ولا يحرق جســـده، ولا يذهب إلى قبره، ينتظر أبويه هناك، وهمـــا اللذان يبـــذلان جهودهما حتى يظفـــر ابنهما بلقب الشـــهيد. والرجل الآخر اسمه (لي) يرافقه، ولا يحرق جسده، ولا يذهب إلى قبر أيضا. ويقول (لي) إنه ينتظر حتى يتـــم التصديق على منح لقب شـــهيد لزميله (تشـــانغ)، وبعد ذلك، يرافـــق كل منهما الآخر وتربطهمـــا الأواصر الحميمة والانســـجام التام، ويغشـــيان غرفة حرق الجثث في مؤسسة الخدمـــات الجنائزية، وبعد عملية الحـــرق، يهرول كل منهما إلى مقر راحته الأبدية.

تقول شوميي: «سمعت أن أحدهما قتل الآخر».

أقول: «أعرف قصتيهما».

* * *

قبل عشـــر ســـنوات ونيف، حضر أبواي، اللـــذان أنحدر من صلبهما ودمهما، من المدينة شـــمال الصين بسرعة، وتعرفا على ملامحـــي، وبعد أن حققت قصـــة «ولادة طفل في القطار» نهاية مرضية، بدأت قصـــة أخرى. واضطلعت الشـــرطة في مدينتنا بحملة للقضـــاء على الأدب الإباحي أطلـــق عليها «حملة الرعد المفاجئ»، وألقت القبض على النســـوة اللاتي يمارســـن الرذيلة، وكان من بينهن رجل يدعى (لي) تنكّر في زي لباس المرأة ويمارس الرذيلة من أجل المال.

ويشـــارك في «حملة الرعد المفاجئ» رجل شرطي شاب تخرج في مدرسة الشـــرطة توا، ويدعى (تشانغ فانغ) ويقوم باستجواب

(لي) الذي ألقي عليه القبض في مساء ذاك اليوم، ولا يزال مكابرا ولا يرغب في التوبة عن ممارسة الرذيلة والتظاهر الخفي بملابس النســاء، بل إنه يتيه عجبا وزهوا بنفســه لأنه يتحلى بالمهارة في ممارســة الرذيلة، ويزعم أن مهارته تضاهي هؤلاء الزبائن الذين يغشــون دار البغايا، ويقول: لا يوجد داعر يستطيع أن يكتشف أنه رجــل إذا لم يقبض عليه البوليس. ويتنهد تحســرا على أنه كرس قوتــه ومهارته من أجــل مجابهتهم وليأخذ الحذر من الشــرطة، وكانت عاقبة ذلك أن القارب انقلب في المجرور.

وكان تشــانغ غانغ مفعما بالنشاط والقوة في ذلك الحين لأن ذلــك كان أول اســتجواب يقوم به بعد أن غادر مدرســة الشرطة. والرجل (لي) المتنكر في زي فتاة ويمارس الرذيلة لا يحتفظ بحيوته ونشاطه فحســب، بل يبرز للعين مظهره بأنه تعلم العســكرية في مدرسة الشرطة أيضا، وجمرات الغضب تحرق تشانغ غانغ، وعندما يشبه (لي) الشرطة بأنها مجرور، لم يعد تشــانغ يســتطيع الاحتمال، ويرفع قدمه عاليا ويركل نصفه السفلي، ويمسكه (لي) بإحكام شديد، ويزعق ويصرخ، ويتدحرج على الأرض لأكثر من عشــر دقائق، ثم ينخرط في نوبة بكاء شديدة من الألم.

يتعرض (لي) للاعتقال لمدة خمســة عشر يوما، وبعد أن يفك أســره من سجن الموقوفين يبدأ في الاحتجاج لمدة ثلاث سنوات. في البداية، يتحــدى الرياح والأمطار ويظهر أمام بوابة مصلحة الأمــن العام كل يوم، وترفع يده لافتة مكتوب عليها: «أعيدوا إليّ رجولتي»، وذلك حتى يثبت أن رمز رجولته ليســتا ديكورا وزينة، بل هما حقيقــة ماثلة وواقع قائم، ويمكن للمارة بلا كلل ولا ملل

معرفة كيفية حصوله على المال من ممارسة الدعارة، ويغشى دار البغايا مرة أخرى كالمومس.

يشير شخص ما إلى أن اللافتة مكتوبة بلغة سوقية ومبتذلة، يتقبل (لي) ذلك الانتقـــاد برحابة الصدر، ويصحح لغة اللافتة، ويشرح للمارة قائلا:

«إنها لغة ثقافتي».

احتجـــاج (لي) طويل الأمد ســبّب صراعا بلا نهاية لكل من رئيـــس مصلحـــة الأمن العام ونائبـــه، اللذين يريـــان (لي) يرفع اللافتـــة كل يوم ويقف أمام البوابة الكبـــرى، وبات ذلك مصدراً للإزعاج حقـــا، وبخاصة عندما قامت القيـــادة العليا بالتفتيش وتقصي الحقائق، وقدمت استجوابا لهما عن:

«ماهية رمز الرجولة في اللافتة خارج البوابة؟».

وبعد أن يعقـــد رئيس مصلحة الأمن العـــام ونائبه اجتماعا للتشـــاور، قررا نقل تشـــانغ غانغ من عمله في تلك المصلحة إلى نقطة بوليس محلي، وتبع ذلك نقل هذه المشكلة إلى نقطة البوليس نفســـها أيضا. وبعـــد انقضاء عام، لا يكف مأمـــور تلك النقطة ونائبه عن الشـــكوى، ويهرولان إلى مصلحة الأمن العام أكثر من مرتين في الأســـبوع ويقدمان هدايـــا إلى رئيس المصلحة ونائبه، كما يبثان لهما شـــكواهما، ويقولان إن نقطة البوليس قد عجزت عـــن أن تعمل بصـــورة طبيعية. رئيس المصلحـــة ونائبه يتفهمان هموم المرؤوســـين، ويقرران نقل تشانغ غانغ من عمله إلى سجن الموقوفين، وكذلك نقل مشـــكلته إلى ذلك الســـجن أيضا. وبعد أن عانى مدير ســـجن الموقوفين ونائبـــه من الصراع لمدة عامين، يرفعان تقريرا إلى رئيس المصحلة ونائبه، ذكرا فيه أن مشـــكلته

الخاصة تحدث قلاقل طوال اليوم خارج سجن الموقوفين، وفقد القانون هيبته، ويشعر مدير السجن ونائبه بأنهما تحملا كثيرا من المعاناة طوال عامين، ويجب نقل هذه المشكلة إلى مكان آخر. يشعر رئيس المصلحة ونائبه بأن سجن الموقوفين ليس سهلا حقا، وأن مشكلةمن هذه النوع يجب نقلها إلى مكان آخر فعلا. ولكن لا يوجد مدير سجن للموقوفين يرغب في قبول تشانغ غانغ يعمل لديه، ويقولون إن حضور تشانغ غانغ يتبعه بالضرورة مشكلته الخاصة برمز الذكورة.

تشانغ غانغ يدرك أن سجن الموقوفين يسعى إلى طرده، كما لا توجد نقطة بوليس ترغب في قبوله للعمل لديها، كما أنه لا يرغب في المكوث بسجن الموقوفين، وعرج على مصلحة الأمن العام لمقابلة رئيس المصلحة، وقدم طلبا من أجل أن يعود إلى عمله في المصلحة. رئيس المصلحة يصغي إلى كلام تشنغ غانغ، ويلتمع في ذهنه - أولا - عودة مشهد اللافتة أمام بوابة المصلحة والجلبة الناجمة عن ذلك. رئيس المصلحة يطرق رأسه ويمعن في الأمر، ويسأل تشانغ غانغ إذا كان يعتزم أن يغير عمله أم لا؟ ويسأل تشانغ غانغ أي عمله أبدله؟ ويقترح رئيس المصلحة أن يستقيل تشانغ غانغ من عمله، ويدير حانوتا صغيرا وخلافه. ويقول رئيس المصلحة إذا تخلص تشانغ غانغ من الشرطة، فربما مشكلة انعدام رمز ذكورته لم تعد تطارده مرة أخرى. يبتسم تشانغ غانغ ابتسامة صفراء ويخبر رئيس المصحلة بأن أمامه خيارين، أولهما: قتل صاحب المشكلة، وثانيهما: أنه يقف أمام البوابة الكبرى لمصلحة الأمن العام، ويرفع لافتة عودته إلى العمل على غرار اللافتة السابقة. والدموع تخضب عينيه بعد

أن يفــرغ من كلامه. يعرب رئيس المصحلة عن تعاطفه الشــديد مع تشــانغ غانغ من جراء المعاناة التي ألمــت به، وبالإضافة إلى ذلك رئيس المصحلة يحــال إلى التقاعد قريبا، وبعد إحالته إلى المعــاش لا يعير اهتماما للقلاقل الناجمة عن تلك المشــكلة أمام بوابة الأمن العام. ينهض رئيس المصلحة واقفا ويمشي إلى جوار تشانغ غانغ، ويربت على كتفه، ويقول:

«ارجع إلى عملك في المصلحة».

يعود تشانغ غانغ إلى عمله في مصلحة الأمن العام، ولم يكن في الحســبان - في هذه المرة - أن المشــكلة السابقة لم تطارده هناك، وبعد انقضاء شــهر من عودته إلــى العمل في المصلحة، وعندما يراه الموظفون في الأقســام الأخرى مازالوا يعتقدون أنه ينجــز بعض الأعمال في المصلحة، ولم يدر بخلدهم أنه عاد إلى عمله، ويســألونه عــن تردده الدائم علــى المصلحة، وماذا جرى في ســجن الموقوفين؟ ويخبرهم تشانغ غانغ بأنه عاد إلى عمله. والدهشــة تلجــم هؤلاء الموظفــين ويقولون لماذا لــم نر اللافتة مجدداً خارج البوابة الكبرى؟ كما يشــعر رئيس المصلحة ونائبه بالدهشــة أيضا، وعندما كانا يعقــدان اجتماعا ذات مرة، نائب رئيس المصلحة لم يعد يستطيع الاحتمال، ويقول:

«ما حكاية تلك اللافتة أمام مدخل المصلحة؟».

وعلى الرغم من اختفاء هذه اللافتة، ولكن تشانغ غانغ ما زال مرتبــكا حائرا إلى حد ما، وعندما يذهــب إلى الدوام والانتهاء منــه، لا ترتــد عيناه عن النظر نحو مدخــل المصلحة ليتأكد أن (لــي) ليس موجودا، حتى يطمئن قلبــه المعلق بين ضلوعه. وفي البداية، يخشى تشانغ غانغ من أن (لي) ربما أصابه مرض، وبعد

أن يشفى من مرضه يأتي إلى مدخل مصلحة الأمن العام ويثير الاضطرابات. وعلى كل حال، انقضت ثلاثة شهور، ونصف سنة أيضا، وأخيرا، لم تظهر اللافتة أبدا. وفي نهاية المطاف، يستريح تشانغ غانغ قليلا، ويشعر بأنه يستطيع أن يبدأ عمله وحياته بصورة طبيعية.

بعد انقضاء سنة وأكثر، وعندما أسدل الموظفون في مصلحة الأمن العام ستارة النسيان على اللافتة المشينة، يظهر (لي) أمام عيونهم. وفي هذه المرة لم يرفع لافتة «أعيدوا إليّ رجولتي»، بل يحمل على ظهره حقيبة سوداء وينطلق إلى الأمام، حرس المدخل في تلك المصلحة يرى هذا الشبح يمر بجانبهم وتلمس كتفه مركبة كبيرة تتطلق من الداخل، وينادي عليه عدة مرات، ويسأله ماذا يفعل هنا؟ ولم يدر رأسه. يقول:

«نتحدث عن العمل».

حرس المدخل ينادي: «تعال، وسجل اسمك».

ما كاد حرس المدخل ينتهي من كلامه حتى يندفع (لي) إلى مبنى مصلحة الأمن العام، ويجتاز الممر، ويسأل رجل شرطة هناك عن مكتب تشانغ غانغ، يقول الشرطي إن تشانغ غانغ في الدور الخامس غرفة رقم (503)، وبعد ذلك يشعر بأن (لي) مألوف لديه، ولم يتذكر اللافتة أمام مدخل تلك المصلحة التي يعرفها القاصي والداني منذ أربع سنوات. ولم يركب (لي) المصعد، بل يصعد السلم على امتداد المصعد، وذلك خشية أن يفتضح أمره في المصعد من قبل الآخرين، ويصعد إلى الدور الخامس، وعندما يدخل الغرفة رقم (503)، كان هناك أربعة من رجال الشرطة يجلسون في الداخل، ويتعرفون على تشانغ غانغ

من النظرة الأولى، ويفتح الحقيبة الســوداء، ويتقدم إلى الأمام، وينادي بصوت عال:

«تشانغ غانغ».

تشـــانغ غانغ يكتب على الطاولة، ويرفع رأســه، ويتعرف على ملامح (لي)، وعندما ينظر إليه بعين الشــك والارتياب، يســتل (لي) من الحقيبة السوداء ســكينا طويلا ويقطع بها رقبة تشــانغ غانغ، ويتدفق الدم كالنافورة، ويمســك تشانغ غانغ رقبته بيده بقوة، ويســند جســمه على الكرســي وهو خائر القوى، ويئن في التو أنينا مؤلما مرتين، وتخترق السكين لبــان صدره. في هــذه الأثناء، يأتي رجال الشــرطة الثلاثة الآخــرون للتعامل مــع الحادث، ويندفعــون مهرولين، وينزع (لي) الســكين من لبان صدر تشانغ غانغ ويلوح بها في وجه هؤلاء الشرطة الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وحماية حياتهم باســتخدام أذرعتهم، ويشاهدون حمام الدم المتدفق من قطع الرقبة، ويلوذون بأذيال الفرار إلى الممر، ويصرخون بصوت عال:

«أمسكوا القاتل، اقبضوا على القاتل..».

يعم الهرج والمــرج الطابق الخامس في مصلحة الأمن العام، وجسد (لي) ملطخ بالدم من رأسه إلى أخمص قدمه وهو يطعن بالســكين رقبة تشــانغ، (لي) يطعن بالســكين تارة، ويلهث تارة أخــرى. ويهرول إلى مكان الحادث رجال الشــرطة في الطوابق الأخرى، ويلوح عشرون شرطيا ونيفا بالهراوات الكهربائية حتى تمكنــوا من كبح جماح (لي) الذي يســند جســمه على الحائط بلا حول ولا قوة.

يودع تشـانغ غانغ دنيانا في سيارة الإسعاف التي نقلته إلى المستشـفى، أما القاتل (لي) فقد حكم عليه بالإعدام بعد مرور نصف سنة.

قضيـة القاتـل أحدثت جلبة في مدينتنا، ودارت مناقشـات مشوشـة ومتعددة بـين قاطنيها الذين ذكروا أن رجال الشـرطة هؤلاء يستعرضون عضلاتهم في المدينة، وهم في الواقع نفايات، ورجل بلا رجولة استطاع بسهولة مثل شرب الماء أن يقتل شرطيا بقطع رقبته، ناهيك عن إصابته تسـعة من رجال الشرطة أيضا، من بينهم شـرطيان إصابتهما بالغة. وإذا اسـتبدلناهم بثلة من الرجال الأسـوياء يحولون مصلحة الأمن العام إلى ميدان تتناثر فيه الأشلاء. ورجال الشرطة في تلك المصلحة لم يذكروا بصورة كاملة ما دار في المناقشات، وقالوا إنهم لم يعرفوا أن (لي) حضر إلـى المصلحة بغرض القتـل، وإلا لألقوا عليه القبض في الحال. وهناك شرطي يخبر نفرا من أصدقائه بأن الذين يحملون حقائق سـوداء على ظهورهم في العادة، ويحضـرون إلى المصلحة يكون ذلك بغرض إرسـال هدايـا، ولم يخطر على بـال أحد أن ذلك الشخص (لي) لم يستل هدية من حقيبته، بل سكين قتل.

ولأكثر من عشـر سـنوات فيما بعد، يبذل أبوا تشانغ غانغ جهودا مضنية دائما من أجل أن يظفر ابنهما بلقب الشهيد.

مصلحـة الأمن العـام - بادئ ذي بدء - لم توافق، والسـبب في ذلك أنـه عندما مات ابنهما لم يكن على رأس العمل. وأبواه يسـيران على درب طويل جدا من الشكوى، ففي البداية يذهبان إلى مكتب الأمـن العام في المقاطعة، وبعـد ذلك، يعرجان على وزارة الأمـن العـأم في بكين، ومكتب الأمن العـام في مدينتهما

يشـــعر بصداع شديد لا ينتهي من جراء شكواهما، وأثناء انعقاد مؤتمريــن فــي بكين في غضون عــام واحد، يقفــان في ميدان تيان آنمين (الســلام الســماوي) في بكين ويرفعان لافتة يطلبان فيها الاعتراف بابنهما الشــهيد، مما جعــل الجهات المعنية في بكــين تنفجر غضبا، ووجهت انتقادات لاذعة للجهات المعنية في المقاطعة والمدينة، ويضطر مكتب الأمن العام في المدينة لأن يرفع تقريرا إلى القيادة العليا يطلب فيه الاعتراف بالشــهيد تشــانغ غانغ. ومكتــب الأمن العام في المقاطعة يرفــع تقريرا إلى بكين التــي لا ترد خطيا أبدا. ولا يزال الأبوان يصران على الشــكوى بصورة مستمرة، ولا سيما أثناء انعقاد مؤتمرين في بكين، ناهيك عن انعقاد مؤتمر ممثلي نواب الشعب، ويقفزان في القطار المتجه إلى الشمال، ولكن يتم إيقافهما في كل مرة في منتصف الطريق، ثم حبســهما في فندقين مختلفين حتى ينتهي انعقاد المؤتمرات في بكين، وبعد ذلك يتم إطلاق سراحهما. وقصة شكوى الأبوين وكفاحهما من أجل أن يحصل ابنهما على لقب شــهيد انتشــرت على شــبكة الإنترنت، وبعد ذلك، لم تعد ترسل المدينة أشخاصا يوقفــون الأبويــن وحبســهما. وفي عبــارة أخــرى، إنها غيرت أسلوبها، حيث ترسل أشــخاصا يصطحبوهما في السياحة بين الجبال والأنهار والمناظر الطبيعية الخلابة، ويســتطيعان التمتع والمــرح حتى يتمكن القادة من الاســتمتاع بالأمــوال العامة في الســياحة. وبعد أن يشهد الأبوان طريقا طويلا من الشكوى دون التوصل إلى نتيجة يتحول بأســهما إلى حالة من اللهو والتسلية، ويقدمان شــكواهما إلى مســؤولي المدينة قبل الفترة الحاسمة لانعقــاد المؤتمرات، ويبديان رغبتهما في القيام بجولة ســياحية

في المناطق ذات المناظر الشـــهيرة، والتي لـــم تطأها أقدامهما. الجهات المعنية في المدينة تضج بالشـــكوى بســـبب ذلك، وتقول إنهـــا أنفقت أكثـــر من مليون يوان صينـــي تقريبا على الرحلات السياحية للأبوين في غضون عشر سنوات ونيف.

اليوم الخامس

والــدي الذي أبحث عنه موجود هنا؛ في وســـط جماعة من الهيــاكل العظمية. وينتابني شــعور مدهش حيث إنه على الرغم من أن آثــاره هنا تظهر وتختفي مثل صــوت الأوز البري، ولكن مشـــاعري كانت مثل الشعر الذي تداعبه النسائم، وأدركت حتى لــو كان والدي يقف في المقدمة، فأنــا لا أتعرف على ملامحه، ولكنــه يســـتطيع أن يتعرف عليّ مــن النظرة الأولـــى. وقابلت هياكلهم العظمية التي تمشي في جماعة حيناً، وفي تسعة أفراد حينًا آخر، وأقف أمامهم وأقدم عرضا لنفســـي، وأتطلع بشغف لأن ينبثق من بينهم صوت ينادي اسمي:

«يانغ فيي؟».

وأدرك أن هذا الصوت سيكون غريباً على غرار صوت زوجتي لي تشــينغ على هذا النحــو. وعلى كل حال، أســـتطيع أن أميز صـــوت والدي من بين كل الأصــوت، ويتحلى صوت والدي دائماً بالحنو والود في عالم هذه الدنيا، ويجب أن يكون هذا في عالم الآخرة أيضًا.

أتجول في كافة الأصقاع ولم أجد شبح قبر، وهذه الأشباح التـــي تعجز عن الوصول إلى أرض الراحـــة الأبدية تنتقل من مكان إلى آخر كأنها أشجار متحركة، أشجار متناثرة ومبعثرة

طوراً، وأشـــجار مجتمعة محتشـــدة تارة أخرى كأنها أحراج، ونمشي بين صفوفهم كأننا نمشي في غابة قطعت أشجارها. وأتطلع إلى ســماع صوت والدي في الأمــام، في الخلف، في الجانب الأيســر، في الجانب الأيمن، أتطلع لأن يهتف والدي وينادي اسمي.

أقابل - بين حين وحين - أناساً يضعون على أذرعتهم شرائط قماشية سوداء، وتبدو الأكمام التي تغطيها تلك الشرائط خاوية على عروشها، وعرفت أنهم جاؤوا هنا منذ ردح طويل، وأكمامهم خاوية من اللحم، ولم يظهر منها ســوى الهيكل العظمي. أتبادل معهم النظرات والضحكات، ولا ترتسم الابتسامات على وجوههم، بل تنطلق من تجويــف عيونهم لأن وجوههم طالحة متجهمة من الهيــكل العظمي مثل الحجــر الصلب، بيد أنني شــعرت بتلك الضحكات النابعة من القلب لأننا جميعاً بشر، وفي العالم الآخر لا يوجد إنسان يضع شريطاً قماشياً أسود على ذراعه من أجلنا، ونحن بأنفسنا ننعى أنفسنا.

هناك شـــخص يضع شريطا قماشيا أسود على ذراعه ويلفت انتباهه تعابير البحث عن والدي في عيوني، ويقف أمامي، وأرى ملامـــح هيكله العظمي، ويوجد تجويـــف صغير جداً في جبهته، ويصدر صوتا وديا.

ويسألني: «أأنت تبحث عن إنسان؟» ويردف: «أنت تبحث عن شخص واحد، أم تبحث عن بضعة أفراد؟».

أجيب: «أبحث عن رجل واحــد، أبحث عن والدي ربما يكون موجودا هنا».

«أأنت تبحث عن والدك؟».

«اسمه يانغ جين بياو».

«اسمه هنا غير ذي جدوى».

«يبلغ من العمر ستين عاما ونيفا..».

«أعمار البشر هنا لا يمكن أن تعرفها».

أرى الهياكل العظمية التي تمشي وتتحرك في الأماكن القريبة والنائية لا يمكن أن نقدر أعمارهم حقاً.

تستطيع عيني أن تميز فقط بين البشر من ذوي القامات العالية والقصيرة، والضخم والنحيف، وتستطيع أذني أن تميز فقط بين أصوات الرجال والسيدات، والعجائز والصغار.

وتذكرت أن والدي في الآونة الأخيرة كان ضعيف البنية وسقيم الجسم، وأقول: «قامته تبلغ متراً وسبعين سنتيمترا، وشكله نحيف جداً..».

«البشر هنا أجسادهم واهنة ونحيفة جدا».

أرى هؤلاء البشر النحيلين الذين لا يمتلكون سوى الهيكل العظمي، ولا أعرف كيف أصف ملامح والدي!

ويسألني: «أأتذكر الملابس التي كان يرتديها والدك عندما جاء هنا؟».

أخبره قائلا: «البزة النظامية للسكة الحديدية، البزة النظامية الجديدة للسكة الحديدية».

«كم من الوقت مضى على حضورك؟».

«عام ونيف».

«رأيت بزة أخرى، ولم أر البزة النظامية للسكة الحديدية».

«ربما هناك أناس آخرون رأوا البزة النظامية للسكة الحديدية».

«أنا هنــا منذ فترة طويلة جــدا، ولم أر تلــك البزة، وكذلك الآخرون».

«ربما يكون بدّل ملابسه».

«قلة قليلة التي تبدل ملابسها وتأتي هنا».

«أشعر أنه موجود هنا».

«إذا لم تعثر عليه، فمن المحتمل أنه ذهب إلى القبر».

«ليس عنده قبر».

«لا يمتلك قبرا، ولا بد أنه ما زال هنا».

فــي تجوالي وتطوافــي بحثا عن والدي، أمشــي إلى أمام تينك الهيكلين العظميين بلا شــعور، وهما يجلســان الأربعاء على العشــب مثل تمثالين يركزان انتباههما على هذا النحو، وما زال جســداهما على حالهما، غيــر أن أياديهما تتحركان وتضطلعان بنقل قطع الشــطرنج بصورة مستمرة. لم أر رقعة الشــطرنج، ولم أر قطعة الشــطرنج أيضاً. ولكن رأيت فقط أياديهما التي هي عبارة عن هيكل عظمي تلعبان الشــطرنج، ولم أدرك -من خلال مشاهدتي- إذا ما كانا يلعبان الشطرنج أم يلعبان ويتشي[1].

هنــاك يــد ذات هيكل عظمي تضــع قطعة الشــطرنج تواً، وتأخذها أيضاً في الحال، ويمسكها بإحكام شديد يدان أخريان هيكلهما عظمي أيضاً. ويصيح صاحبا هاتين اليدين، ويقولان:

«لا يمكن القيام بمحاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج».

كمــا يصرخ صاحب اليد ذات الهيــكل العظمي أيضاً ويقول: «أنت تحاول التراجع عن لعبة في الشطرنج أيضاً».

(1) نوع من الشطرنج الصيني. [المترجم]

«أنا تراجعت عن اللعبة لأنك فعلت ذلك من قبل».

«أنــا تراجعت عــن اللعبة من قبل لأنك فعلــت ذلك من قبل كثيراً».

«أنا تراجعت عن اللعبة قبلك منذ زمن لأنك فعلت ذلك أمس».

«وأنــت - أولاً- تراجعت عن اللعبة أمس، ثم أنا تراجعت عن اللعبة بعدك».

«وأنت تراجعت عن لعبتك أولاً في أمس الأول».

«ومن تراجع أولاً عن اللعبة قبل أمس الأول؟».

يتعــارك هذان الشــخصين بلا توقف، ويتبــادلان الاتهامات بمحاولة كل طرف التراجع عن اللعبة في الشــطرنج، ويتقصيان أسباب تلك الاتهامات، ويستهجن كل طرف طريقة حساب الزمن فــي محاولة التراجع عن اللعبة في الشــطرنج، وبدأت من عدد الأيام إلى عدد الشهور، ومن عدد الشهور إلى السنة.

يصرخ صاحبا اليدين من الهيكل العظمي: «هذه الطريقة في لعب الشــطرنج لا يمكن أن تجعلك تتراجع عن اللعبة، وأنا كنت على وشك الفوز حالاً».

يقــول أحدهما: «وأنا كنت على وشــك التراجــع عن اللعبة أيضاً».

«أنا لا ألعب معك الشطرنج».

«وأنا لا ألعب معك الشطرنج أيضاً».

«وأنا لا ألعب معك الشطرنج إلى الأبد».

«وأنا من زمن بعيد لا أحب أن ألعب معك الشطرنج».

«وأنا أخبرك بأنني أريد الانصراف، وأغشى المحرقة غدا، ثم أذهب إلى قبري».

«أعتــزم الذهاب إلى المحرقــة منذ زمن بعيــد، وأرغب في الذهاب إلى القبر منذ زمن بعيد أيضاً».

أقطع شجارهما، وأقول: «أعرف قصتكما».

يقول أحدهما: «جميع البشر هنا يعرفون قصتنا».

يصحح الصاحب الآخــر أقوال زميله، ويقــول: «ربما الذين حضروا حديثا لا يعرفون قصتنا».

«قصتنــا اختلط فيها الحابل بالنابل في الشــوارع الرئيســة بسبب أن هؤلاء القادمين حديثاً لا يعرفوننا».

«قصتنا معلومة للجميع وتستخدم لغة ثقافتنا».

أقول: «كما أعرف أيضاً العواطف الودية بينكما».

«أي عواطف ودية وصداقة؟».

ينخرطان في نوبة ضحك صاخبة.

سأل أحدهما الآخر: «ما العواطف الودية؟».

يجيب الآخر: «لا أعرف».

يرفعان رأسيهما وهما ينهمكان في الضحك، ويحملقان في وجهي من تجويف عيونهما، وسألني أحدهما: «أأنت حضرت هنا حديثاً؟».

لــم أقدم إجابة، ويبادرني الآخــر، ويقول: «إنها تلك الروابط الجميلة».

يحني الهيــكلان العظميان رأســيهما، ويســتمران في لعب الشطرنج وهما يضحكان ويحدثان جلبة وضوضاء كأن لم يحدث بينهمــا عراك توا، ولم يحاول أي منهمــا التراجع عن لعبته في الشطرنج في الحال.

يلعبان الشطرنج فترة وجيزة، ويرفع أحدهما رأسه ويسألني: «أأنت تعرف اسم الشطرنج الذي نلعبه؟».

أحملــق في حــركات أياديهمــا في لعب الشــطرنج، وأقول: «الشطرنج الصيني».

«خطأ، شطرنج ويتشي».

ثم يســألني الآخر: «أأنت تعرف اســم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «طبعا، إنه شطرنج ويتشي».

«خطأ، نحن نلعب الشطرنج الصيني».

ثــم يســألني الهيــكلان العظميان فــي آن واحد: «ما اســم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «ليس شطرنج ويتشــي، إذن، يكون الشطرنج الصيني بالتأكيد».

يقولان: «خطأ أيضاً، نلعب الشطرنج الخماسي».

يضحك الهيكلان العظميان من قلبيهما، ويضطلعان بحركات متشابهة تماماً؛ حيث يمسك كل منهما بطنه بيده بإحكام، واليد الأخرى يضعها كل منهما بجوار كتف زميله. الهيكلان العظميان يهتزان بصورة مستمرة من قوة الضحكات مثل شجرتين جافتين يابستين تتقاطعان وتهتزان في خضم الريح.

ينهمــك الهيــكلان العظميان فــي لعب الشــطرنج بعد نوبة الضحك والقهقهة، ولم يمض وقت طويل وما لبثت المشــاحنات أن ظهرت بينهما بســبب محاولة التراجع عن لعبة الشــطرنج، وشــعرت أنهمــا يلعبان الشــطرنج من أجل العراك والشــجار، إنهما تاريخ تبــادل الاتهامات في محاولات التراجع عن الألعاب في الشــطرنج، وتكمن ســعادتهما القصوى في إماطة اللثام عن مســاوئ الآخر فــي التراجع عن لعبة في الشــطرنج، ويتبادلان

الاتهامات منذ سبع سنوات خلت، وقد عيل صبري، وأدركت أنني سوف أنتظرهما سبعة أعوام أو ثمانية في هذا العراك، ولذا قاطعتهما قائلاً:

«أنتما الاثنان: من منكما يدعى (تشانغ غانغ)؟ ومن يدعى (لي)؟»، وترددت قليلاً، وشعرت بأنه ليس من المناسب أن أقول (الرجل لي) كما ذكرت الصحف وقتئذ، ثم أقول: «من المستر (لي)؟».

«من المستر (لي)؟».

بعد أن يتبادلا النظرات، ينخرطان في نوبة قهقهة وضحك.

ثم يقولان: «أنت تخمن من (لي)؟».

أتفرس في وجهيهما بدقة، وهيكلاهما العظميان متشابهان تماماً، وأقول: «لا أستطيع التخمين، أنتما تشبهان التوأمين».

«توأمان؟».

ينهمك الهيكلان العظميان في نوبة قهقهة مرة أخرى، ثم يستأنفان لعب الشطرنج في انسجام تام، وتبددت كالدخان المشاحنات التي نشبت بينهما كالعاصفة الرعدية توا والتي قاطعتها، ثم يعودان إلى ألاعيبهما القديمة، ويسألني: «أأنت تعرف الشطرنج الذي نلعبه؟».

أقول في نفس واحد: «الشطرنج الصيني، شطرنج ويتشي، الشطرنج الخماسي».

يقولان: «خطأ، نحن نلعب لعبة الداما الصينية[1]».

ينخرطان في نوبة ضحكات عالية مرة أخرى، وأنظر إليهما مرة أخرى، وأجدهما يقومان بالحركات نفسها حيث يمسك كل

(1) رقعة شطرنج من حجر الداما. [المترجم]

منهمــا بطنه بيده بقوة، ويضع كل منهما يده الأخرى بجوار كتف زميله، ويهتز الهيكلان العظميان بإيقاع منتظم.

وأنخرط في الضحك أيضاً، ومنذ عشر سنوات خلت، حضرا إلى هنا وتفصل بينهما نصف ســنة، والعــداوة بينهما لا تتجاوز الخــط الفاصل بــين الحياة والموت، إنها العــداوة التي تعرضت للإعاقة في عالم هذه الدنيا.

* * *

أدور فــي حلقة مفرغة مــن جهودي الرامية إلــى البحث عن والدي، ويشبه ذلك عقارب الساعة التي تدور دورة تلو الأخرى ولا تتجاوز نطاق الساعة البتة. وأنا أيضاً لا أعثر على والدي أبدًا.

قابلت ثللاً من البشر من ذوي الهياكل العظمية مرات عديدة، وهناك العشرات الذين لا يشــبهون الهياكل العظمية، يجتمعون ويتكتلون حيناً، ويتفرقون ويتبعثرون أحياناً أخرى، ويمشــون في دائرة مســتديرة فــي نهاية المطاف. وذلك مثل الماء فوق ســطح القمــر، وأياً كانت حركة المد والجزر بــين الأمواج، فإن القمر - دائماً وأبداً - يتهادى وكروي الشكل.

تسمرت أقدامي عندما قابلتهم في المرة الرابعة، كما تسمرت أقدامهــم أيضاً، ونتبــادل النظرات الفاحصــة المتأملة، وتتعانق أياديهم وتتلاحم أجسادهم، ويتجمعون سوياً مثل شجرة ضخمة ناضــرة، وفروعها متباينة تتفــاوت في الارتفــاع والانخفاض. وأدرك أنه يوجد بينهم رجال ونســاء، وعجائز وأطفال، وأبتسم في وجوههم، وأخاطبهم قائلاً:

«أهلاً بكم!».

«أهلاً بك!».

ســمعتهم يجيبــون بصوت واحــد، وهناك أصــوات للرجال والنســاء، وأصوات هرمة، وأصوات غضة، كما شــاهدت بوادر الضحك تنبثق من داخل تجويف عيونهم.

وسألتهم: «كم عددكم؟».

ما زالوا يجيبون بصوت واحد: «ثمانية وثلاثون فرداً».

وأواصل أسئلتي: «لماذا أنتم مترافقون معاً دائماً؟».

يجيب صوت رجل: «حضرنا هنا معاً».

صوت نسوي يكمل الكلام: «نحن أسرة واحدة».

ينبثق من بينهم صوت طفل، ويقول: «لماذا أنت بمفردك هنا؟».

أحني رأسي وأرنو إلى الشريط القماشي الأسود على ذراعي، وأقول: «لست وحيداً هنا، أنا أبحث عن والدي الذي يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

كما ينبثق صوت من بين جماعة من الهياكل العظمية أمامي، ويقول: «لم نر رجلاً يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

أقول: «ربما بدل ملابسه وجاء إلى هنا».

كمــا يدوي صوت عذب لطفلة، وتقــول: «بابا، هل هو حضر حديثاً؟».

تقول أصوات الرجال: «نعم».

تســتمر الطفلة في التســاؤل، وتقول: «مامــا، هل هو حضر حديثا؟».

تقول أصوت النساء: «أجل».

أسأل الطفلة: «هل هم جميعاً آباء وأمهات؟».

تجيــب الطفلة: «نعم، في الماضي كان عنــدي أب وأم، والآن عندي الكثير من الآباء، والعديد من الأمهات».

وسألني الطفل توا: «لماذا حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «بسبب كارثة حريق».

يسأل الطفل الهياكل العظمية بجواره: «لماذا لم تحرقه النار؟».

أشعر بأنهم يحملقون في صمت تام، وأقدم شرحاً لذلك، وأقول: «عندما رأيت اندلاع النار، وسمعت صوت الانفجار يدوّي، يبدو أن المباني السكنية انهارت».

تسأل الطفلة: «أأنت لقيت حتفك تحت الأنقاض؟».

«ربما».

يقول طفل: «وجهك تحرك من مكانه».

«أجل».

تسألني الطفلة: «هل نحن جميلون؟».

أشعر بالارتباك وأحدق في الهياكل العظمية الواقفة أمامي وعددها ثمانية وثلاثون هيكلاً عظمياً، ولا أعرف كيفية الإجابة على سؤال الطفلة الواضح.

تقول الطفلة: «يقول البشر هنا إننا نزداد جمالاً أكثر فأكثر».

يقول الطفل: «نعم نزداد جمالاً هكذا، ويقولون إن البشر الذين يأتون هنا يزدادون قبحاً يوماً بعد يوم، غير أننا نزداد جمالاً أكثر فأكثر».

أتردد هنيهة، وأستطيع فقط أن أقول: «لا أعرف».

صوت عجوز يدوي بين صفوفهم، ويقول: «لقد احترقت أجسادنا في كارثة الحريق، والذين جاؤوا هنا يشبهون ثمانية وثلاثين عموداً من الفحم، ثم تساقطوا قطعة قطعة بعد حرقهم، وبدوا للعيان في منظرهم الحالي. ولذا البشر هنا يتفوهون بمثل تلك الكلمات».

يشـــرح ذلك العجوز لي معاناتهم، ويســـمع الســـبعة والثلاثون الآخرون إلى حديثه في صمت مطبق. وأنا أعرف أصلهم وفصلهم، وفي ذاك اليـــوم الذي انصرف فيه والدي بلا اســـتئذان، اندلعت النيـــران بصورة فجائية فـــي متجر ضخم يقع علـــى بعد أقل من كيلـــو متر من الحانوت الصغير الذي كنت أمتلكه، وتحوّل لون ذلك المتجر مـــن اللون الفضي الرمادي إلى اللون الأســـود الفاحم مثل الفحـــم النباتي. وذكرت الإدارة البلدية أن ضحايا الحريق ســـبعة أشخاص، والجرحى بلغ عددهم واحداً وعشرين مصاباً، من بينهم اثنـــان إصابتهما بالغة. ويذكر أناس على شـــبكة الإنترنت أن عدد الضحايا تجاوزالخمسين، بينما يرى آخرون أن العدد تجاوز المئة. أرنو إلى الهياكل العظمية الواقفة أمامي وعددهم ثمانية وثلاثون، وقد حسموا من أعداد الضحايا، ولكن أين أقاربهم؟

أقول: «لماذا اختفى أقرباؤكم أيضاً؟».

يجيب الرجل العجوز: «تعرضوا للتهديد، وحصلوا على أموال مقابل تكميم أفواههم، ولقد رحلوا عن الدنيا، ولم يبق هناك إلا الأقارب الأحياء يســـتطيعون أن يعيشـــوا حياة هادئة ومطمئنة، ولذا نشعر بالرضا».

«أين الأطفال؟ وآباؤهم وأمهاتهم..».

يقاطع العجوز كلامـــي ويقول: «الآن نحن آباء وأمهات لهؤلاء الأطفال».

وبعـــد ذلك يمـــرون أمامي في صمـــت مطبق، وأجســـامهم متلاصقة ومتلاحمة، وأياديهم يســـحب بعضها بعضاً، ويسيرون في دائرة مستديرة، ولا تستطيع ريح عاتية أن تفرق شملهم.

* * *

أشاهد شخصين جسـداهما في حالة سليمة، ويخرجان من غابة أشـجار التوت ذات الأغصان المتشـابكة والظلال الوارفة في ذاك الجانب. إنهما رجل وامرأة في لباسـيهما ومداسـيهما البسـيط، ولا شيء يستحق الذكر على جسـديهما سوى قطعة قماش ليسـت بملابس، بل هي غطاء للجسد. وعندما يقتربان أرى بجلاء امرأة ترتدي سـروالاً نسـوياً تحتانياً قصيراً أسود، وصدارة، أما الرجل فيرتدي بنطالا قصيراً أزرق. ترتسـم على وجه المرأة أمارات الرعب والخوف، وتجمع شتات قوتها وتمشي، وتضـع يديها على فخذيهـا كغطاء لهما. والرجـل يحني ظهره ويسحبها على طول الطريق ويقوم على حمايتها.

يمشـيان ويصـلان أمامي، ويتفرسـان معالـم وجهي وكأن نظراتهما تبحث عن معالـم مألوفة في ذاكرتهما. ورأيت علائم اليأس تعلو وجهيهما رويدا رويدا، ويؤكدان أنهما لا يعرفانني.

يسألني الرجل: «أأنت حضرت حديثاً؟».

أومئ برأسـي وأسـألهما: «هل أنتما حضرتما حديثاً، وهل أنتما زوجان؟».

يطأطئان رأسـيهما في آن واحد، وتصدر المـرأة صوتاً يثير الشفقة والعطف، وتقول: «هل شاهدت ابنتنا في ذاك الجانب؟».

أهـز رأسـي، وأقول: «هناك أمـواج من البشـر، ولا أعرف ابنتكما».

المرأة تنكس رأسـها في حزن وألم، والرجل يربت على كتفها ويواسيها قائلاً: «لا يزال هناك أناس حضروا حديثاً».

المـرأة تكرر ما ذكرته تواً: «ولكن هناك أمواج من البشـر في ذاك الجانب».

يردف الرجل قائلاً: «دائماً يكون هناك من حضر حديثاً ورأى ابنتك شياو ميي».

«شـياو ميي؟» أشـعر بأنني سـمعت هذا الاسـم من قبل. وأسألهما: «متى حضرتما إلى هنا؟».

رهبـة خوف رفت علـى وجهيهما، وبعد ذلـك بمثابة ظلهما تسلل إلى هنا بعد أن اجتاز عالم هذه الدنيا. وعيونهما تتحاشى نظراتي، وربما الدموع تخفي نظراتي.

بعد ذلك، يشـرح الرجـل قصة تلك المعانـاة المخيفة، ويقول إنهمـا يقطنان في طريق (شـينغ فـه)، وتعتـزم الإدارة البلدية إزالـة تلك المباني السـكنية الثلاثـة، ويرفـض قاطنوها قرار الإزالة والانتقال إلى مسـكن آخر، ويتحـدون الإزالة والانتقال لمدة ثلاثة شـهور وأكثر، وفي ذاك الصباح المخيف شـهد حملة التنفيذ القسـري لقرار الإزالة. وهما زوجان (زوج وزوجة) بعد أن انتهيـا من الـدوام الليلي، يعودان أدراجهمـا إلى بيتهما في الصبـاح الباكر، ويوقظان ابنتهمـا، ويجهزان لها طعام الإفطار، وتحمل الحقيبة المدرسـية وتغشـى المدرسـة، وهما يغطان في نوم عميق. وسـمعا في نومهما صوتاً تحذيرياً من مكبر الصوت في الخارج، وهما يشـعران بالإرهـاق والتعب، وظلا في نومهما العميق، وقبل ذلك، كانا سمعا صوتاً تحذيرياً من مكبر الصوت، وشـاهدا وضعية الجرافة على أتم الاسـتعداد، وعلى كل حال، بعـد أن حدثت مجابهة مع قاطنـي المباني، يتراجع صوت المكبر وتتصـرف الجرافـة، ومن ثـم دار بخلدهمـا أن مكبر الصوت والجرافـة يهدفـان تخويفهما، ويواصـلان انهماكهما في النوم العميق. واستمرت هذه الحال، حتى دوى صوت عنيف من جراء

اهتزاز المباني السكنية، واستيقظا من نومهما مذعورين، وهما يقطنان في الطابق الأول، ويقفز الزوج من الفراش ويجر زوجته ويتجهان نحو الباب ويهربان، الزوج يفتح باب الغرفة، والزوجة تدير جسمها فجأة وتهرول إلى الأريكة وتأخذ ملابسها، والزوج يعود مسرعاً إليها ويجرها إلى الخارج، وتحدث المباني السكنية هديراً وتنهار.

الزوج الذي يسرد القصة صوته يتوقف بصورة فجائية عند هذا الحد، ويدوي صوت انتحاب وبكاء الزوجة.

«أسفاً ومعذرة، أنا آسفة..».

«لا تتفوهي بمثل تلك الكلمات».

«يجب عليّ ألا آخذ ملابسي..».

«فات الأوان، لا تأخذي ملابسك، فالوقت لا يتسع أيضاً».

«إذا لم آخذ ملابسي فأنت لا تعود إليّ مهرولاً، وتستطيع الفرار إلى الخارج».

«ألوذ بأذيال الفرار في الخارج، وماذا أنت تفعلين؟».

«أنت تلوذ بالفرار إلى الخارج، فإن والد شياو ميي ما زال على قيد الحياة».

عرفت من ابنتهما، إنها الطفلة التي ترتدي معطفاً أحمر محشواً بريش الطير وتجلس في ركام خرابة الخرسانة المسلحة، وتؤدي واجباتها المدرسية في الرياح الباردة، وتنتظر عودة أبويها. وأخبر الزوج والزوجة قائلاً: «لقد رأيت ابنتكما، واسمها جينغ شياو ميي».

يصيحان في آن واحد، ويقولان: « نعم، اسمها جينغ شياو ميي».

أقول: «وهي تدرس في الفرقة الرابعة بالمدرسة الابتدائية».

يقولان: «أجل»، ثم يسألان في عجالة: «كيف عرفتها؟».

أخاطـب الزوج قائلاً: «كانت بيننـا مكالمة هاتفية، وأنا المعلم الذي كان يقوم بالتدريس المنزلي لابنتك».

«أأنت المعلم يانغ؟».

«نعم، أنا يانغ فيي».

الزوج يخاطب زوجته: «إنه المعلم يانغ، وقلت له إن دخلنا ليس كثيراً، وهو وافق في الحال أن يقوم بالتدريس مقابل ثلاثين يوانا فقط لكل ساعة».

تقول الزوجة: «أشكرك».

أسمع هنا صوت الامتنان والشكر وأضحك ضحكة صفراء.

يسألني الزوج: «وأنت كيف حضرت إلى هنا أيضاً؟».

أجيب: «كنت جالسـا في مطعم، وحـدث انفجار بعد اندلاع النيـران في المطبخ، وأنا وأنتمـا جئنا هنا في نفس اليوم، وكنت متأخرا عنكما ببضع سـاعات. واتصلت بهاتفك الخلوي وأنا في المطعم، وأنت لم تستقبل المكالمة».

«لم أسمع رنين الهاتف الخلوي».

«أنت كنت تحت الأنقاض آنذاك».

الزوج يحدق في وجه زوجته، ويقول: «نعم، ربما تحطم الهاتف الخلوي أيضاً».

تسأل الزوجة في عجالة: «كيف حال ابنتي شياو ميي؟».

«اتفقنا علـى أن أذهب إلى بيتكما في السـاعة الرابعة بعد الظهـر، وعندما وصلـت وقتئذ، لـم أر أثراً للمباني السـكنية الثلاثة..».

وبعد ترددي، لم أخبرهما بإخفاء حقيقة الضحايا في حادث الإزالة القسرية للمباني في طريق (تشينغ فه) حيث كانا يقيمان هناك، وفكرت أنه تمت فبركة قصة أنهما الزوج والزوجة اللذان ماتـا في آن واحد من أجل الواجـب والصالح العام، وأن ابنتهما تحصـل على علبة وفاتهما المعبأة بـركام عظام آخرين، ثم تنمو وتشب عن الطوق وسط أكذوبة جميلة.

تسأل الزوجة مرة أخرى: «كيف حال شياو ميي؟».

أجيب: «في حالة جيـدة جداً، إنها أذكى طفلة رأيتها، وأنتما تسـتطيعان الشـعور بالطمأنينة، وهي قادرة على القيام برعاية نفسها بصورة جيدة».

تقول الزوجة وقلبها يعتصر حزناً: «عمرها أحد عشـر عاماً فقط، وكل مرة تغشى المدرسة، تتسمر أقدامها عند عتبة الباب، وتنـادي بابا.. ماما، وتنتظر حتى نرد عليها، ثم تقول: أذهب إلى المدرسـة، وتنتظر مرة أخرى حتى نسـمح لها بالخروج، آنذاك تستطيع أن تدلف إلى المدرسة».

يسأل الزوج: «ماذا دار بينك وبين ابنتي من أحاديث؟».

تذكرت أنني سـألتها إذا كانت تشـعر بالبرد أم لا في خضم الريح الباردة، وقالت إنها تشعر بقساوة البرد جداً، وطلبت منها أن تذهب إلى مطعم كنتاكي في مكان ليس بعيداً وتؤدي واجباتها المدرسية حيث تشـعر بالدفء داخله، وتهز رأسها وتقول عندما يعود بابا وماما لا يستطيعان العثور عليّ، وهي لا تعرف أن أبويها تحت ركام أنقاض المباني.

وبعـد ترددي مرة أخرى، أخبرتهمـا بذلك كله، وقلت أخيراً: «إنها تجلس فوق أشلائكما».

وشاهدت دموعهما تتدحرج في صمت مطبق على وجهيهما، وأدركــت أنها دموع لا تعرف الجفاف. كما تحجرت الدموع في عيوني، وأستدير بجســمي بسرعة وأنصرف، وبعد أن قطعت شوطاً قصيراً من الطريق، وكان صوت البكاء خلف ظهري مثل تدفق مياه البحيرة يحاول اللحاق بي بســرعة، وأســمع صوت بكائهمــا كأن ثلة من الأفراد تبكي. ويبدو أنني شــاهدت مياه البحيــرة تدفع تلك الطفلة التي ترتدي معطفاً أحمر محشــواً بريــش الطير إلى شــاطئ رملي، وبعد تراجع ميــاه البحيرة، وصلت هذه الطفلة بمفردها إلى طريق مسدود هناك في هذه الدنيا.

وشاهدت في عالم الآخرة مأدبة ضخمة. وعلى قطعة أرض من الأعشاب العطرية تنمو أشجار الفواكه المثمرة اليانعة، والخضار في ازدهار مطــرد، ومياه النهر تخر خريــراً مثل جدول يترنم. ويجلس الموتى كل واحد على انفراد في شــكل دائرة مســتديرة فــوق تلك الأعشــاب كأنهم يجلســون في حلقة حــول طاولات وليمة، وحركاتهم متعددة الألوان والأطياف، بعضهم يدفن رأسه ويلتهــم الطعام، وبعضهم يتذوق الطعــام ببطء، وبعضهم ينهمك في تجاذب أطراف الحديث، وبعضهم يدخن الســيجار ويحتسي الخمر، وبعضهم يرفع الــكأس عالياً ويتبادل الأنخاب، وبعضهم يتحســس بطنه بعد تناول الطعام.. كما شاهدت كوكبة من ذوي الأجســام الســليمة، فضلا عن ثلة من ذوي الهيــاكل العظمية يقومــون بحركات مكوكية بين هؤلاء الموتى، ويدلفون إلى الخارج وهــم يحملون الأطباق علــى راحات أياديهــم، ويصبون الخمر، وأدركت أنهم النُّدل يقومون على خدمة الموتى.

أدلف إلى المأدبة، ويستقبلني إنسان لم يبق منه سوى الهيكل العظمي، ويخاطبني قائلاً: «نرحب بحضوركم في مطعم تان جيا جين».

أصابتني الحيرة والدهشة عندما سمعت هذا الصوت الذي يشبه صوت الفتاة ويقول أطباق مطعم تان جيا جين، ثم سمعت صوتاً غريباً ينادي اسمي:

«يانغ فيي».

تساير نظراتي امتداد الصوت، وأرى صاحب المطعم (تان جيا جين) يخرج مسرعاً بخطوات عرجاء، وتضطلع يده اليمنى بحركة كأنه يحمل طبقاً على راحة اليد، وشاهدت علائم السرور والبهجة على وجهه؛ إنها تعابير الفرحة والغبطة التي لم أشاهدها في عالم الممات ذلك، وعندما قابلني يضحك في وجهي ضحكة صفراء. يمشي ويتقدم أمامي، ويقول في فرح وسرور:

«يانغ فيي، في أي يوم حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «أمس».

«حضرنا منذ أربعة أيام خلت».

وعندما يتحدث (تان جيا جين) تكون يده اليمنى في وضعية حمل طبق على راحة اليد.

ويدير رأسه وينادي زوجته وابنته وصهره، ينادي أسماءهم بصوت عال، وينقل إليهم فرحته وغبطته، ويقول:

«حضر يانغ فيي».

شاهدت زوجة تان جيا جين وابنته وصهره يقبلون نحوي، وحركات أيديهم في وضعية حمل الأطباق وزجاجات الخمر. ويخاطبهم تان جيا جين قائلا:

«أطباق تان جيا تبدأ البيعة الأولى اليوم، لقد حضر يانغ فيي اليوم».

يمشـــون حتى يصلوا أمامي، ويرمقونني بنظرات فاحصة من رأســـي إلى أخمص قدمي، ووجوههم ضاحكة، وتقول زوجة تان جيا جين: «يبدو أنك أصبحت نحيفاً بعض الشيء».

يقــول تان جيــا جين مغتبطــا: «ونحن نحفاء أيضــاً، الذين حضروا هنا تصيبهم النحافة يوماً بعد يوم، فالناس هنا قوامهم ممشوق».

وتسألني ابنة تان جيا جين: «لماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

أجيب: «ليس عندي قبر، وأنتم؟».

تــرف على وجه تان جيا جين بادرة من الحزن والألم، ويقول: «أقاربنا في مقاطعة شـــاندونغ، وربمـــا ما زالوا لا يعرفون ما آل إليه مصيرنا».

تقول زوجة تان جيا جين: «نحن أسرة واحدة نقيم هنا معا».

علائـــم الســـرور والبهجة تعود إلى وجه تـــان جيان جين مرة أخرى، ويقول: «حقاً، نحن أســـرة واحدة، وأفراد أسرتنا يقيمون معاً».

أسأل تان جيا جين: «هل بترت ساقك؟».

يقول ويدوي صوت قهقهة في الآفاق: «أمشـــي بســـرعة أكبر بعد قطع ساقي».

في هذه الأثناء يدوي صوت مناداة: «أطباقنا، وخمرتنا..».

يســـتدير تان جيا جين بجســـمه، وينادي نحـــو ذاك الجانب قائلاً: «تعالوا».

ما زال تـــان جيا جين في وضعية اليـــد اليمنى تحمل طبقاً،

ويذهب إليهم مسـرعاً بخطوات عرجاء. وزوجته وابنته وصهره فـي وضعية حمل الأطباق في راحات أياديهم وزجاجات الخمر، ويذهبون إلى ذاك الجانب مسرعين.

تان جيا جين عندما يتقدم نحوهم، يلف رأسه ويسألني: «ماذا تأكل؟».

«ما زالت أحب سلطانية الشعيرية».

«حسنا».

عثـرت على مقعـد، وأجلس على أرض عشـبية، وشـعرت بأنني أجلس على الكرسـي تماماً. ويجلس أمامي هيكل عظمي، ولا تصدر عنه ثمة حركة سـوى صب الخمر، وليس في وضعية التقاط الخضار بعيدان الطعام، ويحدق في الشـريط القماشي الأسود على ذراعي من تجويف العينين.

وشـعرت بأن ملابسـه غريبة؛ حيث يرتدي ملابس سوداء فضفاضة ولا يوجد لها أكمـام، وتظهر أذرع ومناكب الهياكل العظمي، ولونها قاتم بعد أن تعرضت للريح ولوحتها الشـمس سنة بعد سـنة، والملابس السوداء لم يتبق منها سوى شرائط علـى جانبي المنكبـين، ويبدو أن الكمين قـد تعرضا للتمزيق أيضاً.

نتبادل النظرات، ويبادرني بالكلام: «في أي يوم حضرت؟».

أقول: «في اليوم الخامس، وحضرت هنا أمس».

يرفع كأس الخمر ويحتسيه حتى آخره، وبعد أن يضع الكأس، يتخذ وضعية صب الخمر. ويتنهد قائلاً: «أنت وحيد هنا».

أنكس رأسـي وأحملق في الشـريط القماش الأسـود على ذراعي.

ويقول: «ونعرف أنك تضع شــريطا قماشيا على ذراعك، جاء إلى هنا بعض المتهورين المنعزلين، ولم يضعوا شــرائط قماشــية ســوداء على أذرعتهم، وأبــدوا إعجابهم عندمــا رأوا الآخرين يضعون مثل تلك الشــرائط على أذرعتهم، ومن ثم جاؤوا يلفون ويدورون حولي، ويطلبون مني أن أمزق قطعة من كمي وأعطيهم إياها ويجعلونها شريطا قماشيا أسود تعبيرا عن الحداد».

ويفتر ثغري عن ابتســامة خفيفة عندما أشاهد أذرع ومناكب ذلك الهيكل العظمي بارزة للعيان في الخارج، ويتخذ وضعية رفع كأس الخمر واحتسائه حتى آخره، ثم ينزل الكأس.

يشــير بيده ويقول: «أكمامي كانت طويلة جداً أصلا وتتجاوز أصابعي، والآن أنظر إلى منكبيّ عاريين تماما».

أسأله: «وأنت، أنت لا تحتاج إلى شريط قماشي أسود؟».

يقــول: «أقاربي فــي ذاك الجانب، ربما أصبحــت في دائرة النسيان لديهم».

يضطلــع بوضعية تنــاول زجاجة الخمر ويصــب الخمر في الكأس، وتدل حركاته على أنه آخر كأس، كما يضطلع مرة أخرى بوضعية احتساء الخمر حتى آخر نقطة.

يقول: «خمر لذيذ جداً».

أسأله: «ما نوع الخمر التي تشربها؟».

يجيب: «خمر الرز الأصفر».

«ما الماركة التجارية لخمر الرز الأصفر؟».

«لا أدري».

أبتسم، وأسأله: «كم مضى من الوقت على قدومك هنا؟».

«نسيت».

«إذا نسيت، إذن، أنت حضرت منذ ردح طويل».

«فترة طويلة جدا».

أقول فكرة جالت في خاطري ومشــاعري بصــورة فجائية: «أنت هنا يجب أن تكون مجرباً وخبيراً، وواســع المعرفة، وأطلب الاستشارة منك في مشكلة ما، كيف أشعر بأن الخلود يكون بعد الموت».

يحملق في وجهي بتجويف العينين، ولم يفه بحرف.

أقول: «لماذا نغشى أرض الراحة الأبدية بعد الموت؟».

يبدو أنه يبتسم، ويقول: «لا أدري».

أقول: «أنا لا أفهم لماذا أحرق جسدي حتى يصبح علبة رفات صغيرة؟».

يقول: «هذا قانون».

وأسأله: «أحصل على الراحة الأبدية إذا كان لدي قبر، وأعيش الحياة الأبدية إذا أفتقر إلى قبر، ما رأيك أيهما أفضل؟».

يجيب: «لا أدري».

ثم يلتفت التفاتة، وينادي: «أيها النادل، أحضر فاتورة الدفن».

تأتي نادلة من ذوات الهيكل العظمي وتقول: «خمسون يوانا».

يضطلع بوضعية وضع خمســين يوانا على الطاولة، وبعد أن يومئ برأســه نحوي، ينهض واقفــاً، وحينما ينصرف، يخاطبني قائلا:

«أيهــا الغــلام، لا تقدح زنــاد ذهنك كثيرا في مناقشــة تلك الموضوعات».

لم أتمالك نفســي عن أن أتذكر خنفســاء عندما شــاهدت الملابس الســوداء الفضفاضة ومنكبيه العظمين الرقيقين جداً.

وينأى شبحه رويدا رويدا، ويتلاشى وسط الهياكل العظمية الأخرى. ويأتي صهر (تان جيا جين)، ويداه في وضعية حمل السلطانية على راحة اليد، ويدي اليمنى في وضعية تناول عيدان الطعام، ثم وضعية الانتهاء من تناول رشفة من الشعيرية، وأخيراً وضعية تذوق طعم الشعيرية وأشعر بأن طعمها يناظر مثيله في العالم الذي رحلنا عنه.

أدركت أن كافة الأصقاع تغص بأصوات البهجة والسرور والضحك، ويتناولون أطايب الطعام والشراب في بهجة وسرور، وفي الوقت نفسه يعدودن بسرور المثال تلو الآخر في عالم الممات ذلك من الأرز المسموم، واللبن المسموم، وخبز المانتو المسموم، والبيض المغشوش، واللبن المصنوع من بروتين الحيوانات[1]، والمعكرونة المصنوعة من الجبس، والمواد الكيماوية في طبق الإحماء[2]، وجبن فول الصويا من البراز، والصبغة الكيماوية الحمراء[3]، وزيت الأحواض المنعزلة[4].

(1) إشارة إلى الفضيحة العارمة التي اجتاحت كافة أرجاء الصين في عام 2011 والتي أطلق عليها: «أزمة الثقة في اللبن الصيني» بعد كشف النقاب عن عدد من شركات الأغذية تقوم بنزع البروتين من جلود الحيوانات، وتصنيف تلك البروتينات المنحلة بالماء إلى لبن الأطفال المغشوش أصلاً بتعويض نسبة البروتين المتدنية، مما أدى إلى تسرب السموم إلى ألبان الأطفال الذين لقي عدد كبير منهم حتفهم من جراء ذلك. [المترجم]

(2) طبق الإحماء: جهاز مؤلف من طبق معدني تحته مصباح أو مسخن. [المترجم]

(3) يشير إلى عنصر صباغ ملون كيماوي يسمى (Tonyred) تستخدمه المطاعم الكبرى في الصين، ناهيك عن المطاعم الأجنبية مثل كنتاكي، كمادة إضافية للأغذية وإضفاء اللون الأحمر الفاتح على مكونات بعض الأغذية. وتم اكتشاف استخدام هذا العنصر المميت في صلصلة الفلفل لأول مرة في الصين عام 2005. [المترجم]

(4) إشارة إلى جميع الأنواع الرديئة من الزيت في الحياة مثل إعادة استخدام زيت القلي. والمصدر الرئيسي للحصول على هذا الزيت هو أحواض الزيت المنعزلة في مواسير الصرف الصحي لدى المطاعم الكبرى في المدن الصينية، واستخدامه لمدة طويلة يسبب مرض السرطان. [المترجم]

ويمتدحون الطعام والشــراب هنا وســط أصوات الضحكات المشرقة، وســمعت تتدفقا من أفواههم تباعاً مثل تلك الكلمات: طازج، طعام شهي، صحي.

صــوت يقــول: «في الصين كلهــا يوجد فقط مكانــان المواد الغذائية فيهما آمنة وصالحة».

«ما هما؟».

«أحدهما هنا».

«وأين المكان الآخر؟».

«المكان الآخر هو المأدبة الحكومية في ذاك الجانب».

يقــول أحدهم: « كلامك صائب، نحن هنا نســتمتع بالمعاملة الحسنة من الأكل والشراب في المأدبة الحكومية».

وعندما ابتسم، تكتشــف نفسي أنني لست في وضعية تناول الشــعيرية، وأدركت أنني انتهيت فعلا من تناولها، واسمع وقتئذ شخصا بجواري يصيح وينادي:

«كشف حساب الدفن».

يأتي النــادل ذو الهيــكل العظمي، ويخاطبه قائلا: «ســبعة وثمانون يوانا».

يخاطب النادل قائلاً: «أعطيك ورقة مالية فئة مئة يوان».

يقول النادل: «أرد إليك ثلاثة عشر يوانا».

يقول: «أشكرك».

وعملية الحســاب كلهــا عبارة عن حــوارات، ولا توجد ثمة أفعال البتة، وفي هذه الأثنــاء، يتقدم نحوي تان جيا جين بخطواته العرجاء ويده في وضعية حمل الطبق، وأدركت أنه يهدي إلي طبق الفواكه، ومن ثم تهيأت في وضعية تلقي الطبق. ويجلس أمامي، ويخاطبني قائلا:

«فواكه طازجة تم قطفها تواً».

بدأت التهيؤ لوضعية أكل الفواكه، وشعرت بأنها حلوة وطازجة ولذيــذة وعطرة، وأقــول: «مطعم تان جيا جين يبــدأ البيع مرة أخرى بسرعة».

يقــول: «لا توجد هنــا إدارات: الأمن العــام، والحماية من الحريق، والصحة، والصناعة، والتجارة، والضرائب، وأسســت مطعماً في ذاك الجانب، وجمعية الحماية من الحرائق تماطل فــي إنهاء إجراءات التأســيس منذ عــام أو عامين وتزعم أن مطعمي يداهمه خطر كامن من اندلاع كارثة حريق، أما جمعية الشــؤون الصحية فتسوف التشــغيل لمدة عام أو عامين أيضاً وتدعي أن الظروف الصحية ليســت على المســتوى المطلوب. ونضطر إلى أن نرســل إليهما المال والهدايا حتى يسمحوا لنا بتشغيل المطعم».

ويسألني باضطراب في التو: «هل تكرهنا؟».

«لماذا أكرهكم؟».

«لقد قمنا باحتجازك في الغرفة».

تذكرت المشــهد الأخير في ذاك العالم، وعيون تان جيا جين تحملق في وجهي وسط تصاعد أعمدة الدخان، وينادي ويصرخ من أجلي.

أقول: «يبدو أنك ما زلت تصرخ وتناديني».

يرســل زفرة ويقول: «كنت أطلب منك أن تهرب بســرعة، لم نعترض طريق أحد وإعاقته سواك».

أطأطئ رأســي، وأقــول: «أنتم لــم تعيقوني عــن الهرب أو حبستموني، بل أنا لم أنصرف من المطعم».

لم أخبره شيئاً عن تلك الصحيفة فوق الطاولة والأخبار التي نشـــرتها حول انتحـــار زوجتي لي تشـــينغ،لأن الحديث في هذا الموضوع يحتاج وقتاً طويلا.

وربما سأخبره بذلك بلا كلل أو ملل في لحظة ما في المستقبل.

ما زال تان جيا جين يعض أنامل الندم، ولا يستطيع أن يجد الراحة لنفسه، ويشرح لي أسباب اندلاع الحريق في المطبخ، واعتراضهم سبيل خـــروج الزبائن من الباب إلا بعد دفع حســـاب المأكولات، وأضاف أن الدخل من تشغيل مطعمه أقل من المصروف لمدة ثلاث سنوات ونيف.

يقول: «لقد أصابني الدوار، ألحقت أضراراً بنفسي وبأسرتي، كما سببت لك ضيرا أيضا».

أقول: «لا بأس من حضورك هنا، والدي هنا أيضاً».

يصيح تان جيا جين قائـــلا: «هل والدك هنا، لماذا لم يحضر معك؟».

أجيب: «لم أجده بعد، ولكن أشعر بأنه موجود هنا».

يقول تان جيا جين: «بعد أن تعثر على والدك، تصحبه وتأتي لزيارتنا بالتأكيد».

أقول: «أقوم بمرافقته ونأتي هنا».

تان جيا جين يجلس أمامي فترة قصيرة، ولم يعد عابس الوجه، بـــل يغص وجهه بالابتســـامات. وينهض اســـتعداداً للانصراف، ويكرر على مســـامعي مرة أخرى: «بعد أن تجـــد والدك ترافقه وتأتي هنا بالتأكيد وتتذوق طعامنا».

ثم أدفع الحســـاب، وأســـمع صوت امرأة ذات هيكل عظمي، وأعتقـــد أنها النادل الذي حصل النقود تـــواً في مطعم تان جيا جين، وتخاطبني قائلة:

«سلطانية الشـعيرية ثمنها أحد عشـر يوانا، وطبق الفواكه هدية منا».

أقول: «أعطيك ورقة مالية فئة عشرين يواناً».

تقول: «أرد إليك تسعة يوانات».

ما يحدث بيننا عبارة عن حوارات ولا توجد أفعال وعندما كنت أهم بالانصراف سمعت تلك المرأة تقول بحرارة خلف ظهري: «شكراً على حضوركم! مرحبا بكم في المرة القادمة!».

* * *

يوجد هيكل عظمي يضع على كمه شـريطا قماشـيا أسـود ويمشـي أمامنا قبالة غابة من البامبـو الأخضر الوافر، ولفتت انتباهـي فتحة مسـتديرة جداً على جبينه، وقـد رأيته من قبل وسألته عن مكان والدي، أبتسم في وجهه، وهو يبتسم في وجهي أيضاً، وابتسامته لا تعرب عن القلق، بل تشبه نسيما خفيفا يهب من تجويف عينيه، وتجويف فمه.

يقول: «هناك نار المخيم، بالتأكيد هناك».

أنظـر على امتداد إصبعه في مكان نـاء في الأفق، والأرض العشبية النائية تتمدد امتداداً عظيماً، وفي نهايتها توجد علامات متلألئة ومشعشعة تشبه شريطا حريريا، وشعرت بأن ذلك يكون نهراً، كمـا توجد هناك نار خضراء تبـدو صغيرة كأن القداحة قدحتها، وشـاهدت بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تنزل من سفح الجبل، وتنطلق من الغابة، وتواصل السير إلى هناك.

يقول: «تعال واجلس فترة قصيرة».

أسأله: «ماذا يوجد هناك؟».

يقول: «ضفة النهر، يوجد كوم من النار».

«أنتم تذهبون هناك دائماً؟».

«ليس دائماً، نذهب مرة واحدة على فترات متباعدة».

«هل جميع الناس هنا يذهبون هناك؟».

يقول: «بلى»، وينظر إلى الشـــريط القماش الأسود على كمي، كما يشير إلى نظيره على كمه، ثم يقول: «إنهم بشر مثلنا».

فهمـــت أن المكان هناك يحتشـــد فيه الذين ينعون أنفســـهم إلى أنفســـهم. وأطأطئ رأسي، وأتبعه في سيره نحو النهر الذي يشـــبه الشـــريط الحريري، وكوم النار الصغير. وتمتد خطواتنا وتجتاز الأعشاب الكثيفة الملتفة، ويدوي صوت حفيف الأعشاب الخضراء.

أحملق في الشريط القماش الأسود على كمه، وأسأله: «متى حضرت هنا؟».

يقول: «منذ تسع سنوات تقريبا».

يلـــوح في نبرة صوته اســـتعراض الماضـــي، ويقول: «في ذلك الحين قد مر عـــام وأكثر على زواجي، وزوجتي تعاني من مرض عقلي، وقبل الزواج لا أعـــرف أنها مريضة، ورأيتها ثلاث مرات فقط، وأشـــعر عندما تضحـــك أن أمارات غريبـــة تعلو وجهها، ويشـــعر قلبي بعدم الطمأنينـــة، بينما أبـــواي لا يعتريهما القلق مـــا دامت الأوضاع المالية لأســـرة الزوجة ميســـرة جدا، وجهاز العروســـة كثير جداً، كما يحتوي على دفتر توفير بمبلغ عشرين ألف يوان. وقريتنا في ذاك الجانب تعيش في فقر مدقع، ويقرر الأبـــوان هناك البحث عن فتاة للزواج، ويمكـــن أن تبني بيتاً من طابقين بعشـــرين ألـــف يوان، وقرر أبواي هـــذا الزواج، وعرفت أنهـــا تعاني من مرض عقلي منذ زواجنا. مازالت في حالة طيبة،

لا تهاجم الآخرين ولا تحدث جلبة، غير أنها لا تكف عن الضحك طوال النهار حتى الليل، ولا تقوم بأي عمل. ويشعر أبواي بالندم، كما يشـعران بوخز الضمير، ولكنهما رفضا أن أطلقها، ويقولان نبني البيت بأموالها وجهازها، ولا يمكن تهديم الجسر بعد العبور وأنـا لا يخطر على بالي الطلاق، وأرغب فـي العيش على هذا المنـوال، بالإضافة إلى أنها تعتبر لطيفة وهادئة مقارنة بسـائر المرضى المصابين بالتخلف العقلي، وفي المسـاء ننام مثل الناس العاديين تماماً. وفي صيف ذاك العام، تركت البيت ولا ندري أين تقودهـا قدماها، وخرجت أبحث عنهـا، وحذى حذوي الوالدان وزوجة أخي الكبير، وعرجنا على العديد من الأمكنة، وتنسـمنا أخبارها في كل صقع، ولكن لم نسمع شيئاً. استمر البحث عنها ثلاثة أيام ولم نعثر عليها، ومن ثم أخبرنا أهل بيتها الذين انتابتهم الشـكوك من أنني سـببت لها ضرراً ورحلت عن دنيانا، ولذلك ذهبوا إلـى مكتب الأمن العام في المحافظة وأبلغوا البوليس عن حادث اختفائها. وفي اليوم الخامس لمغادرتها البيت، طفت جثة امـرأة في بركة في مكان بعيد عن قريتنـا بكيلومترين، وعندما تم العثـور على الجثة كانـت مهترئة وعفنة مـن جراء الصيف الصائـف، ولا يمكن التعرف على شـكلها، وطلب البوليس مني ومن أهل بيتها أن نتفحص شكلها وملامحها، بيد أننا لم نتعرف عليها، لكننا شعرنا بأن قامة الجثة تضاهي قامتها تقريباً. وذكر البوليس أن اليوم الذي شـهد موت الجثة غرقا يتزامن مع اليوم الذي غادرت فيه بيتها، وشـعرت أنها زوجتي، كما شـعر أهلها كذلك. ودار بخلدي أنهـا ربما لم تأخذ حذرها وقادتها قدماها إلى داخل البركة، ولم تدرك أن السـقوط في البركة يودي بحياة

المـــرء غرقاً لأنها تعاني من مرض عقلـــي. وما زال قلبي يئن من وطأة الحزن فقد جمعنا الرباط المقدس لمـــدة أكثر من عامين بغض النظر عن حالتها الصحية. ويستجوبني البوليس بعد مرور يومين، ويســـألني ماذا كنت أعمل عندمـــا انصرفت من البيت؟ ســـافرت إلى المدينة في ذاك اليوم، واكتشـــفت أنها تركت البيت عندما رجعت في المساء. ويسألني البوليس هل لدي شاهد على ســـفري إلى المدينة، فكرت لحظة وقلت لا يوجد، البوليس يدون اعترافاتـــي وينصـــرف، وأهلها يؤكدون أنني قتلتهـــا، كما يعتقد البوليس أنني القاتل، ولذا يلقي القبض عليّ. بدايةً أبواي وزوجة أخـــي الكبير لا يصدقون أنني القاتـــل، وبعد ذلك اعترفت أنني قتلتها، ولذا صدقوا أنني القاتل. ويشـــعرون بحزن شـــديد، كما يكرهونني بشدة أيضاً، فقد جعلتهم وهم الشرفاء لا يستطيعون رفع رؤوســـهم، فقد جرى العرف بذلك في قريتنا حيث إن البيت الذي ينبت فيه مجرم قاتل، فإن أهل البيت لا يجرؤون على رؤية الناس. وعندما أصدرت المحكمة حكماً بإعدامي، لم يحضر أحد منهم، بينما حضر أهل بيت القتيلة، وأنا لا ألقي باللائمة عليهم، فقد حاولـــوا رؤيتي بعد اعتقالي، ولكن رفـــض البوليس، وكلهم مـــن الخلصاء ولا يعرفون أنني مظلوم. وليس أمامي مفر ســـوى الاعتـــراف بالقتل، والبوليس يعلقني ويشـــبعني ضربا ويجبرني على الاعتراف بالجريمة، وينـــز البول والبراز من جراء الضرب المبـــرح، كما يقيـــد البوليس يدي ويعلقهما لمـــدة يومين، ويحتقن الـــدم في أصابعي الأربعة، وقالوا إنهـــا تلفت تماما. وبعد ذلك، يعلقنـــي البوليس بالمقلـــوب ويعذبني، قدمي معلقـــة في أعلى، ورأسي في أســـفل، يعلقني بالمقلوب ويضربني، ويكون الأكثر ألماً

ليس جســـدي، بل عيوني، ويتصبب العرق المالح الذي يتدفق إلى عيوني ويصيبني بألم شديد كأنهما وُخزتا بالإبرة، وفكرت جيداً أن الموت أفضل، ومن ثم اعترفت بالجريمة».

يتوقف عن الكلام برهة، ويســـألني: «لماذا ينمو الحاجب فوق العين؟».

«لماذا؟».

«حتى يقي العين من العرق».

«من أجل حماية العين من العرق».

سمعته يضحك بصوت هادئ كأنه يبتسم بمفرده.

يشـــير إلى الدماغ المؤخر لديه، كما يشير إلى فتحة مستديرة صغيرة فـــي جبهته، ويقول: «اخترقت الرصاصة دماغي المؤخر، وخرجت من هنا».

يحني رأســـه ويحدق في الشـــريط القماشـــي الأسود المعلق على كمه، ويردف قائلا: «حضرت إلى هنا، ورأيت أناسا يعلقون شرائط قماشـــية ســـوداء على أكمامهم، وفكرت أيضا أن أضع شـــريطاً قماشياً أســـود على كمي، وشـــعرت بأنه لا يوجد أحد فـــي ذاك الجانب يفعل ذلك من أجلـــي، ولا يجرؤ أبواي وزوجة أخي الكبير على أن يعلقوا مثل تلك الشـــرائط القماشـــية على أكمامهم لأنني مجرم قاتل. ورأيت شخصاً يرتدي ملابس سوداء فضفاضـــة جداً، وأكمامهـــا طويلة جداً أيضاً، وســـألته إذا كان يســـتطيع أن يمزق كمه ويعطيني قطعة، ولا يدري لماذا أريد هذه القطعة القماشـــية، ثم يمزق كمـــه ويعطيني قطعة منه، وبعد أن علقت على ذراعي الشريط القماشي الأسود، شعرت بالاطمئنان والراحة. وهناك شـــخص يعرف قصتي بين هؤلاء البشر الذين

أتوا مـــن خلف ظهري، وأخبرني بأنه بعـــد مرور نصف عام من إعدامـــي رمياً بالرصاص، عـــادت زوجتي المصابة بمرض عقلي إلى البيت بصورة فجائية، وملابسها قذرة وبالية، كما أن وجهها قـــذر لدرجة لـــم يتعرف عليها أحد، ووقفت أمـــام مدخل البيت تضحك: هيه، هيه بلا انقطـــاع، وقفت مدة طويلة جداً، وهناك من تعرّف على ملامحها فـــي القرية. ويعرف الناس هناك أنني تعرضـــت للظلم، ويبكـــي أبواي وزوجة أخـــي الكبير لمدة يومين، ويشعرون بالشفقة والعطف نحوي، وتدفع الحكومة تعويضا لهم بأكثر من خمسين ألف يوان، واشتروا لي قبرا رائعا جداً..».

وسألته: «هل عندك قبر؟، ولماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

ويقول: «في هذه الأثناء، نزعت شـــريط القماش الأسود من كمي ورميته فوق شـــجرة وأســـتعد للانصراف، وبعد أن مشيت أكثر من عشـــر خطوات، يعز عليّ أن أتخلى عن ذلك الشـــريط الأسود وأعود وألتقطه، وأضعه على ذراعي، ولم أنصرف».

وأسأل: «ألا ترغب في الذهاب إلى أرض الراحة الأبدية؟».

يجيـــب: «أريد أن أذهب إلى هناك حقـــاً، وأفكر آنذاك أنني عندي قبر. وعلى كل حال، لا داعي للاســـتعجال، وأذهب هناك في الميقات الذي يحلو لي».

«متى حضرت إلى عالم الممات؟».

«منذ ثماني سنوات».

«هل القبر ما زال موجوداً؟».

«موجود، موجود دائماً وأبداً».

«متى تنوي الذهاب إلى القبر؟».

«فيما بعد».

نعرج علـــى المكان الذي يحتشـــد فيه الذين ينعون أنفســـهم بأنفســـهم. وعلى مرمـــى البصر، نهر واســـع وعريض، ومنظره المشرق المتلألئ عريض ومترامي الأطراف أيضاً. يتوقد كوم من نار المخيم الخضراء على جانب النهر، ويتطاير الشرر بلا انقطاع كأنه الحباحب الطائر(1).

تجلس قلة قليلة من الهياكل العظمية ذات الأشـــرطة السوداء علـــى مقربة من نار المخيم، وأمشـــي معه وندلـــف إلى الداخل، ونبحث عـــن مقعد يمكن أن نجلس عليـــه، ورأيت بعض الهياكل العظمية الجالســـة في حالة حراك وتتحرك مقاعدها وتفســـح المـــكان، وتخلي المقاعـــد الواحد تلو الآخر، وأقـــف هناك حائراً ومتـــردداً، لا أدري يجـــب أن أســـير في أي اتجـــاه وأجلس على المقعد. ورأيته يمشي ويجلس على مقعد قريب، وأنا أيضاً أحذو حذوه. وأرفع رأسي، وأشـــاهد أن هناك ما زالت هياكل عظمية تمشي، بعضها يسير على درب امتداد الأعشاب، وبعضها يمشي على امتداد ضفة النهر، ويتهادون في مشـــيتهم على هذا النحو حتى يتجمعوا سويا.

ســـمعت صوتا مدويا ينبثق من هيكل عظمي بجواري، يقول: «أهلا بك».

وقوله «أهلا بك» يشـــكل صوتا خفيفـــا ينطلق من هنا حيث أجلس، ويدور حول نار المخيم، وبعد أن يعود إلي يرتطم بالأرض.

وســـألته بصوت خافـــت: «هل الهيـــاكل العظميـــة تقدم لي التحية؟».

يقول: «نعم، وأنت حضرت إلى هنا حديثا».

(1) الحباحب (سراج الليل): اليراع، وهو ذباب يطير بالليل يضيء ذنبه. [المترجم]

وشعرت بأنني مثل شجرة عادت إلى الغابة، ونقطة ماء عادت إلى النهر، وذرة غبار عادت إلى التربة.

الهياكل العظمية ذات الشـرائط السوداء تجلس واحداً وراء الآخر مثل أصوات تتهاوى وسـط الهدوء والسكون تباعاً، نجلس في دائرة بالقرب من نار المخيم، وتنبثق في السر ألف كلمة وكلمة في أجواء الصمت الرهيب المترامية الأطراف، ويعد ذلك بمثابة السرد الذاتي للكثير والعديد في حياتي الحقيرة الوضيعة، وكل امـرئ في عالم الممات هذا يرغب عـن إلقاء نظرة على أحواله الحزينة المؤلمة، وكل واحد هناك يعيش وحيداً بائسـاً بلا معين، والذين ينعون أنفسـهم إلى أنفسهم قد اجتمعوا سويا، وعلى كل حـال، عندما نجلس حـول النار الخضراء فـي الجهات الأربع، لا نشعر بأننا بلا أنيس ولا جليس مرة أخرى.

لا يوجـد هناك التفوه بالكلمـات ولا الاضطلاع بالأفعال، بل إننا فـي صمت ينظر كل منا إلى الآخـر ويضحك. ونجلس في الهدوء التام ليس من أجل شـيء آخر سـوى الشعور بالجماعة لا بالعزلة.

أجلس في دائرة وسـط الهدوء التام، وأسمع صوت النار وهو الرقص، وأسـمع صـوت الماء وهو قرع الطبول، وأسـمع صوت الحشائش وهو صوت الترنح، وأسمع صوت الشجر وهو الهتاف والنداء، وأسـمع صوت الريح وهو الحفيف والوشوشـة، وأسمع صوت السحب وهو الطفو.

ويبـدو أن تلك الأصوات تتكلـم معي بلا تحفظ، وقد تعرض مصيرها لكثير من الصدمات والنكسات في حياتي، وترغب عن الالتفات إلى ذكريات الماضي. وبعد ذلك، سمعت صوت العندليب

يصدح، يترامى إلى مســامعي تارة، ويتوقف تارة أخرى، ثم يملأ الآفاق مرة أخرى..

* * *

سمعت صوتاً كالوشوشة يقول: «أنت حضرت هنا».

أسير نحو ذاك الصوت الغريب الذي يشبه صوت تقطر مياه الأمطــار من إفريز الغرفة إلى حافــة النافذة ويتجلى بالوضوح والخفــوت. وخمنت أنه صوت امرأة، وبعد أن ذاقت مرارة الدنيا يزخر صوتها بالعتمة في وقت الغسق، ولكن نبراته ما زالت جلية مثل إنسان يقرع الباب: دقة، دقتان، ثلاث دقات.

«أنت حضرت هنا».

تنتابني مشاعر التردد والارتباك، هل هذا الصوت يخاطبني؟ وعلى كل حال، يتحلى هذا الصوت بالود البعيد، إنه ذلك الود في أعماق ذاكرته، وجعلني أشعر أنه يخاطبني فعلا. وتكلم المرة تلو الأخرى، ثم ما لبثت أن ســمعت صوت العندليب يصدح بالغناء، ويعلو وينخفض مثل الموج، ويترامى إلى مسامعي الصوت القائل: «أنت حضرت» مثل صوت غناء العندليب.

تتقدم خطوات نحو صوت غناء العندليب، وكذلك نحو الصوت القائل: «أنت حضرت».

عرجت على غابة وشــعرت بأن صوت غناء العندليب ينساب من أعلى شــجرة في الأمام. ومشــيت إلى هناك ولفت انتباهي أن أوراق الشــجر عريضة أكثر فأكثر، ثم شاهدت أطفالاً رضعاً من ذوي الهياكل العظمية في معية أوراق الشــجر العريضة التي تتمايل يمنة ويسرة، وهؤلاء الأطفال يشرقون ويتلألؤون في مهد أوراق الشــجر، ويصدحون بالغناء الــذي يؤثر في النفس تأثيراً

بالغـــاً، أمد إصبعي وبعد أن أحصيت عددهم ســبعة وعشـــرين طفلا، أنزل يدي. وهذا الرقم يهز قلبي هزاً عنيفاً، وتمرق ذاكرتي فـــي طرفة عين داخل أروقة عالم الممات ذلك، وتذكرت الأطفال الموتى الذين أطلق عليهم النفايات الطبية والبالغ عددهم ســبعة وعشـــرين طفلا، والذين كانت أجسادهم تطفو فوق صفحة مياه النهر، وتخلى عنهم ذووهم على ضفة النهر.

«أنت حضرت».

وأشـــاهد امرأة ذات هيـــكل عظمي ترتـــدي ملابس بيضاء فضفاضة تجلس بين الأشـــجار والكتل العشبية العطرية، وتقف طويلا، وتتنهد وتخاطبني:

«يا ابني، كيف حضرت هنا بسرعة؟».

عرفت من هي، وأنادي بصوت خافت: «ماما».

تمشـــي (لي يوي جين) حتى تصـــل أمامي وتحدق في وجهي بنظـــرات تنبعث من تجويف العينين، وصوتها كريشـــة في مهب الريح، وتقول: «يبدو أنك تجاوزت الخمسين، وعلى كل حال، أنت تبلغ من العمر أربعين عاماً».

أقول: «ما زلت تتذكرينني».

تقول: «سنك يناهز ابنتي جينغ شيا».

في هذه اللحظة تعيش جينغ شـــيا وأبوها جينغ تشـــيانغ شينغ في عالم أمريـــكا، أما أنا وأمها لي يون جين فنعيش هنا في ذاك العالم، وودعت جينغ شـــيا ووالدها في المطار عند ســـفرهما إلى الخارج، وبعد وصولهما إلى شـــانغهاي، اســـتقلا الطائرة المتجهة إلى أمريكا. وطلبت من جينغ تشيانغ أن يجعلني أحمل علبة رفات أمي (لي يون جين) التي تتوسد قلبي وأودعها إلى مثواها الأخير.

تومئ لي يوي جين برأســها وتقول: «شــاهدتكما في المطار، ورأيتك تحمل علبة الرفــات، وأنت حملت رفات الآخرين وليس الهيكل العظمي».

تذكرت أن الهياكل العظمية لأناس آخرين استغلوا اسمها وتم دفنهم فـــي أمريكا، وأخبرتها بأن «جينغ ذكــرت أنها وفرت لك أرض الراحــة الأبدية، وأضافت أن والدها ســيكون هناك أيضاً في المستقبل».

أكف عن الكلام، ونظــراً لأنني تذكرت أنه عندما غيّب جينغ تشيانغ شينغ في مثواه الأخير بعد مرور بضع سنوات، أدركت أن لي يوي جين لا تنعم معه بالراحة الأبدية بصورة مشــتركة، وأنه ســيعيش مع غريب أو مع نفر من الغرباء أجسادهم ناقصة في ركن من الأركان.

تنثال دموع (لي يوي جين) من تجويف العينين كلما تذكرت ذلــك. وتتدفق الدمــوع على خديها اللذين يشــبهان الحجر، وتتقطــر على بضعــة أعواد من العشـــب. ثــم تظهر ملامح ابتســـامة من تجويــف العينين وترفع رأســـها وتجيل بصرها فـــي كافة الأنحاء، وترقب باهتمـــام الأطفال الذين يغنون مثل العندليب، وتقول:

«يوجد عندي هنا ســبعة وعشرون طفلا، والآن أنت حضرت، إذن، أصبحنا ثمانية وعشرين فردا».

لم يتبق منها سوى يدها ذات الهيكل العظمي، والتي تتحسس بها الشــريط القماشي الأسود على ذراعي الأيسر، وتعرف أنني أنعى نفسي إلى نفسي، وتقول:

«ابنـي المسكين».

تتقافز ألسنة اللهب المحرقة من قلبي قارس البرودة. وهناك طفل لم يأخذه حذره، ويتدحرج من فوق الشـجرة ويسقط على الأرض، ويتفزز ويبكي، ويحبو إلى أمام لي يوي جين التي تضمه إلى أحضانها وتهدهده فترة قصيرة، وتعيده فوق أوراق الشـجر العريضة، وعلى الفور يدس هذا الطفل نفسـه بسرعة في زمرة الأطفال الذين يغنون على غرار العندليب.

تسألني لي يوي جين: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أخبرتهـا بالمشـهد الأخير في حياتي فـي ذاك الجانب، كما أخبرتها أن زوجتي (لي تشينغ) ودعتني من مكان بعيد جدا.

ترسل زفرة طويلة بعد أن سمعت كلامي، وتقول: «لا يجوز أن نترك لي تشينغ».

أفكـر في أعماق نفسـي أنه ربما لا يجـوز أن تتركني. وإذا كانت في البداية لم تتخل عني، يجب علينا أن ننعم بحياة هادئة في ذاك العالم. ويتعين على طفلنا الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، وربما كان أحد طلاب المدرسة الإعدادية في الوقت الحاضر.

وتذكرت الفقدان المروع لكل من لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعا، وذكرت مؤسسة الخدمات الجنائزية أنها أحرقت جثثهم، بينما أحد مسـتخدمي الإنترنت يقول إن رماد عظامهم قد حسمت من علب رفات الآخرين.

تقول: «عرفـت ذلك،وأخبرني بذلك شـخص يأتي من عالم آخر».

أرفع رأسي وأحملق في الأطفال الرضع الذين يتمددون على أوراق الشجرة العريضة ويصدرون أصوات غناء تشبه العندليب، وأقول: «أأنت حملت هؤلاء الأطفال إلى هنا؟».

تجيــب قائلة: «لم أحملهم»، وتردف: «كنت أســير في الأمام، وهم يحبون في الخلف».

وقالت لي يوي جين إنها في بهيم الليل في ذاك اليوم، لم تسمع صوت دوي الانفجار، ولكنها استيقظت من نومها. وقبل ذلك كانت تنهمــك في نــوم عميق وشــاهدت رؤى ثلاثاً، ففــي الرؤيا الأولى شــاهدت الفوضى الأزليــة المترامية الأطراف وأصبحت الســماء والأرض وحدة واحدة، وتلوح في الأفق الأضواء الساطعة، ثم تتدفق مياه البحيرة الســاطعة اللامعة، وانفصلت السماء عن الأرض، كما انفصل البكور عن الليل، وفي الرؤيا الثانية شــاهدت الهواء يطير بســرعة ويقوم بحركة مكوكية، أما الرؤيا الثالثة، فقد كانت انفجار الماء من الأرض وتدفقه أكثر فأكثر مثل البحر العظيم.

وبعد ذلك، تنهض من سباتها، ويبدو جسمها يسقط من جرف شــاهق، وســرعة الانحدار تجعلها تقف شــامخة، وتنزع قطعة القمــاش البيضاء تلك على مهل مثل كســح الثلــج المتراكم أمام البــاب، وتبدأ أقدامها في الحراك، وتخرج من مســتودع الجثث أسفل حفرة سماوية تغص بضوء القمر الشاحب الباهت، وتتعثر أقدامها في أعمدة الحفرة المتداخلة تداخل أنياب الكلب، وتخرج من تلك الحفرة في وضعية جسدها المستقلي على الأرض.

تدلف إلى المدينة التي تســطع فيها الأضــواء اللامعة، وتعج بحركة الذهاب والإياب الصاخبة من المشــاة والركاب، والمشاهد والمناظر كما هي، وعلى كل حال، كانت تمشــي خارج نطاق عالم تلك الموجودات.

يبدو أنها تعود أدراجها إلى بيتها بشــكل عادي، وتمشــي إلى أمــام المبنى الذي تقيــم فيه، ولكن لا تســتطيع أن تدخل بيتها،

ومهما تحركت ومشـــت تعجز عن الاقتراب من البناية السكنية، وكان ذلـــك في الليلة الثالثة من توديعها هذه الحياة. وشـــاهدت شـــبح ابنتها يشـــرق من نافذة في الدور السادس، ويخفق قلبها؛ إنها (جينغ شيا)، لقد عادت ابنتها.

تواصل المشـــي نهاراً وليلا، ولـــم تكف خطواتها عن التقدم إلى الأمام وتنأى بعيداً كلما مشت، ولم يظهر في تلك النافذة زوجها (جينغ تشـــيانغ تشـــينغ) أبداً، وكذلك أنا لم أظهر في النافذة، ولكن ظهرت فقط ابنتها (جينغ شـــيا). ورأت أناســـاً ينقلـــون تباعا الطـــاولات والمقاعـــد والدواليب، كمـــا ينقلون طاولات الشاي الصغيرة والأرائك والأسرّة، ويخرجون من تلك البنايـــة، وتذكرت أن ذلك أثاث بيتها الذي كان لا يفارقها ليلا نهارا منذ عشـــرات الســـنين، وباعته، وكذلك تلك الشقة التي باعتها، وذلك عندما كان زوجها وابنتها على وشك السفر إلى أمريكا.

وفـــي فترة ما بعـــد الظهر، رأتنا بأم عينها أخيراً، شـــاهدت زوجهـــا جينغ تشـــيانغ يحمل علبـــة الرفات ويخـــرج من المبنى الســـكني متكئاً على ابنته جينغ شيا التي تحمل في يدها اليمنى حقيبة السفر الكبيرة، وأنا أحمل صندوقي شحن كبيرين، وأسير خلفهمـــا، ونقف نحن الثلاثة على جانب الطريق، وتقف ســـيارة تاكســـي، وأحمل أنا والســـائق تينك الصندوقين وحقيبة السفر ونضعها في حقيبة السيارة الخلفية. كما شاهدتني وأنا أتحدث مع زوجها الذي يسلمني علبة الرفات وأحملها في يدي، وتجلس جينغ شـــيا ووالدها في مقعد الســـيارة الخلفي، وأنا أجلس في المقعد الأمامي، وتنطلق بنا سيارة التاكسي.

تدرك أنها لحظة الوداع الأبدي، ويستعد جينغ تشيانغ شينغ، وجينغ شـيا للسـفر إلى البلد القاصي أمريكا، وتتساب دموعها علـى الخدين، وتركـض وتهرول، ولكن ركضهـا لا يزال يجعلها تشاهدنا من مكان بعيد، وتتسمر أقدامها، وترى سيارة التاكسي تتلاشى وسط تدفق المركبات الأخرى.

تتفجـر في نوبة بكاء، وتبكي بكاء طويلا، وبعد ذلك سـمعت أصواتـا مختلطة خلفها، يبدو أنهـا أصوات ذرف الدموع أيضا، وتدير رأسـها إلى الخلف وترى سـبعة وعشـرين طفلا رضيعاً اصطفوا وينبطحون على الأرض، ويبدو أنهم يشـعرون بالحزن والألم مثلها، وحينمـا توقفت عن البكاء، توقفت أصوات بكائهم أيضاً، ولا تدري أنهم يقتفون أثرها خلفها، ويحبون حتى خرجوا من الحفرة السماوية، ويستمرون في تتبعها حتى وصلت إلى هنا، وتلوح المدينة أمام مرمى بصرها، والتي تنأى رويداً رويداً، وتلفّ رأسـها إلى الخلف، وترى هؤلاء الأطفال الرضع، وتدرك آنذاك ماذا خسرت؟ وتدرك أيضاً ماذا كسبت؟

تخاطب هؤلاء الأطفال برفق، وتقول: «انصرفوا».

لي يوي جين، التي ترتدي البنطال الأبيض، تمشي الهوينى إلى الأمام، ويحبو خلفها الأطفال الذين يصطفون، وعددهم سـبعة وعشرون طفلا رضيعاً. أشعة الشمس صفراء وعتيقة ويجتازون المدينة التي تعج بالجلبة والضوضاء، ويدلفون إلى منطقة الهدوء والسكون وتتعمق أقدامهم داخل المنطقة كلما مشوا، ويستقبلون ضوء القمر الفضي.

وبعـد أن تجتاز الخط الفاصل بين الحياة والموت، تطأ أقدام (لي يوي جين) أرض عشب عطرية، والأعشاب الخضراء الناضرة

تطاول أعناق هؤلاء الأطفال الذين يمشـــون خلفها، وشـــعورهم بالحكـــة يجعلهم يصدرون أصوات الضحكات، ويوجد نهر يتلألأ ويشـــرق في نهاية أرض العشـــب العطرية، وتنـــزل لي يوي جين إلى النهر وتمشـــي فيه، فيرتفع منســـوب المياه إلى صدرها، كما ينخفض ذلك المنســـوب إلى أقدامها، وتصل إلى الضفة المقابلة، ويحبـــو هؤلاء الأطفال فوق صفحة المياه، ويتناولون جرعة كبيرة من الماء فيغصّون بها، ويســـعلون دائمـــاً حتى وصلوا إلى الضفة المقابلة، ويعبرون النهـــر ويدخلون الغابة، ولي يوي جين لا تدري وتدنـــدن بلحنٍ داخل الغابة، وفي الخلـــف يحذو هؤلاء الأطفال حذوهـــا أيضاً، وتتوقف لي يوي جين عـــن الدندنة، ولكن هؤلاء الأطفال يواصلون الدندنة، ويدوي صوتهم بالغناء، الذي يشـــبه العندليب، دائماً إلى الآن!

تقول لي يوي جين: «حضر أبوك يانغ جين بياو».

أحملق في وجهها بدهشـــة، وتردف قائلة: «جاء هنا من مكان بعيد، ويشعر بالتعب الشديد، واستراح هنا عدة أيام، وهو يتحدث عنك دائما».

«لقد انصرف بلا استئذان، وأين ذهب؟».

«ركـــب القطار وســـافر إلى المكان الذي تـــركك فيه في ذاك العام».

ومازالـــت ذكريات آخر حوار اســـتمر ليلة بينـــي وبين والدي محفورة في صدري. ونتزاحم فوق الفراش الضيق في الحانوت. وأضواء مصابيح الشارع خارج النافذة تلح عليها الرغبة في النوم، وريـــح الليل تلامس نافذتنا. وكانـــت المرة الأولى التي يبكي فيها والدي أمامي عندما ســـرد قصته وأنـــا في الرابعة عندما تخلى

عني فوق حجر في تلك المدينة الغريبة من أجل فتاة، ووصف ضخامة وقوة ذاك الحجر الأخضر، وسطحه الأملس، ووضعني فوق ذلك السطح الأملس. ويعنف نفسه تعنيفاً شديداً من جراء ذلك مرة تلو الأخرى. ولكن والدي ينصرف بلا استئذان ولم يخطر ببالي أن يفعل ذلك، وبحثت في العديد من الأمكنة، ولم يدر بخلدي أنه استقل القطار وسافر إلى هناك.

يرتدي والدي البزة الجديدة النظامية للسكة الحديدية، وهي البزة الأكثر جدة لديه، ويعز عليه دائماً أن يرتديها، واستمرت هذه الحال حتى جاء ميقات مغادرته ولبسها، ويستقل القطار وصحته واهية بصورة مستمرة، وعثر على مقعده بصعوبة بالغة، وما لبث أن وضع جسده واستقر به المقام فوق المقعد حتى انطلق القطار، ويرى رصيف المحطة يتقهقر إلى الخلف ببطء شديد، ويشعر بصورة فجائية أن الوقت الباقي لديه لا يسعفه ولا يدري في مغادرته على هذا النحو أيمكن أن يراني مرة أخري أم لا؟

والدي يخبر لي يوي جين بأنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة. ويسمع دائما صوت تنفسي المنتظم وصوت شخيري من حين لآخر، ولم يصدر مني ثمة صوت لفترة قصيرة في تلك الأثناء، ويشعر بالقلق، ويمد يده، ويتحسس وجهي ورقبتي، وأستيقظ من نومي، وينتصب جسمي وأحملق فيه، وأجده يغلق عينيه ويتظاهر بأنه نائم، ويقول إنني تحسست جسمه في الظلام، وأخذت ذراعه بحذر شديد وحشرته داخل اللحاف.

أومئ برأسي، وأخبر لي يوي جين قائلا: «لا أعرف ذلك».

تشير لي يوي جين إلى أعشاب كثيفة تحت شجرة أمامها، وتقول: «مدد جسمه هنا، وظل يتفوه بالكلام على طول».

يعثــر والدي على ذاك المكان، ولكن لم يعثر على ذلك الحجر الأخضــر وتلك الغابــة، بالاضافة إلى ذلك الجســر الحجري، والنهيــر الذي يفتقر إلى الميــاه، ويتذكر أنه يجب أن تكون هناك بناية ســكنية قبالة الجســر الحجري، ويجــب أن ينبعث صوت الأطفــال الذين يغنون من داخل تلك البناية ولم يعثر عليها، ولم يسمع صوت غناء هؤلاء الأطفال. والدي يخبر لي يوي جين بأن كل شــيء قد تغير؛ حتى القطار شــهد تغيــرا. وفي تلك الأيام، أســتقلّ أنا ووالــدي القطار في الفجر ونغــادر رصيف المحطة ونصــل إلى تلك المدينة الصغيرة فــي الظهيرة، وبعد ذلك يركب بمفــرده القطار الذي ما زال ينطلــق في الفجر أيضا، وعلى كل حال، يصل إلى هناك بعد أكثر من ساعة.

وتسأله لي يوي جين: «هل ما زلت تتذكر اسم ذاك المكان؟».

يجيب: «أتذكر، اسمه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)».

يغــادر محطــة القطار في تلك المدينة وســط ضوء شــمس الصباح الباكر، ويحمل على ظهره حقيبة السفر ويجر صندوقَي شــحن ويدلف إلى الفندق بخطوات سريعة كأنني أنقض عليه. ويدخل الفضاء المترامي الأطراف بخطوات وئيدة وبطيئة، حيث لا توجد حقيبة ســفر ولا صندوق شــحن أيضاً، وعلى كل حال، جســده أثقل من تلك الحقيبة والصندوقين. ويتوجه نحو المدخل على مهل، وغير قادر أن يسبل اليدين، ويبدو أنهما لا تتحركان.

يقــف في الميدان أمام محطة القطار، ويســأل بصوت واهن الذين يمــرون بجواره في عجالة ويتمتعون بالصحة والعافية إذا كانوا من أهالي البلد أم لا؟ وسأل عشرين شخصاً ونيفا، كان من بينهم أربعة قالوا إنهم من أهل البلد، وسألهم عن كيفية الوصول

إلى مشارف شـــارع (خه بان)، وذكر الشبان الثلاثة الأولون أنهم لا يعرفون مكان هذا الشـــارع، أما الشخص الرابع فكان عجوزاً، وأخبره بأنه يحتاج أن يركب ويغير حافلة النقل العام ثلاث مرات حتى يستطيع الوصول إلى هناك. ويستقل حافلة من جهاز النقل ويلفظ أنفاسه الأخيرة. وفي المدينة التي لا يجد فيها من يلوذ به يبحث عن ذاك المكان الغريب الذي تركني فيه.

وتسأله لي يوي جين: «لماذا ذهبت إلى هناك؟».

يجيب: «أرغب في الجلوس على ذلك الحجر فترة قصيرة».

وعثـــر على ذاك المـــكان، وكان ذلـــك بعد الظهـــر. والتدافع والتزاحـــم في حافلة النقل العام جعله منهـــوك القوى، وبعد أن ينـــزل من الحافلة يحتـــاج لأن يجلس على جانب الشـــارع فترة طويلة جداً حتى يستجمع قوته. ويستعد لأن يستقل حافلة أخرى. ويغير ثلاث حافلات وينزل في محطة تبعد عن شـــارع (خه بان) أكثـــر من ثلاثمئة متر. وهذه المســـافة الباقية وطولها ثلاثمئة - بالنســـبة لـــه - أطول بكثير من ثلاثة آلاف متـــر، ويمضي قدماً إلى الأمام بصعوبة بالغـــة، وخطواته ثقيلة، وقدماه مثل حجرين يعجز عن رفعهما ويســـتطيع فقط الحراك فوق الرصيف ببطء شـــديد، وبعد أن قطع مسافة خمسة أو ستة أمتار، يسند جسمه على شجرة ويأخذ قســـطا من الراحة ويلمح على جانب الشارع مطعماً صغيراً، ويشـــعر بأنه جوعان، ثـــم ما لبث أن جلس على مقعد فوق الرصيف خارج المطعم، ويســـند جسده على الطاولة، ويطلب ســـلطانية كريات لحم بعجين. وبعد أن أكل ثلاث كريات بدأ بالتقيـــؤ، ويتقيأ في كيس بلاســـتيك أحضره معه. ويضطر الجلســـاء على مقربة منـــه والذين يتناولـــون طعامهم ويحملون

سلطانياتهم لأن يركضوا إلى داخل المطعم، ويقدم لهم اعتذاره وأسفه بصوت خفيض، ثم يستمر في الأكل، ويستمر في تقيؤ ما أكله. وبعد أن فرغ من طعامه، وقاء ما أكله، يشعر بأن ما أكله أكثر مما تقيأه، ويشعر بأن جسمه أصبح قويا بعض الشيء، وينهض واقفاً وهو يترنح، يمشي صوب شارع (خه بان) ويتمايل جسمه يمنة ويسرة.

يخبر لي يوي جين بأن: «ذلك المكان كله عبارة عن بنايات سامقة ويقطنها أناس كثر».

كان لا يوجد نهير في هذا المكان في الماضي، ولا يوجد جسر حجري أيضاً. وترامى إلى أسماعه صوت أطفال، لكنه ليس صوت غناء الأطفال في الأيام الماضية، بل صوت لعب ومرح أطفال اليوم؛ حيث يهتفون ويصيحون بصوت عال وهم يجلسون على زلاقة الأولاد في منطقة لعب ومرح رياض الأطفال، ويتجاذب أجدادهم وجداتهم أطراف الحديث تارة، ويقومون على رعاية أحفادهم تارة أخرى. وأصبح المكان هنا من الأحياء السكنية الصغيرة، ويوجد أسفل المباني العالية طريق صغير يشبه الفراغ الضيق تسير داخله المركبات والمشاة ذهاباً وإياباً. ويسأل عن مكان النهير، وعن مكان الجسر الحجري، والقاطنون في هذا المكان جاؤوا من أماكن أخرى، وقالوا لا يوجد نهير، ولا يوجد جسر حجري، وليس لهما أثر منذ زمن بعيد. ويسأل: أليس هذا المكان يطلق عليه شارع (خه بان)؟ ويجيبون: نعم. ويسأل أيضًا: أليس هذا المكان كان يطلق عليه شارع (خه بان) في الماضي؟ ويقولون: يبدو أنه كان يطلق عليه شارع (خه بان) فيما مضى.

تســأل لي يوي جين: «لا يوجد نهير، فكيف يطلق عليه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)؟».

يقــول: «لم يتغير اســم المكان، ولكن تغيرت ســائر الأشــياء الأخرى».

ويواصل تســاؤلاته بصوت خفيض عن مكان الغابة الصغيرة هنا، وفي داخل الغابة توجد أعشاب كثيفة وملتفة يجب أن تشتمل علــى حجر أخضر، ويخبره شــخص ما لا توجــد غابة صغيرة، ولكن توجد الأعشــاب الكثيفة الملتفة، وتوجد حديقة على جانب الحي الســكني الصغير، كما يوجد حجر داخل تلك الأعشــاب، وسأل إذا كانت الحديقة بعيدة، ويجيب ذلك الشخص أنها قريبة جداً، المســافة إلى هناك تبلغ مئتي متر فقط، ولكن هذه المسافة ما زالت بالنســبة إليه تمثل صعوبة ومشــقة مثل تسلق الجبال وعبور النهر.

ويصــل إلى تلك الحديقة في وقت الغســق، وذؤابات أشــعة الشمس الغاربة تســطع على أرض معشبة، وتتناثر على الأرض المعشــبة بضعة أحجار ذات نتوءات بارزة وتتســلط عليها أشعة الشــمس الدافئة الغاربــة، ويبحث بين تلــك الأحجار عن ذاك الحجــر فــي دروب ذاكرته، ويشــعر بأنه يوجــد بينها عدد من الأحجــار ذات اللــون الأخضر وتشــبه ذاك الحجر الذي جلس عليه في الماضي، ويمشي بخطوات وئيدة إلى جوار ذلك الحجر، ويريد الجلوس فوقه، ولكن جسده لا يطاوع رغائبه وزلت قدماه. ويســتطيع أن يســتند على الحجر فقط، ويجلــس على الأرض النجيلية، ويشــعر - في تلك اللحظة- بأنــه خائر القوى تماماً، ولا يســتطيع النهوض مرة أخــرى، وتميل رأســه على الحجر،

ويحملق بنظرات واهية في متشرد يرتدي أسمالاً بالية زرقاء في مــكان قريب ويبحث عن طعام في برميل الزبالة. يعثر المتشـــرد على زجاجـــة كوكاكولا في الزبالة، وينـــزع غطاءها ويصبها في فمه، ولم يتبق ســـوى بضع قطرات، يرفع المتشـــرد يده ويحركها عدة مرات فوق فمـــه المفتوح، ثم يرمي هذه الزجاجة في برميل الزبالة، ثم يدير جســـمه ويحدق فيه. عيون المتشرد تشبه عيون الصقر، ويســـمر نظراته فيه، ويســـبل عينيه، وبعد فترة وجيزة، يرفع عينيه، ويرى المتشـــرد جالســـاً على كرسي على مقربة من برميـــل الزبالـــة، ومازالت نظراته تحملق فيه، ويشـــعر بأن تلك النظـــرات تتركز على البزة النظامية الجديدة للســـكة الحديدية التي يرتديها.

ويخاطب لي يوي جين قائلا: «رأيت يانغ فيي يجلس فوق ذلك الحجر».

إنه يعالج ســـكرات الموت، وغاصت أقدامـــه في الظلام كأنه غرق في مياه بئر، ويعم الهدوء والسكون كافة الأصقاع. وتنطفئ أنوار البنايات الســـكنية الباســـقة، وتنطفئ مصابيح الســـماء، ويختفـــي ضوء القمر، ويظهر في التو كتلة من الأنوار الســـاطعة اللامعـــة، ويعد ذلك بمثابة إعادة ظهور تلك الأنوار في المشـــهد الـــذي تركني فيه في البداية، ويراني أنا الجالس فوق حجر وأنا في ســـن الرابعة، وأنـــا أرتدي زي القوات البحريـــة حيث اللون الأزرق فيه يتعاقب مع الأبيض، إنه الزي الذي اشتراه لي عندما قـــرر أن يتخلى عني. طفل يرتـــدي زي القوات البحرية، ويجلس فوق حجر أخضر، ويهز قدميه بســـرور، ويخاطبني بحزن وألم، ويقول: اذهب لشـــراء بعض الطعام. وأقول بســـرور: بابا، اشتر

طعاما كثيراً.

ولكن هذه الكتلة من الأنوار الساطعة تلاشت في طرفة عين، وبيديه الغليظتين يخلع بالقوة بزته النظامية للســكة الحديدية، ويستعيد النداء الذي أطلقه مؤقتا عندما وصل إلى حافة الموت. ويشعر بأن جسمه مخدر، وإدراكه الباقي جعله يعرف ماذا يفعل ذاك المتشرد، يخلع المتشرد أسماله البالية الزرقاء، ويرتدي البزة النظامية، ويقول بصوت ضعيف: أتوســل إليك، أتوســل إليك. المتشرد يســمع صوته ويحني جسمه، ويقول: مئتا يوان. المتشرد يتحســس جيب قميصه ويستل منه مئتي يوان ويضعها في جيب البزة النظامية للسكة الحديدية التي أصبحت ملكاً له تواً. ويقول بصوت واهن مرة أخرى: أتوســل إليك، أتوســل إليك. المتشرد يسمع توسله وتضرعه مرة أخرى، ويقف هناك ويحملق فيه فترة قصيرة، ويجلس القرفصاء ويلبِسّه الأسمال البالية الزرقاء.

يسمع المتشرد صوته في الرمق الأخير: «شكراً».

الظلام مترامي الأطراف وبلا حدود، ويغوص وسط الكائنات الحية المندثرة، كما تتلاشى ذاته أيضا، وبعد ذلك، يبدو أنه سمع شــخصا ما ينادي: «يانغ فيي»، وينهض واقفاً، ويكتشــف وقتئذ أنه يمشــي في سهل فسيح خلاء وحيد مستوحش، وينادي «يانغ فيي» هو في الواقع ينادي نفســه. يواصل المشــي ويســتمر في النداء: يانغ فيــي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي... وينخفض صوته أكثر فأكثر. ويمشي على درب طويل جداً في ذلك السهل. ولا يدري إذا كان مشى يوماً أو أياماً قليلة، ويواصل الهتاف باســمي، ويطلب منه العودة إلى مدينته. وصوت هتافه «يانغ فيي» يشــبه علامة طريــق على هذا النحو

ترشده إلى أن يأتي إلى حانوتنا الصغير، وظل واقفاً وقتاً طويلاً قبالة الشارع أمام ذلك الحانوت، ولا يدري بضعة أيام أو أكثر من عشرة أيام، والحانوت موصد الباب والنافذة دائماً، وأنا لم أظهر أبداً.

ظل واقفاً وقتاً طويلا هناك، والمشهد المألوف في كافة البقاع بدا غريباً رويداً رويداً، كما بدأ المشاة والمركبات التي تذرع المكان ذهاباً وإياباً مبهمة، وغير واضحة، ويشعر شعوراً خافياً بأن المكان الذي ظل واقفاً فيه قد أصبح مجرد خيال، وعلى كل حال، الحانوت واضح وبارز للعيان دائماً، وهو ما زال يقف هناك على الدوام، ويتطلع إلى فتح باب الحانوت ونافذته، وأخرج من داخل الحانوت، وأخيراً، يتم فتح باب الحانوت ونافذته، ورأيت امرأة تخرج من الداخل أيضاً، وتدير جسمها وتتحدث مع رجل في داخل الحانوت. ويرى بجلاء أن الرجل داخل الحانوت ليس أنا، ويحني رأسه كأنه فقد شيئاً، ويدير جسمه وينصرف.

وتخبره لي يوي جين بأن: «يانغ فيي باع الحانوت، تذهب وتبحث عن نفسك»،

يومئ برأسه قائلا: «عرفت أن يانغ فيي باع الحانوت عندما رأيت أناساً آخرين يخرجون من هناك».

وبعد ذلك، يمشي دائما، ويضل الطريق باستمرار، وإصراره على أن يضل الطريق بصورة مستمرة جعله يسمع غناء يشبه العندليب، ويمشي صوب صوت الغناء ويرى العديد من البشر من ذوي الهياكل العظمية يذرعون المكان جيئة وذهاباً، ويقوم بحركة مكوكية بينهم، وصوت الغناء الذي يشبه العندليب يقوده إلى داخل الغابة، أوراق أشجارها كبيرة وعريضة. وفوق بعض

تلــك الأوراق يتمدد أطفال رضع وتتراقص أجســادهم، وينبعث من هنــا صوت ذاك الغناء. امرأة ترتــدي ملابس بيضاء تخرج من بين الأشــجار والأعشــاب الكثيفة ويتعــرف عليها ابنها (لي يوي جين) التي بدورها تتعرف عليه أيضاً، وفي هذه الأثناء، كان جسدها في حالة ســليمة وجيدة، ويقفان وسط هؤلاء الأطفال الذين يصدر عنهم صوت غناء يشبه العندليب، ويسرد كل منهما لحظتــه الأخيرة في عالم هذه الدنيــا. ويتقصى أخباري من لي يوي جين التي لا تتذكر ســوى المشــهد الأخير، وهو سفري إلى قريتها، ولا تعرف ما جرى بعد ذلك.

يشعر بالإعياء الشديد، ويمدد جسمه لبضعة أيام وسط سبعة وعشــرين طفلاً رضيعاً يصدحون بالغنــاء مثل العندليب، يطرح جسمه على الأعشاب الكثيفة والملتفة تحت أوراق الأشجار. وبعد ذلك، ينهض واقفاً، ويخبر لي يوي جين بأنه يشتاق إليها، ويشتاق إلى رؤيتي أيضاً، حتى لو استطاع أن يلقي نظرة من بعيد، فذلك يجعله يشــعر بالرضا الذاتي. يسير على درب طويل مرة أخرى ويتجشــم مصاعب المشي مثل تسلق الجبال وعبور النهر، ويضل الطريق باســتمرار في دوامة فقدانه وضياع الطريق منه بصورة مستمرة، وعلى كل حال، لا يستطيع الاقتراب من المدينة لأنه قد غادر هذا العالم منذ ردح طويل ويمشي نهاراً وليلاً، وأخيراً يصل إلى مؤسســة الخدمات الجنائزية التي تعتبر بمثابة نقطة التقاء بين عالم المحيا وعالم الممات.

يدلف إلى الردهة الكبيرة لحرق الجثث في مؤسسة الخدمات الجنائزية كما دخلتها أنا للمرة الأولى، وســمعت الذين ينتظرون حرق أجســادهم يناقشــون أكفانهم، وعلب رفاتهــم، وقبورهم،

ورأيتهـــم يدخلون غرفة المحرقة الواحـــد تلو الآخر. ولم يجلس، بـــل ظل واقفاً هنـــا على الدوام، وبعد ذلك يشـــعر بأنه يجب أن يكون هناك عامل في ردهة حرق الجثث، وهو عامل يعشق عمله. وعندما يدخل منتظر حرق جثته جاء متأخراً لم يتمالك نفســـه عن الترحيب به، وســـحب له رقماً من الماكينة، كما أرشـــده إلى المقعد ليجلس، وبعد ذلك، يشـــعر بأنه يشـــبه العامل الذي يعمل هنا تماماً، ويذرع الممر في المنتصف جيئة وذهاباً. وذات يوم، يمد يـــده بغير قصد وتدخل جيب الأســـمال البالية الزرقاء التي قام المتشـــرد بتلبيسها إياه، ويتحســـس في داخلها القفازات المهترئة البيضاء، وبعد أن يرتديها يشـــعر بأنه مثل العامل الرســـمي في تلـــك الردهة. ومع كر الأيام، أصبح أمـــام منتظري حرق جثثهم العامل المؤدب الذي يضطلع بواجباته، ومع كر الأيام أصبح مفعماً بالتطلعات الجميلة، ويدرك أنه يريد أن يقوم بالخدمة والرعاية في هذا المكان لمدة ثلاثين عاماً، أو أربعين عاماً، خمسين عاماً.. حتى يستطيع رؤيتي.

يتوقف صـــوت لي يوي جين عند هذا الحـــد بصورة مؤقتة. وأعرف مكان والدي، إنه ذاك الشـــخص الذي يرتدي الأســـمال الزرقاء والقفازات البيضاء في ردهة حرق الجثث في مؤسســـة الخدمـــات الجنائزية، ووجهه عبارة عن هيكل عظمي وخال تاماً مـــن اللحم، إنه الرجل صاحب الصوت المنهوك، الحزين المهموم، إنه والدي.

صـــوت لي يون جين يدوي مرة أخرى، وقالت إن والدي حضر هنا قادما من مؤسسة الخدمات الجنائزية، وواصل السير حتى وصل إليها، وســـرد لها كيفية دخوله لردهة حرق الجثث في تلك

المؤسسة، وكيفية جعل نفسه يحصل هناك على وظيفة، وبعد أن فرغ من كلامه، يدير جسـمه وينصرف، وتقول لي يوي جين إنه كان في عجالة من أمره، ربما بسـبب أنه لا يجوز أن يترك عمله هناك.

صوت لي يوي جين يشبه صوت قطرات الماء، وكل كلمة تنطق بها مثل قطرة ماء ترتطم بأديم الأرض.

اليوم السادس

يأتي ضال إلى هنـــا مترجلا، ويئن من وطأة التردد والحيرة، ويحمل في جعبته أخبارا يقدمها للفتاة شــوميي بشأن صديقها الذي يعيش في عالم آخر.

ويمشي هذا الشاب بيننا، وينظر في حيرة إلى العشب الأخضر المنتشـــر على أديم الأرض والأشجار المورقة، كما يحملق بارتباك في المترجلين هنا، وفــي العديد من ذوي الهياكل العظمية، وفي كوكبة من ذوي الأجسام السليمة، ويحدث نفسه:

«كيف حضرت إلى هنا؟».

ويردف قائـــلا: «يبدو أنني كنت دائما في حركة ذهاب وإياب طوال خمسة أيام، ولم يدر بخلدي أن تقودني قدماي إلى هنا».

هناك صوت بجــواري يخبرني قائلا: «هناك إنســان يموت ويأتــي إلى هنا في غضون يوم واحد، وهناك إنســان يموت ولا يحضر هنا إلا بعد بضعة أيام».

ويسأل في ارتياب شديد: «هل أنا ميت؟».

ويســأل هذا الصوت: «هــل ذهبت إلى مؤسســة الخدمات الجنائزية؟».

ويسأل أيضا: «أين مؤسسة الخدمات الجنائزية؟، لماذا يجب أن أذهب إلى هناك؟».

«الإنسان الذي يموت يجب أن يذهب إلى تلك المؤسسة لحرق جسده».

يجيـل بصـره نحونا فـي ارتياب، ويسـأل: «أأنتـم حرقتم أجسادكم؟، يبدو أنكم لا تشبهون رماد العظام المعبأ في علب».

«لم تحرق أجسادنا بعد».

«وأنتم لم تذهبوا إلى مؤسسـة الخدمـات الجنائزية، أليس كذلك؟».

«لقد ذهبنا إلى تلك المؤسسة».

«ذهبتم إلى هناك، فلماذا لم تحرقوا أجسادكم؟».

«نفتقر إلى قبور».

يدمدم قائلا: «وأنا ليس عندي قبر أيضا، ولماذا أموت؟».

يقول صوت آخر: «سيأتي شخص من الخلف ويخبرك بذلك».

ويهز رأسـه قائـلا: «قابلت رجلا للتو، وذكـر أنه حضر في الحال، ولا يعرفني، وهو لا يعرف كيف حضرت أنا إلى هنا، كما أنه لا يعرف أيضا كيف جاء إلى هنا».

أستعد للتوجه إلى الردهة الكبيرة لمنتظري حرق أجسادهم في مؤسسـة الخدمات الجنائزية من أجل رؤيـة والدي، والآن يطلب مني ذاك الشاب أن تتسمر قدماي مكانهما. ويبدو جسمه مفلطحاً بعض الشـيء، وهناك آثار غريبة على ملابسه الأمامية، وبعد أن فحصتها بدقة، شعرت بأنها بقايا آثار تركتها عجلة سيارة.

وأسأله: « أتستطيع أن تتذكر المشهد الأخير؟».

ويسألني: «أي مشهد؟».

أقـول: «فكّر وحـاول أن تتذكر جيدا، ماذا حـدث في نهاية المطاف؟».

تظهر على وجهه علائم استرجاع الماضي بجهد جهيد، ويقول بعد فترة قصيرة: «أتذكر فقط الضباب الكثيف جدا، وأقف في الشارع انتظاراً لقدوم حافلة النقل العام، ولم أتذكر ثمة شيئا آخر».

وجال بخاطري مشهد اليوم الأول الذي غادرت فيه غرفتي المستأجرة وترجلت وسط الضباب الكثيف، وعندما كنت أجتاز محطة الحافلات العامة، دوّى صوت اصطدام العديد من السيارات دويا شديدا، كما تمر مركبة كبيرة وسط الضباب الكثيف وتنطلق إلى الخارج، وتحدث - في التو- هديراً من الصراخ والألم مثل الماء المغلي.

ويسألني: «هل كنت واقفا بجوار تلك اللافتة؟».

وبعد أن فكرت قليلا، أقول: «بلى، كنت واقفا هناك».

«هل كانت اللافتة تشتمل على رقم الحافلة (203)؟».

يهز رأسه، ويقول: «يوجد رقم الحافلة (203)، وكنت أنتظر هذه الحافلة».

وأخبره: «إنهم أرسلوك إلى هنا من جراء حادثة سير، وملابسك ملطخة بآثار إطار العجلة». ينكس رأسه، ويحدق في ملابسه الأمامية، ويبدو أنه أدرك شيئا ما، ويقول: «لقد عاجلتني المنية في حادثة سير، أليس كذلك؟، يبدو أن شيئا ما صدمني وطرحني أرضا، كما دهس جسمي».

يحملق في وجهي، كما يفتحص بدقة الهياكل العظمية بجواره، ويخاطبني قائلا: «أنت لست مثلهم».

أقول: «حضرت توا، أنتم حضرتم منذ ردح طويل».

يقول هيكل عظمي: «أنتم ستكونون مثلنا بسرعة جداً».

أخاطبــه قائلا: «بعد انتهـاء فصل الربيــع، وانقضاء فصل الصيف مرة أخرى، نحن سنكون مثلهم تماما».

تبدو تعابير عدم الاطمئنان على وجهه، ويســأل ذاك الهيكل العظمي: «هل نشعر بألم شديد حتى نكون مثلكم؟».

يجيب الهيكل لعظمي: «ليس مؤلما، وذلك يشبه أوراق الأشجار التي تتساقط الواحدة تلو الأخرى وسط ريح الخريف».

يقول: «ولكن أوراق الأشجار تنمو من جديد وتكبر».

يقــول الهيكل العظمي: «ونحن لا ننمو مــرة أخرى، ولا نكبر أيضا».

يبدو غارقا في التفكير، ويطأطئ رأسه ويقول: «أعرف ذلك».

فــي هذه الأثناء، يترامى إلى مســامعنا صــوت امرأة يقول: «شياو تشينغ».

يقول: «يبدو هناك شخص ما لا يزال يناديك».

يدوّي صوت المرأة مرة أخرى، ويقول: «شياو تشينغ».

يجيل بصره في كافة الأصقاع، ويغص وجهه بالشك والارتياب، ويقول: «غريب حقا، يوجد هنا أناس أيضا يعرفونني».

«يا شياو تشينغ، أنا هنا».

الفتاة شــومي في حالة حراك وســير الآن، وترتدي بنطالا رجاليا فضفاضا، وتدوس على أرجل البنطال وهي تمشي. وذلك الشاب الذي يدعى (شياو تشينغ) يحملق مصعوقا في وجه الفتاة شومي التي تترجل وصوتها يسبقها في الأمام.

«يا شياو تشينغ، أنا شومي».

«أنت تســمع هذا الصوت لا يشــبه صوتي، ولكن أنا شومي عندما تراني».

«أنا شومي حقا».

«هل أنت شومي حقا؟».

«أجل، أنا شومي حقا».

تمشي شومي وتتقدم إلى أمامي، وتسأل شياو تشينغ: «كيف حضرت هنا أيضا؟».

شياو تشينغ يشير إلى صدره، ويقول: «بسبب حادثة سير».

تنظر شومي إلى آثار إطار العجلة على ملابس شياو تشينغ، وتسأله: «ماهذا؟».

يجيب شياو تشينغ: «مشت السيارة فوقي ودهستني».

تسأل شومي: «هل شعرت بالألم؟».

يفكر شياو تشينغ برهة، ويقول: «لا أتذكر، يبدو أنني صرخت صرخة».

تطأطئ شومي رأسها، وتسأله: «هل رأيت الشاب (وو تشاو)؟».

يجيب شياو تشينغ: «نعم رأيته».

«متى رأيته؟».

«لقد رأيته قبل حضوري هنا بيوم».

تدير شومي جسمها وتخبرنا بأنه في ذاك الجانب يوجد العالم الذي يقيم فيه شياو تشينغ مع زمرة الجرذان في ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض، وهي وصديقها (ووتشاو) يعرفانه منذ قبل سنة وأكثر، وكانوا جيرانا يعيشون تحت الأرض معا. شومي تسأل شياو تشينغ: «هل يعرف (ووتشاو) قصتي؟».

يجيب شياو تشينغ: «يعرف قصتك، وقد اشترى قبرا من أجلك».

«هل اشتري قبرا من أجلي؟».

«بلى، وأعطاني النقود وطلب مني أن أشتري لك قبرا».

«من أين حصل على النقود التي أعطاكها لتشتري قبرا لي؟».

* * *

عندما هوت شـــومي من أعلى بنايـــة القصر، ولقيت حتفها، كان (ووتشاو) في بيت الأهل يقوم على خدمة والده الذي أصبح مطية المرض. وانتظر حتى استقرت أحواله الصحية، وبعد ذلك رجع بســـرعة إلى مسكنه تحت الأرض في المدينة، وكان ذلك في منتصف الليل، ولم ير شومي، وينادي عدة مرات بصوت خافت، ولم يســـتجب أحد. زمرة الجرذان في ملجأ ضد الغارات الجوية يحلمون بمسقط رأســـهم، وهو يمشي على امتداد الممر الضيق، ويبحـــث عن أناس يتكلمون، ويشـــعر بأن شـــومي ربما تتجاذب أطراف الحديث مع أناس خلف ســـتارة. ولم يسمع صوت أناس يتحدثون، وسمع فقط شخير الرجال وهذيان النساء، فضلا عن صوت بكاء الأطفال الرضع. كما شـــعر أيضا بأن شـــومي ربما تجلـــس في قاعـــة الكومبيوتر، وتدردش مع أناس على الشـــبكة العنكبوتية، ويتخذ وجهته إزاء مخرج ذلك الملجأ، ويرى الشـــاب شـــياو تشـــينغ يعود أدراجه بعد انتهاء الدوام الليلي ويخبره بأن شـــومي ليســـت موجودة في هذه الدنيا، لقد رحلت عن عالمنا، وماتت قبل ثلاثة أيام.

ويقول شـــياو تشينغ إن (وو شـــاو) لم يتبدل ولم يتغير بعد أن سمع أن شومي انتحرت بعد أن قفزت من أعلى بناية قصر (بينغ فيي)، وبعد فترة قصيرة يرتعد جسمه كله، ويهز رأسه باستمرار ويقول: مستحيل، مستحيل، ثم يهرول إلى مخرج ذلك الملجأ.

يهرول (ووتشـــاو) إلى أقرب قاعة كومبيوتر من مسكنه تحت الأرض، ويجلس أمـــام الكومبيوتر ويقرأ الســـجل اليومي الذي كتبته شـــومي في الفضاء الافتراضي على الفيســـبوك الصيني «كيوكيو» (QQ)، كما قرأ تقريرا حول انتحار شوميي. وفي تلك الأثنـــاء يصدق بصورة كاملة أن شـــوميي قد فارقت هذه الدنيا، وقد فارقته إلى الأبد أيضاً.

يجلس (وو تشـــاو) أمام شاشـــة الكومبيوتـــر المضيئة كأنه غائب عن وعيه حتى تعتم الشاشـــة بصـــورة فجائية وتصبح ســـوداء، وينهض واقفا ويغادر قاعـــة الكومبيوتر، ويرى غريبا يترجل في هدأة وســـكون الليل البهيم، ويأتـــي من مكان ناء، ويخاطـــب ذاك الغريب بصوت مرتعش قائلا: إن شـــوميي قد ودعت هذه الدنيا.

ينتفض ذلـــك الغريب ذعرا، ويعتقد أنه صادف مصابا بمرض عقلي، ويخطو إلى الشارع المقابل بخطوات واسعة، وعندما يمشي يلف رأسه إلى الخلف بحذر وخوف وتتسمر نظراته في وجهه.

وو تشاو يشـــبه الشبح الذي يتجول ويطوف في قساوة برودة الريح التي تهب على المدينة. ويمشي الهوينى بلا هدف في المدينة التـــي يلفها ظلام الليل الدامـــس، ولا يدري كم مضى من الوقت في تجواله، ولا يدري الأماكـــن التي طاف بها، وحتى عندما مر بجوار قصر بناية (بينغ فيي) لم يرفع رأسه، ولم يلق نظرة عابرة عليه. ومضى قدما في تجواله حتى انبلاج النهار، ومازالت نفسه أســـيرة الحيرة والتشـــوش الذهني، وفي الصباح الباكر تتزاحم الجماهيـــر وتضج فـــي ذهابها إلى الدوام، ولا يكف لســـانه عن الكلام، ويقول باستمرار إن شوميي يواريها الثرى.

أمارات التجاهل وعدم اللامبالاه تعلو وجوه الذين يقابلهم (وو تشـــاو) في الشـــارع، غير أن أحد المشاة يمشي بجواره جنبا إلى جنب، ويرى دموعه تنهمر بلا انقطاع، ويتكلم بصورة مســـتمرة، ويسأله في فضول: من هي الفتاة شوميي؟ يفكر مشدوها ذاهلا فتـــرة قصيرة، ويجيب: إنها الفتـــاة (ليوميي). يومئ ذاك الرجل برأسه ويقول لا أعرفها، وينعطف انعطافة وينصرف إلى غايته، ويرى (وو تشاو) طيفه وهو ينصرف، ويقول بصوت خفيض: إنها صديقتي.

وعندما أســـدل الليل ســـدوله، يعود (وو تشـــاو) أدراجه إلى مسكنه بســـرعة تحت الأرض، ويمدد جسمه على السرير الذي كان يتقاســـمه مع شـــوميي، وتعلو وجهه ملامح اللهب الشارد، وفـــي منتصف الفراش يغط في نوم عميق مرات عديدة، كما في حلمه يستيقظ على صوت بكاء مرات عديدة أيضاً.

وفي اليوم التالي، يستلقي على الفراش، ولم تتثل دموعه، ولم يبك أبدا، ولم يتناول الطعام ولا الشراب، ويسمع مذهولا صوت اضطـــلاع الجيران تحـــت الأرض بالطبخ، كما يســـمع أصوات أحاديثهم، ناهيك عن أصـــوات ركض وصياح الأطفال في ملجأ ضـــد الغارات الجوية، ولا يدري ماذا يفعلون، وماذا يقولون، وكل مـــا يدركه أن هناك أصواتاً تتماوج، تعلـــو حينا، وتنخفض حينا آخر.

يســـقط في هاوية ذكريات الماضي، وترتسم علامات البهجة والفرحة على وجه شوميي من حين لآخر، بالإضافة إلى أمارات الحـــزن والهم حينا بعـــد حين، ووجهها يشـــرق ويتلألأ فترة من الوقت، ويظلم ويعتم فتـــرة أخرى. وبعد انقضاء فترة طويلة من

الزمن، يدرك أن الخطــوة التالية التي يجب أن يقوم بها هي أن يبحث - على جناح الســرعة- عن أرض الراحة الأبدية من أجل شومیي. وكانت شــومیي مفعمة بالآمال والتطلعات في حياتها، ويبدو أنه لم يجعلها تحقق شــيئا من ذلك، وتجأر بالشكوى المرة تلو الأخرى، ثم بعد ذلك تنســى تذمرها بالشكوى مرة بعد مرة، وتبدأ تحدوها تطلعات جديدة. الآن يشعر بأن امتلاك قبر يجب أن يكون آخــر تطلعاتها، ولكن ما زالت تفتقــر إلى المقدرة على تحقيق ذلك.

في هذه الأثناء، ينبثق صوت رجل وســط جلبة وضوضاء تلك الأصوات المختلطة كرأس النصل يشــق الجعبة، ويجعله يســمع بجــلاء القصة التي يســردها ذاك الرجل الآن من أن شــخصا كسب أكثر من ثلاثين ألف يوان بعد أن باع كليته.

يجلس على الســرير ويفكر جيدا أن يبيع كليته ويحصل على أموال تمكنه من شراء قبر من أجل شومیي.

يخــرج من ملجــأ ضد الغــارات الجوية، ويدلــف إلى قاعة الكومبيوتــر. ويتذكر أنه قرأ أخبارا عن بيــع الكلية عندما كان يتصفح أخبار الإنترنت، ويســجل رقم الهاتف في بطن الراحة، وينصــرف من قاعــة الكومبيوتــر، ويعرج على كشــك التلفون العمومي ويتصل بــذاك الرقم. متلقي المكاملة الهاتفية يســأله بالتفصيــل ويتأكد تماما أنه يبيع كليته، ويحــدد موعدا لمقابلته أمام بناية قصر (بينغ فيي)، ويرتعد قلبه خوفا عندما سمع اسم ذاك القصر فقد سقطت هناك شومیي من أعلاه.

يصل نهاية قصر (بينغ فيي)، وحركة المركبات والمشــاة ذهابا وإيابــا تحدث ضجيجاً وعجيجاً، ويقف هو وظله حينا إلى حين،

والحافلات العامة تدخل وتخرج الواحدة تلو الأخرى من الكراج تحت الأرض المجاورة له، ويرفع رأسه مرات عديدة، ويحدق في أشـعة الشـمس المتلألئة على زجاج القصر والتي توجع العين، ولا يعرف المكان الذي وقفت فيه شوميي عندما انتحرت.

يمشـي رجل يرتدي معطفا أسـود محشـوا بالريش، ويقف أمامه ويسأل بصوت خافت: «أأنت وو تشاو؟».

وو تشاو يهز رأسه، ويقول ذاك الرجل بصوت خفيض: «امشِ معي».

وو تشـاو وذاك الرجل يزاحمان ويسـتقلان حافلة الركاب، وينـزلان من الحافلة بعد عدة محطات، ثم يركبان حافلة أخرى. وبعـد أن يركبا ويغيرا الحافلات سـت مرات، يبدو أنهما وصلا إلـى ضاحية قريبة، وو تشـاو يسـير وراء ذاك الرجل ويصلان إلى مدخل حي سـكني صغير، ويطلب ذاك الرجل من وو تشـاو أن يمشـي إلى الداخـل على طول، بينما هـو يقف عند مدخل الحي السكني ويتصل هاتفيا. يدخل وو تشاو هذا الحي السكني الصغير الذي يسوده الهدوء والسكون، ويرى في مكان ليس بعيدا بناية سـكنية يظهر أمامها رجل يدخن سيجارة، ويقترب منه وو تشـاو، يرمي هذا المدخن عقب السيجارة على الأرض ويدهسه بقدمه، ويسأله: «هل أنت تبيع الكلى؟».

يومئ ووتشـاو برأسـه، ويلوح ذاك الرجل بيـده، ويطلب من وو تشـاو أن يقتفي أثره، ويدلف إلى بناية سـكنية، ويمشي على امتداد السلم الإسمنتي المرقش، ويصل إلى غرفة تحت الأرض، وبعد أن يفتح ذاك الرجـل باب تلك الغرفة، يخرج الهواء الملوث والمشـبع بالروائح الكريهة مـن التدخين، وفي ظل ضوء المصباح

الخافت، يرى وو تشاو سبعة أشخاص في الداخل يدخنون السيجار، ويجلسون على الفراش ويتجاذبون أطراف الحديث، وهناك سرير خال ويمشي إليه وو تشاو.

يسلم وو تشاو بطاقة هويته، ويوقع على اتفاق بيع الكلية، وبعد سحب دمه وتحليله ينتظر تطابق فصيلة الدم، وبدأ يعيش حياة أخرى تحت الأرض، وينام داخل لحاف ملطخ بالزيت الأملس، وذاك اللحاف لم يغسل أبدا، ولا يدري عدد الأشخاص الذين تغطوا به في نومهم، وتفوح الروائح العفنة من الأجساد والأقدام والعرق. وذاك الرجل الذي أخذه إلى غرفة تحت الأرض، يدخل ويخرج مرتين كل يوم، ويشتري لهم علب السجائر الرخيصة، ويرسل الطعام مرتين، يأكلون الملفوف الصيني والبطاطس في الظهر، ويتناولون البطاطس والملفوف الصيني في المساء. ولا توجد طاولات ولا كراسٍ تحت الأرض، ويجلسون على الأسرّة ويتناولون الطعام، وهناك شخصان يجلسان القرفصاء دائما ويتناولان الطعام. وتفوح نكهة الطعام اللذيذ من تحت الأرض لفترة من الزمن، بيد أن دخان سجائر هؤلاء الأشخاص السبعة الذين يتناوبون التدخين يمكن أن تخمد النكهة الذكية، وعندما يغطون في النوم، يستيقظ وو تشاو في خضم دخان السجائر الكثيف، ويشعر بالاختناق في صدره ويتألم كثيراً.

هؤلاء الأشخاص السبعة من الشباب، ويعيشون عيشة البطالة من التدخين والدردشة، يدردشون حول أحوال مواقع البناء والتشييد، والمصانع، والشركات، ويبدو أنهم اشتغلوا في العديد من الأعمال. ويبيعون كلاهم من أجل الكسب السريع للمال، ويقولون الاشتغال عتال لبضع سنوات لا يكسبك نقودا

تعادل بيع كلية واحدة. ويتطلعون إلى حياة ما بعد بيع الكلى، حيث يستطيعون شراء الملابس الأنيقة، وشراء الهواتف الخليوية Iphade، كما يستطيعون الإقامة في الفنادق الفاخرة بضع ليال، ويتناولون عدة وجبات في المطاعم الفخمة، وبعد التشبث بتلك التطلعات يقعون فريسة للشعور بالقلق والهم، وينتظر هؤلاء الأفراد السبعة هنا لأكثر من شهر، وما زالت الأخبار عن تطابق فصيلة الدم بنجاح غير متوفرة. ومن بينهم شاب غشي أوكار بيع الكلى في خمس مدن، ومكث في كل وكر أقل من شهرين، ثم أجبر على الانصراف، وذكر أنه لا يوجد أحد يريد كليته، وتجار الكلى أعطوا له فقط مصاريف الطريق بما يتراوح بين أربعين وخمسين يوانا، واعتمد على هذا المبلغ في شراء تذكرة قطار، ويذهب إلى وكر آخر لبيع الكلى في مدينة أخرى. وقال إنه لا يمتلك فلسا واحدا، ويستطيع فقط أن يعيش عيشة المتسول في أوكار بيع الكلى تباعا.

ويبدو أن ذاك الشاب خبير ومجرب عركته الحياة، ويتذمر البعض من أن الطعام هنا رديء جدا، ويقول ليس الملفوف الصيني والبطاطس، بل نقول البطاطس والملفوف الصيني، وأضاف أن الطعام هنا لا يعتبر سيئا، ونستطيع كل أسبوع أن نأكل جبن فول الصويا مرة واحدة، ونحتسي شوربة الدجاجة منزوعة اللحم مرة واحدة أيضا، وذكر أنه غشي وكرا لبيع الكلى، ومكث هناك شهرين ويأكل الخضراوات العفنة كل يوم. وهناك شاب آخر يخشى على سلامة حياته إذا أجرى عملية استئصال الكلية، وتدل نبرة صوته على أنه خبير في هذا الشأن، ويذكر أن كلامنا هنا ليس صائبا، ويعتمد ذلك على الحظ بصورة كاملة. وأردف

أن تجار الكلى من عديمي الضمير، وأصحاب الضمائر الحية لا يتجرون في الكلى، ومن أجل كسب المال لا يستعين هؤلاء التجار بالطبيب النظامي لأن أجره غال جدا، ومن ثم يستعينون بالطبيب البيطري في عملية استئصال الكلى.

وقد قيل إن الطبيب البيطري يستأصل كلية ذاك الشاب، فيشعر «نفر من الشباب الآخرين بالغضب والغيظ، ويقولون إن تجار الكلى الأوغاد يكسبون أموالا طائلة، وأخلاقهم منحطة إلى هذا الحد».

ومع ذلك، يقابل ذاك الشباب المخيف بلا خوف، ويقول: هل تضاءل عدد البشر من ذوي الأخلاق المنحطة، والأحوال المزرية السقيمة في تلك السنوات؟ وفضلا عن ذلك الطبيب البيطري هو طبيب بشري، وهؤلاء الأطباء البيطريون متخصصون في استئصال كلية الإنسان، واكتسبوا المهارة بالتجربة بفضل إجراء الكثير من عمليات استئصال الكلى، وربما فن الطب أكثر براعة وحكمة من الطبيب الجراح في المستشفى النظامي.

وتنتاب ذاك الشاب سورة من الغضب لأنه لم يتوقع أنه لا يوجد أحد يشتري كليته. ويقول إنه من منكودي الطالع، وتطابق فصيلة الدم لم تنجح أبدا. ويقول تشهد كافة أرجاء البلاد مليون مريض بالكلى كل سنة، ويعتمدون على الاستفراز[1] للبقاء على قيد الحياة، وإن العمليات الخاصة بزراعة الكلى بصورة شرعية تبلغ حوالي أربعة آلاف عملية فقط. ولماذا لا يوجد أحد يريد كليته؟ ويعد ذلك نسبة واحد في المليون. ومن المؤكد أن هؤلاء

(1) الاستفراز: عملية إفراز المواد المتبلورة (أو المنحلة) من رسوب متعلق في محلول بفعل قدرة الجزئيات على التخلل في غشاء قابل للتخلل فيه وتكون هذه العملية في استفراز الشوائب من الدم عند عجز الكلية عن الإفراز (أو) تصفية الدم. [المترجم]

المســـؤولين عن تطابق فصيلة الدم ســـواء من الرجال الأوغاد أو النســـوة القبيحات لا يضطلعون بعملهم بصورة دقيقة، وأرجؤوا عملية كليته النابضة بالحياة حوالي ســـنة تقريباً. وقال إذا أجبر علـــى المغادرة مرة أخرى، فإنه يغشـــى المعبـــد - أولا - ويحرق البخور ويتضرع لبوذا بأن يغمده بالرعاية والحماية، ويجعله يبيع كليته في أســـرع وقت ممكن، ثم يشـــتري تذكـــرة القطار ويقفز داخله ويدلف إلى وكر بيع الكلى.

وو تشاو لم يفه بحرف بعد أن حضر إلى الغرفة تحت الأرض، ويسمع بعدم اكتراث ثرثرتهم، وما زال يلتزم الصمت حتى عندما ســـمع أن الطبيب البيطري سيجري عملية استئصال الكلية، بيد أنه شعر بالحزن الشـــديد في فترات زمنية طويلة عندما يتذكر صديقته شومي. كما يتوسل إلى بوذا أن يمكنه من تحقيق نجاح تطابق فصيلة الدم بأسرع ما يمكن، وبعد أن يبيع كليته يستطيع في التو أن يشـــتري قبرا من أجل شومي. وعلى كل حال، هؤلاء الشـــبان الســـبعة الذين يقطنون في غرفة تحت الأرض انتظروا وقتا طويلا جدا، ومن بينهم شـــاب ما زال تطابق فصيلة دمه لم ينجح منذ حوالي سنة، مما جعله فريسة للهموم والأحزان وعدم الاطمئنان، ويهاجمه الأرق ويقض مضجعه، ويتقلب في فراشـــه ولم يذق طعم النوم فوق ســـرير ملطخ بالأوساخ ويكتظ بالروائح الكريهة.

وفي اليوم السادس لمجيئه إلى الغرفة تحت الأرض، كان ذلك بمثابـــة ميقات خروجهم من الغرف لتســـلّم الطعام، ولا يظهرون فـــي أي وقت من الأوقات الأخـــرى، ويفتح ذلك الشـــاب الباب وينادي: «وو تشاو».

لا يزال وو تشاو قابعا داخل اللحاف الملطخ بالزيت الأملس، ولم يستجب للنداء، كما أن الشباب السبعة الآخرين في الغرفة تحت الأرض يتبادلون النظرات مراراً وتكرارا، ويدركون أن الشاب المنادى عليه ليس من بينهم، بل إنه الشاب الذي بعد أن دخل غرفته لم ينطق بكلمة، وينادون في ذهول ودهشة: «اخرج بسرعة».

الواقف أمام الباب يقول: «وو تشاو، لقد نجح تطابق فصيلة الدم».

يرفع وو تشاو اللحاف الملطخ بالزيت، ويحظى بالإعجاب من قبل الشبان السبعة الآخرين، ويرتدي ملابسه وحذاءه، وعندما يترجل نحو الباب يخاطبه ذاك الرجل الذي ذهب إلى أوكار بيع الكلى في خمس مدن، قائلا:

«أنت أصابك الثراء الفاحش في هدوء وبلا ضجة».

يتبع وو تشاو خطوات ذلك الرجل ويسيران على امتداد السلم الإسمنتي المرقش، ويصعدان إلى الطابق الرابع، ويطرقان على الباب، وبعد أن يفتح الباب، يرى وو تشاو رجلا متوسط العمر يجلس على الأريكة، ويطلب منه بصورة حميمة أن يجلس، ثم يشرح له أن جسم الإنسان يحتاج إلى كلية واحدة فقط في الواقع، وأن الكلية الأخري زائدة مثل الزائدة الدودية يمكن أن تبقى داخل جسم الإنسان، كما يمكن استئصالها أيضا.

ووتشاو لا يعير ذلك اهتماما، ويسأل ذلك الرجل متوسط العمر: «ما ثمن شراء الكلية الواحدة؟».

الرجل متوسط العمر يجيب: «خمسة وثلاثون ألف يوان صيني».

وو تشاو يومئ برأسه بعد أن يشعر بأن هذا المبلغ يكفي لشراء قبر.

يقول الرجل متوسط العمر: «نشتري الكلية هنا بأعلى سعر، بينما في الأماكن الأخرى يدفعون ثلاثين ألفا فقط».

الرجل المتوسط يخبر وو تشاو بأنه لا داعي للخوف من إجراء العملية الجراحية، وأنهم يطلبون أطباء من كبريات المستشفيات، وأن هؤلاء الأطباء يجرون تلك العملية مقابل الحصول على دخل زائد.

يقول وو تشـاو: «إنهـم يقولون إن الطبيـب البيطري يجري العملية».

الرجل متوسـط العمر غير مسـرور جدا، ويقـول: «الأطباء الذين نسـتعين بهم جميعهم من الأطبـاء الجراحين النظاميين ويتقاضون خمسة آلاف يوان مقابل استئصال الكلية الواحدة».

يقطن وو تشـاو في غرفة بالطابـق الخامس، ويوجد داخلها أربعة أسـرة، وهناك شـخص واحد فقط يرقد في الغرفة، إنه خضـع لعملية اسـتئصال الكلية، وعندما يرى وو تشـاو يدخل الغرفة، يبتسم بصورة حميمة، ويبادله وو تشاو الابتسامة أيضا.

وقد نجحت عملية استئصال كلية ذلك الشخص نجاحا كبيرا، حيث يتمكن من أن يسند جسمه، وينهض واقفا متكئا على رأس السـرير، ويتحدث مع وو تشاو. ويقول إنه لم يعد يشعر بالحمّى مرة أخرى، ويسـتطيع مغادرة المستشفى في غضون بضعة أيام. ويسأل وو تشاو: لماذا تريد أن تبيع كليتك؟ ينكس وو تشاو رأسه ويفكر قليلا، ويخاطبه قائلا:

«من أجل صديقتي».

يقول ذلك الشخص: «مثلي تماما».

ذلك الشخص يخبر وو تشاو بأنه تعرّف إلى صديقته منذ ثلاث سنوات في مسقط رأسه بالريف، وبأنه يرغب في زواجها، ولكن أهل بيتها يشترطون بناء بيت في المقام الأول حتى يستطيع زواجها. ومن ثم خرجت للعمل وكسبت منه مالا ضئيلا يثير الشفقة من جانب الآخرين، ويتعين عليّ أن أعمل فترة تتراوح بين ثماني سنواتن وعشر حتى أستطيع كسب المال اللازم لبناء البيت. وفي تلك الأثناء تتزوج صديقتي من شخص آخر في وقت مبكر. وأنا في حاجة ماسة إلى المال لبناء البيت، ولذلك جئت هنا لأبيع كليتي، وأردف قائلا: «كسب المال يكون سريعا هنا».

يفتر ثغره عن ابتسامة وهو يتكلم، ويقول إنهم مثله تماما، لا يفكرون في الزواج ما داموا يفتقرون إلى بيت. ويسأل وو تشاو: أتوجد مثل هذه العادة في قريتكم أيضا؟

يطأطيء وو تشاو رأسه، والدموع تخضب عينيه بصورة فجائية، ويتذكر صديقته شوميي ويتذكر الفقر المدقع الذي يطارده دائما وجعله كسير الفؤاد، وينكس رأسه حتى يوارى دموعه عن ذلك الشخص.

يرفع رأسه ويسأل بعد فترة وجيزة: «لماذا لا تخرج صديقتك للعمل؟».

يقول ذلك الشخص: «ترغب في الخروج والعمل، ولكنّ أباها مصاب بالشلل، وأمها مريضة أيضا، وهي الابنة الوحيدة لديهما، وليس عندهما أولاد، ولذلك لا يمكن أن تترك البيت وتعمل».

يتذكر وو تشاو مصير شوميي، ويقول جملة بلا تفكير: «من الأفضل ألا تعمل».

وتختلف الحياة في الطابق الخامس اختلافا كبيرا عن نظيرتها في غرفة تحت الأرض حيث لا يوجد هواء ملوث وفاسد، واللحاف نظيف، وهناك أشعة الشمس في النهار، وضوء القمر في الليل. وتستطيع في البكور أن تأكل بيضة وفطيرة بالبخار، وتحتسي سلطانية مرقة الرز، وتأكل علبة طعام في الظهر والمساء، ويوجد داخلها لحم حينا، وسمك حينا آخر.

وو تشاو يستيقظ من نومه ويغمره ضوء الشمس، ويغط في النوم وسط نور القمر. وفي هذه المدينة لم يستمتع بمثل تلك الحياة منذ فترة طويلة جدا، وقد عاش أكثر من سنة تقريبا يستيقظ من نومه وينام في غرفة تحت الأرض لا تعرف نور الشمس، ولا نور القمر أيضاً. والآن يشعر بجمال وروعة نور الشمس والقمر، ويغمض عينيه حتى يستطيع التأثر بنورهما وإشراقهما. وتوجد شجرة جفت واصفرت في الشتاء خارج نافذته، وعلى الرغم من جفافها واصفرارها، بيد أن الطيور ما زالت تحوم حولها وتقف على أغصانها، وفي بعض الأحايين تزقزق بصوتها صوب نافذتهم، ثم تصفق بجناحيها وتحلق عاليا فوق سقوف الحجرات الواحدة تلو الأخرى، ويجول بخاطره صورة صديقته شوميي التي شاركته الحياة أكثر من عام ولم تستمتع فيها بضوء القمر في نومها، ولم تستمتع بضوء الشمس في استيقاظها، ولا يتمالك نفسه ويشعر بالألم يعتصر قلبه.

وبعد انقضاء ثلاثة أيام، وو تشاو يقتفي خطوات ذلك الرجل في منتصف العمر ودخل غرفة تخلو من النافذة، ويطلب منه شخص يضع على عينيه نظارة على غرار الطبيب تماما، أن يمدد جسمه فوق طاولة الجراحة ذات التجهيزات البسيطة، وتتسلط

عليــه الأضواء الســاطعة القوية، وبعد أن يغمــض عينه ما زال يشــعر بألم شديد في عينيه، ويفقد وعيه بعد التخدير. وعندما يعود إلى رشده، يجد نفسه طريح فراشه في تلك الغرفة الزاخرة بالهدوء والســكون التام، وقد غادر ذلك الشخص الغرفة نفسها وبقي هو بمفرده يقيم هنا ويرى بجوار الوســادة كيس مضادات حيوية، وزجاجة مياه معدنية، ويحركها قليلا ويشعر بألم ممض في جانبه الأيســر لفترة طويلة، ويدرك أنه تم اســتئصال الكلية من الجانب الأيسر.

يأتي الرجل في منتصف العمر لزيارته مرتين كل يوم، ويسدي النصــح إليه بتناول مضادات حيويــة في الوقت المحدد، وأخبره بأنه سيتعافى في غضون أسبوع، وو تشاو يقيم بمفرده في غرفة بالطابــق الخامس، وتأتي الطيور لزيارتــه كل يوم بعضها يحلق ويطير أمام النافذة، وبعضها يمكث مؤقتا على أغصان الشــجر، وزقزقة تلك الطيور تشبه الدردشة والثرثرة في عيشة البطالة.

وبعــد انقضاء أســبوع، الرجل فــي منتصــف العمر يعطي وو تشاو خمسة وثلاثين ألف يوان، ويطلب سيارة تاكسي، ويرسل شــخصين يحملانه في قبضة أياديهما، ويقومــان بإعادته إلى مسكنه في ملجأ ضد الغارات الجوية.

يعود وو تشاو أدراجه، ويرى الجيران في ذلك الملجأ شخصين غريبين يرفعانه ويدخلانه غرفته، ويضعانه على فراشه، ويعرفون آنذاك أنه باع كليته من أجل أن يشتري قبرا لصديقته شوميي.

وو تشــاو طريح الفــراش، وتنفد المضــادات الحيوية بعد بضعة أيام، ولا تزال الحمى لا تبرح جسده، وسقط في الغيبوبة مرات عديدة، وبعد أن عاد إليه وعيه، يشــعر بأن جسده يبدو

أنـــه ينفصل عنه، ويأتي هــؤلاء الجيران تحت الأرض لزيارته، ويقدمون له الأطعمة، بيد أنه يســتطيع فقط أن يشــرب النزر اليســير من الحساء. يقول نفر من الجيران: يجب إرساله إلى المستشــفى، وهو يهز رأســه بصعوبة بالغة، ويدرك أنه بمجرد دخوله المستشــفى، سوف يفقد جميع النقود التي حصل عليها مقابل بيع كليته. ويثق في نفسه بأنه يستطيع أن يشفى ويسترد عافيته، ولكن هذه الثقة تتضاءل كل يوم، وتزداد مرات سقوطه في الغيبوبة عن ذي قبل، ويدرك بنفســه أنه يعجز عن اختيار قبر شــوميي، وتســح دموع الحزن والألم من عينيه من جراء ذلك.

وذات مرة يعود وو تشاو إلى وعيه بعد غيبوبة، ويسأل بصوت خافت كوكبة مــن الجيران الذين يصطحبونه قائلا: «هل حلقت الطيور هنا؟».

يواصل وو تشــاو كلامه مبتســما، ويردف: «ســمعت زقزقة الطيور».

يقــول جار من بينهــم: «وأنا في طريقي إلــى هنا توا رأيت خفاشا».

يقول وو تشاو: «ليس خفاشا، بل طائر».

يقول شــياو تشــينغ في زيارتــه الأخيرة لوو تشــاو، كان -آنــذاك- يفتح عينيه بصعوبة بالغة، وطلب منه المســاعدة، وأخبره بأنه يضع تحت الوســادة خمســة وثلاثين ألف يوان، وطلــب منه أن يأخــذ ثلاثة وثلاثين ألفا، ويشــتري قبرا من أجل شوميي، كما يشــتري شاهدة القبر من النوع الجيد إلى حد مــا، ناهيك عن علبة رفات العظام. وقال إنه يدخر ألفي

يوان لنفســـه حيث يحتاجهما ليعيش عيشة مريحة ويزور قبر شومِيي عند حلول عيد الصفاء والنقاء[1] كل عام.

وبعــد أن يفرغ من كلامه يئن أنينا، ويلف جســمه على جنبه، ويطلــب من شــياو تشــينغ أن يأخذ النقود من تحت الوســادة، ويوصيه بأن يحفر على شاهدة القبر العبارة التالية: «قبر الفتاة شــوميي التي يعشقها وو تشــاو»، كما طلب منه أن ينقش اسمه على تلك الشاهدة.

وعندما يأخذ شــياو تشــينغ ثلاثة وثلاثين ألــف يوان، ويهم بالانصراف، يناديه وو تشــاو بصوت خافــت ويطلب منه العودة إليه ويخبره بأن يغير اســم «شــوميي» على شــاهدة القبر إلى اسمها الحقيقي «ليوميي».

* * *

تبكي شــوميي بحرقة، وصوت بكائها شــبيه بصوت طقطقة المطــر، ويغمر كافة الوجوه والأجســاد هنا مثــل صوت هطول الأمطــار على أشــجار موز اليابان، وينبثق صوت بكاء شــوميي من بين صوت غناء ســبعة وعشــرين طفلا رضيعا، ويبدو مثيرا للشعور ويخدش السمع.

وهناك كثــرة كاثرة مــن ذوي الهياكل العظميــة تصغي بكل جوارحها، وتتساءل فيما بينها: من تصدح بالغناء؟ وصوت غنائها الحزين يؤلم النفس، ويقول قائل إن ذلك ليس غناء، بل هو صوت بــكاء، إنه بكاء تلك الفتاة الجميلة التي حضرت حديثا، إنه بكاء

(1) ميقاته في اليوم الخامس من شــهر أبريل حيث إن الســماء صافية والهواء نقي، ويعني ذلك أن جميع الكائنات الحية، تنمو وتزدهر أثناء تلك الأيام حيث الصفاء والنقاء والنظافة والإشراق [المترجم]

تلـك الفتاة الجميلة التي ترتدي البنطال الرجالي الطويل، وذاك البنطال فضفاض وطويل، وتلك الفتاة الحسناء تدوس بأقدامها على أرجل البنطال وهي تمشي كل يوم، والآن لم تعد تذرع المكان جيئة وذهابا، وتجلس على الأرض وتنخرط في البكاء.

تجلس شـوميي بين الأعشـاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشـجار على ضفة النهر، وتسـند جسـمها على الشـجرة، ويغطي العشـب النضير والزهور البريـة، التي تتفتق بين ذلك العشب، سـاقيها، ومياه النهر بجوارها تخر خريرا مثل جدول يترنم. والدموع تغمر وجهها مثل ندى البكور الذي يغطي أوراق الأشـجار، وتدمدم بصوت الغناء والبكاء في آن واحد، وتعدل بيديها البنطال الرجالي الطويل وتحوله إلى تنورة نسوية طويلة.

يقف شياو تشينغ بجوار شوميي مثل شارة الطريق، ويحملق في البشـر من ذوي الهياكل العظمية التي تأتي من كل فج عميق ناهيك عن أكثر من عشـرة أشـخاص أجسامهم سليمة يمشون في جماعة بعد أن كانوا متفرقين، يمشون ويتقدمون إلى الأمام، ويصغون باهتمام إلى كلمات شياو تشينغ الذي ترتسم على وجهه تعابير تدل على أنه في رحلة نسـيان. وفي سـرده لحالته يتكلم تارة في الشـرق وتارة في الغرب كأنه يسرد مشهدا متقطعا في حلمه بلا بداية أو نهاية.

يأتي الناس جميعهم المقيمون هنا، ويعرفون أن شوميي سوف تتوجـه إلى أرض الراحة الأبديـة، ويقولون بهدوء وبصوت ناعم إن الذين حضروا هنا لم يغادر منهم أحد، وشـوميي هي أول من يرحل عن هذا المكان، وإن جسمها في حالة سليمة، وجمالها في حالة جيدة.

الجماهيـــر هنا غفيرة ومتراصة، ويتطلعـــون إلى إلقاء نظرة على شوميي الجالســـة بين الأعشاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشـــجار، وتبكي بحرقة، وتخيط تنورة طويلة، ثم يمشون إليها ويشـــكلون دائرة مســـتديرة حولهـــا في كافة الجهـــات، وعندما يتقدمـــون إليها يدخلون بانتظام وتنســـيق مـــن الأمام والخلف، بعضهـــم في الأمام، وبعضهم في الخلف، وهذا المشـــهد شـــبيه بالأمواج القوية، التي تعلو الواحدة تلو الأخرى صفحة الماء، وكل واحد منهم يهنئ بنظراته الصامتة الفتاة الجميلة شـــوميي التي سوف ترحل إلى أرض الراحة الأبدية.

ينبثـــق صـــوت عجوز ويحوم حـــول الجماهيـــر الملتفة حول شوميي التي تنكس رأســـها على الدوام، وتبكي بحرقة، وتخيط تنورة طويلة، ويخاطبها ذاك العجوز قائلا:

«أيتها الطفلة يتعين عليك تطهير جسدك».

ترفع شوميي وجهها الذي يغص بالدموع، وتحملق مشدوهة فـــي الهيكل العظمي الذي يصدر منه ذلـــك الصوت، وتكف عن خياطة التنورة.

يقول العجوز: «عندما يحين وضعك في التابوت يجب تطهير الجسد».

تقول شوميي: «لم يتم الانتهاء من خياطة التنورة بعد».

ينبثق صوت ثلة من النســـوة، ويقلن: «نحن نضطلع بالحياكة بالإنابة عنك».

عشـــرات من النســـاء ذوات الهياكل العظمية يتقدمن إلى شـــوميي، ويمددن نحوها العشـــرات من الأيادي ذات الهيكل العظمـــي. ترفع شـــوميي التنـــورة التي في يدهـــا ولم تكمل

خياطتها ولا تعرف أن تسـلمها في يدي أي امرأة، وتخاطبها امرأتان وتقولان:

«كنا نعمل في مصنع حياكة الملابس».

تعطي شومي التنورة التي لم تكتمل خياطتها لتينك المرأتين، وترفع رأسها، وتتسمر نظراتها في الهيكل العظمي للعجوز الذي يقف أمامها، وتسأله في نبرة يشوبها بعض الحياء:

«هل يمكن ارتداء الملابس؟».

الهيـكل العظمي للعجوز يهز رأسـه، ويقول: «ارتداء الملابس لا يمكنك من تطهير الجسد».

تخفـض شـومي رأسـها، وتضطلع بحركـة بطيئة وتجعل ملابسـها الخارجية تنفض عن جسـمها، كما تجعل ملابسـها الداخليـة كذلـك، وعندما بدا للعيان سـاقاها المندسـتان في العشـب النضير وبـين الأزهار البرية المتفتقة، ينفض جسـمها سـروالها التحتاني القصير. جسد شومي الجميل يسجّى على أديم الحشيش الأخضر والأزهار البرية، وبعد أن يندمج ساقاها وتتقاطـع يداها علـى بطنها، وتغمض عينيها، تبـدو كأنها تنعم بالطمأنينـة والهدوء في الحلم. الأعشـاب الخضـراء والأزهار البريـة بجوار شـومي تتمايـل أعوادها وتنحني علـى التوالي كأنها تحملق في جسـد شومي، ونظراتها المحدقة تغطي جسد شـومي، ومن ثم لم نعد نرى جسدها، بل نشاهد فقط جسمها ينمو ويترعرع فوق العشـب النضير، وتتعانق الأزهار البرية فوق جسمها.

يقـول العجوز ذو الهيكل العظمـي: «الناس في ذاك الجانب لديهم الأقارب الأقربون والأقارب الأبعدون، وهناك لا يوجد أحد

منهم يقوم بواجباته. والناس في ذاك الجانب عندما يوضعون في التابوت يقوم أهل البيت بتنظيف أجسادهم، وهنا نعتبر أنفسنا أهل بيت الفتاة شوميي، وكل واحد منا ينظف جسدها، والناس في ذاك الجانب يغرفون الماء بالسلطانية ويطهرون الأجساد، ونحن هنا نضم اليدين معا حتى يشكلا سلطانية».

وبعد أن يفرغ الهيكل العظمي للعجوز من كلامه، ينزع ورقة شجر ويسد بها الشق بين اليدين ويتوجه إلى النهر، ورهط من الناس يحيطون شوميي، ويخرجون في فريق متناسق ومنتظم وينتزع كل واحد منهم ورقة شجر يسد بها الشق بين اليدين، ويتشكل رتل طويل من سلطانيات ورق الأشجار، ويسيرون وراء الهيكل العظمي للعجوز على ضفة النهر، ويشكلون زاوية نصف قطرية تزداد طولا كلما مشوا مثل خيط يسحب من كرة من الخيوط. كان ذلك العجوز أول من يجلس القرفصاء، وبعد أن يغرف ماء النهر بسلطانية من ورق الشجر في راحتي يديه، ينهض واقفا ويمشي، ويحذو حذوه الذين يتبعونه في الخلف. الهيكل العظمي للعجوز يمشي إلى أمام الفتاة شوميي التي تمدد جسمها هناك ويحمل مياه النهر الصافية النقية في ورقة الشجر براحتي يديه. وبعد أن يفك ضم اليدين يتناثر الماء من تلك السلطانية على جسد شوميي التي تترعرع فوق العشب النضير والأزهار المتفتقة، وبعد أن يرتوي هذا العشب وتلك الأزهار بمياه النهر، تهتز أوصالها وتروي جسد شوميي.

الهيكل العظمي للعجوز يحمل في يده اليسرى تلك ورقة الشجر المبللة بالماء، ويمسح عينيه بيده اليمنى كأنه يكفكف دموع وداع أهل بيته، والآخرون مثله تماما يحذون حذوه من

التقـــدم إلى هناك حيث ترقد شـــومي، ويحملون مياه النهر في سلطانية مصنوعة من ورق الشجر براحتي اليدين، ويفكون ضم اليدين، ويتناثر الماء على جســـد شومي ويطهره، ويسيرون وراء ذاك الهيكل العظمي إلى مكان ناء يشـــبه الدرب الضيق المتعرج إلى الأمام. ويحمل بعضهم أوراق الشـــجر فـــي أياديهم اليمنى، والبعض الآخر في أياديهم اليســـرى، وتتساقط من تلك الأوراق آخر قطرة ماء وسط هبوب النسائم.

وتشكل تلك الهياكل العظمية الثمانية والثلاثون، والتي دفنت من جراء كارثة طريق في الســـوق، دائما دائرة مســـتديرة وتذرع المكان جيئة وذهابا، والآن تفرقوا ويجلســـون القرفصاء الواحد تلو الآخـــر، وبعد أن يغرفـــوا الماء بالســـلطانيات المصنوعة من أوراق الأشجار في راحات أياديهم ينهضون ويقفون على التوالي، ويعرجون على الفتاة شومي بالتتابع، وينثرون الماء بالتسلسل من أياديهم على جسد شومي من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وهي تتمدد على الحشـــيش الأخضر والأزهار البرية. تبدأ تلك الطفلة تنشج، وبدأ ذلك الطفل ينشج أيضا، وبالإضافة إلى ذلك، تصدر تلك الهياكل العظمية، في الوقت نفسه، صوت النشيج في مشهد أثار الشجون.

وعلـــى الرغـــم من أن أجســـادهم تم فصلها، بيـــد أن صوت نشيجهم ما زال يتكور في دائرة مستديرة.

أســـرة صاحب المطعم تان جيا جين تصطف في رتل طويل، ويحملون مياه النهر في ســـلطانيات من ورق الشجر في راحات أياديهم، ويحذون حذو الآخرين وينكسون رؤوسهم، ويمشون ببطء شـــديد إلى شومي، وينثرون عليها الماء من أياديهم، كما يرشون

الماء مع دعواتهم بالخير للفتاة شوميي التي تتوجه إلى أرض الراحة الأبدية حالا. وابنة تان جيا جين تكفكف دموعها بيديها، ويترنح جسمها قليلا، وأوراق الشجر التي في يدها تسقط على الأرض، ولا تدري أين ستكون أرض راحتها الأبدية، ويمد تان جيا جين يده ويمسك بإحكام ذراع ابنته، ويخاطبها قائلا:

«مادامت أسرتنا تقيم معا، لايهم أين تكون أرض الراحة الأبدية».

ومنذ عشر سنوات ونيف جاء إلى هنا كل من تشانغ غانغ، والرجل (لي) اللذين يجلسان على الأرض ويلعبان الشطرنج تارة، ويتشاجران بسبب محاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج تارة أخرى، يحملان بورع مياه النهر في سلطانية من ورق الشجر، وينثران بخشوع الماء على جسد شوميي المتشح بالحشيش الأخضر والأزهار البرية. وعندما رحلا عن هذه الدنيا، يدير (لي) رأسه إلى الخلف مرات عديدة ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وتبرز للعيان تعابير تشانغ غانغ من تلهفه الشديد إلى الذهاب لأرض الراحة الأبدية، ويربت بيده ذات الهيكل العظمي على كتفه ذي الهيكل العظمي أيضا، ويخاطبه قائلا: «لا تنتظرني، اذهب أنت أولا».

يطأطئ (لي) رأسه ويقول: «لم نفرغ بعد من لعب الشطرنج».

وشاهدت الناس ينصرفون بعد أن قاموا بتنظيف جسد شوميي، ويتدفقون كأنهم دروب ضيقة وطويلة، كما أنه ما زال هنا رتل طويل جدا من الذين يحملون سلطانيات من ورق الأشجار في راحات أياديهم، ويبدو أن ذلك المشهد بدأ توا، كما حضر أبوا الابنة جينغ شياو ميي، لا تزال أمها

تبـــدو عليها أمارات الخجل والحياء، وجســـمها مكور، وتضع يديها على فخذيها عندما تمشـــي، أما أبوها فيلصق جسمه بها، ويمســـكها بيديه بقوة، ويعد جسمه ويداه بمثابة الملابس التي تغطي جســـمها. وعندما يمدان أياديهما وينزعان ورقة الشـــجر، يفترقان ويمشـــيان صوب ضفة النهر، ويجلســـان القرفصاء، ويغرفان ماء النهر، وعندما يمشيان ويحملان في أياديهما ســـلطانيات من ورق الشجر، الأب يمشي في الأمام والأم تتكس رأســـها، وتتبعه في الخلف عـــن كثب، ويتحركان داخل رتل طويل جدا.

ينتشر في الآفاق صوت غناء يشبه العندليب. وكان صوت الغنـــاء متقطعا. لـــي يوي جين ترتدي فســـتانا أبيض، وتأتي بخطـــوات وئيدة، وتشـــكل فريقا من الأطفـــال الرضع البالغ عددهم ســـبعة وعشـــرين رضيعا، والذين يقتفـــون أثرها في الخلف، ويصدحون بالغناء ويحبون، وربما يشعرون بحكة في رقابهم من جراء الحشـــيش الأخضر، وصوت ضحكات هؤلاء الرضـــع تقاطع بين الحين والآخر صـــوت الغناء الرائع. وقبل أن تحضر إلى هنا، تحمل لي يوي جين هؤلاء الأطفال الرضع الواحد تلو الآخر، وتضعهم على أوراق الأشجار الضخمة على ضفة النهر، ويتمدد هؤلاء الرضع فوق أوراق الأشـــجار التي تتمايل مع هبـــوب الريح، ولم يعد صـــوت الغناء متقطعا، بل تدفق مثل مياه النهر.

تسمع شـــومي، التي يكتسي جســـدها بالعشب النضير والأزهـــار البرية، صوت غناء يشـــبه العندليب يحوم في كافة الأصقاع، وتتخرط دون أن تدري في الغناء مع هؤلاء الأطفال

الرضع. وأصبحت شـــوميي المغنّي الرائـــد. وتصدح بالغناء، ويردد الرضـــع وراءها الغناء جملة بعد جملة، وتقود الجوقة، ويبـــدأ الغناء الجماعي من حيث انتهى، كأنها قامت بالتجربة والتدريب جيدا، وصوت غناء شـــوميي والأطفال الرضع يعلو حينا، وينخفض حينا آخر.

كنت أعتزم أصلا السير إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية، وأخطـــو خطوات البحث عن والدي، بيـــد أن أقدامي تعثرت هنا.

اليوم السابع

تقول شـــومـيـي: « لم يعرف جســـدي تلـــك النظافة على هذا النحو، ويبدو أنه بات شفافا وجليا».

«قمنا جميعا بتنظيف جسدك».

«أعرف ذلك، شاركت كثرة كاثرة في تطهير جسدي».

«ليس أناساً كثراً، بل شارك جميع الناس في تنظيف جسدك».

«وأشعر كأن مياه النهر كلها تتدفق من جسمي».

«اصطـــف جميع الناس هنا في رتل، وحملـــوا مياه النهر في كفوفهم ونثروها على جسدك».

«أنتم جميعاً تحبونني حقا».

«نعامل أي إنسان هنا معاملة طيبة ونحبه».

«كما ستقومون بتوديعي إلى أرض الراحة الأبدية».

«أنت أول من يرحل من هنا ويتوجه إلى أرض الراحة الأبدية».

نمشـــي على الطريـــق، وجموع غفيرة تحف بالفتاة شـــوميي التي تتوجه إلى مؤسســـة الخدمات الجنائزية استعداداً للرحيل إلى أرض الراحة الأبدية. وهذا الطريق عبارة عن أرض ســـهلية شاسعة مترامية الأطراف، ولا ترى العين نهاية طوله، كما لا ترى نهاية عرضه، ويبدو كأنه مثل تلك السماء المكشوفة الواسعة التي تعلو رؤوسنا.

تقول شوميي: «عندما كنت في ذاك الجانب، كان فصل الربيع الأكثر حبا في نفسي من بين فصول السنة، والشتاء الأكثر مقتا. وتتقلص أوصالي في الشـــتاء قـــارس البرد، وعندما يأتي الربيع تتفتق الأزهار، وجســـمي يكـــون أكثر قوة وحيويـــة أيضاً، ولكن عندما انتقلت إلى هذا الجانب، أصبحت أحب الشـــتاء، وأخشى الربيع لأن قدومه يجعل جسمي يتعفن رويداً رويداً. والآن أشعر بالارتياح، ولا داعي للخوف من الربيع».

ينبثق من بيننا شـــخص يقـــول: «الربيع يعتبـــر بمثابة مباراة بطولة في العَدْوِ في الألعاب الأولمبية في ذاك الجانب، ومع ذلك لا يستطيع اللحاق بك».

تتخرط شوميي في نوبة ضحك.

يقول شخص آخر: «أنت فتاة حسناء جداً».

تقول شـــوميي: «أأنـــت تتفوه بتلـــك الكلمات حتـــى تجعلني سعيدة؟».

يقول الكثيرون منا: «أنت فتاة جميلة جداً».

«عندمـــا كنت فـــي ذاك الجانب، كانوا يديرون رؤوســـهم إلى الخلف، ويحدقون فـــي وجهي، وعندما جئت هنـــا، أنتم تلتفون وتحملقون في معالم وجهي أيضا».

«ونطلق على ذلك أن الدوران للخلف والالتفات إليك بنســـبة عالية جداً».

«أجل، في ذلك الجانب يسمون ذلك نسبة الالتفات إلى الخلف».

«وهنا يطلق عليه نفس التسمية».

تتخرط شـــوميي في نوبة ضحك مرة أخرى، وتقول: «يسمى ذلك نسبة الالتفات في ذلك الجانب، وهنا أيضًا».

نقول: «نسبة الالتفات إليك تقتفي أثرك حيثما ذهبت».

«كلامكم معسول حقاً».

نشاهد شـوميي تترجل مرتدية التنورة التي كانت في الأصل ذلـك البنطال الرجالي الطويل. التنورة طويلة جداً، وتحجب عن أنظارنا قدميها عندما تمشي، ونرى فقط أذيال التنورة تتجرجر على أديم الأرض.

وهناك شـخص ما يخاطبهـا قائلا: «كفنـك يتجرجر على الأرض وكأنه فستان الزفاف».

تسأل شوميي: «حقاً، مثل فستان الزفاف، أليس كذلك؟».

تجيب عن سؤالها: «حسنا، أأنتم تجعلونني أشعر بالسعادة؟».

«كلا، يشبه فستان الزفاف فعلاً».

«ولكن لا أذهب إلى بيت الزوجية».

«يبدو عليك أنك تذهبين للزواج».

«لم أتزين، والعروس يجب أن تتزين عندما تتزوج».

«لـم تتزيني، ولكنك أكثر تألقاً وإشـراقاً عن تزينك في ذاك الجانب».

تقول شـوميي بصوت حزيـن ومؤلم: «لم أذهـب للزواج من وو تشاو، بل أذهب إلى قبر الراحة الأبدية».

تبدأ تتدفق دموع شوميي، ونحن لم ننطق بكلمة مرة أخرى.

وتقول: «أنا عنيدة جداً، ولا يجوز أن أتخلى عنه».

تمشـي وقلبها مفعم بالأسـى، وتقول في حزن شديد: «ماذا يفعل بمفرده في هذه الدنيا، لقد سببت له ضيرا».

بعد ذلك، سمعنا صوت بكاء شوميي يدوي في الجبال والأنهار والأودية على امتداد الطريق الطويل في الأرض السهلية.

«أســـبب له الأضرار دائماً، ففي الكوافير كان عملنا هو غسل شـــعر الزبائن، ولكن كان لديه طموح أن يرتقي بمعيشته، يغسل شعر الزبائن تارة، ويتعلم من الأسطى قص الشعر وفن تصفيف الشـــعر، وتعلم بســـرعة جداً، وامتدحه المدير، وذكـــر أنه يعتزم أن يجعلـــه الأســـطى الكبير. ويخاطبني بمنأى عـــن الأنظار أنه ينتظر حتى يصبح الأســـطى الفني في تصفيف الشـــعر بصورة رســـمية، ويزداد دخله، ويســـتقيل من العمل بعد أن يتقن مهارة فن الكوافير، ونحن الاثنان نستأجر واجهة منزل تصلح أن تكون دكاناً، ونديركوافير صغيراً من أجل تطوير حياتنا. وكانت هناك فتاة فـــي الكوافير تحبه، وتدنو منه دائمـــا، وتتحدث بود وحنو، مما جعلني أشـــعر بالسخط الشـــديد، وأبحث دائماً عن فرصة للعراك معها، وذات مرة، وقعت بيننا مشـــاجرة، وأمسكت شعري بقـــوة، وأنا أيضًا حذوت حذوها، وهرول مســـرعاً للفصل بيننا، وصرخت في وجهه وســـألته إذا كان يحبها أم يحبني أنا، وجعلته يشعر بالحرج الشديد وأصرخ بصوت حاد، والزبائن في الكوافير يديرون أجســـامهم، ويحملقون في وجهي، والمدير غاضب جداً، ويســـبني ويطلب منـــي الانصراف في التـــو. وعندما كان المدير مـــا زال يلعنني، يتقدم صديقي ويمشـــي إلى أمامـــه ويبلغه أننا لا نعمل ونســـتقيل، كما يوجه سيلاً من السباب إلى المدير قائلا: أنـــت الوغد الأحمق الذي ينصرف من هنا، ويأتي إليّ ويمســـك ذراعـــي بقوة ونغادر الكوافير، وأقول إننا لم نتقاض راتب نصف شـــهر، ويقول: الراتب الأحمق لا نريـــده، ولا نريد المعلم الأبله. وفي هذه الأثناء، انفجرت في البكاء، ويقبض عليّ بيده ويجرني ونمشـــي وقتاً طويلا، وأنا أبكي بلا انقطاع وأقول: أشـــعر بوخز

الضميــر لأنني جعلته يفقد ماء الوجه، وحطمت مســتقبله لأنه كان على وشــك أن يكون الأسطى الفني في تصفيف الشعر في وقت قريب جداً. يجرجرني بيد، ويكفكف دموعه باليد الأخرى، وفمه لا يكف عن الســباب، ويقول الأســطى الفني الأحمق، تباً لفقدان ماء الوجه، ومعلمنا لا يستحق الذكر. وفيما بعد، قلت له نبحــث عن عمل في كوافير آخر، وهو أصبح ماهراً ولديه براعة المعلم الفني في قص الشــعر، ولكنه يرغــب عن ذلك. وتعهدت بعــدم الوقوع في حبائل الغيرة مرة أخــرى، وإذا حدث أن كانت هناك فتاة تعشــقه مرة أخرى، فأنا أتظاهــر باللامبالاة، ولكنه يقــول إن المعلم لا يذهب إلى الكوافير، واضطررنا لأن نعرج على مطعم نعمــل فيه، وذكر مدير المطعم أننــي بهية الطلعة، وطلب منــي أن أكــون نادلة في الحجــرات الخاصة بكبــار الزوار في الطابق العلوي بالمطعم، أمــا هو فيعمل نادلاً في القاعة الكبيرة فــي الطابق الأســفل، ويحظى بالترحاب مــن جانب المدير لأنه دؤوب ومجدّ، وبارع ودقيق في العمل، وسيكون رئيساً للعمال في وقت قصير جداً. وفي أوقات فراغه، ينزل إلى الطابق الســفلي ويتجاذب أطراف الحديث مع الطهاة، ويقتنص الفرصة من أجل تعلــم إتقان فن الطهي. ويقوله إنه يتحلى بالصبر، وبعد أن يتقن فن الطهي بصورة حقيقية، نستقيل ونؤسس مطعماً صغيرًا.

أعمــل نادلة في حجرة طعام كبار الضيوف، ويأتي هنا دائماً التجار والمسؤولون، وذات مرة، جاء رهط من الأفراد الذين شربوا حتى الثمالة، وانبثق من بينهم شخص احتضنني وداعب أثدائي، وفــي الواقع تحملت وتجلدت وابتعــدت عنه، ولكن انفجرت في البكاء ورحــت أبحث عن صديقي، ولا يطاق ولا يحتمل أن أكون

فريســـة للظلم من جانب الآخرين، واقتحم تلك الحجرة وتعارك معهم، وهم كثر طرحوه أرضا، وأشـــبعوه ضرباً، وركلوه بالأقدام، وركلوا رأســـه، وجثمـــت بجواره أبكي بحرقة، وأتوســـل إليهم أن يكفـــوا عن ضربه. وتكف أياديهـــم وأقدامهم عن الضرب آنذاك ويحضر مدير المطعم، ويقدم لهم اعتذاره في ذلة وخضوع. ومن الجلي أنهم ظلمونا، ولكن المدير لا يســـاعدنا، بل يلعننا بشـــدة. ووجـــه صديقي يغص بالدم من جـــراء ضربهم المبرح، وأحتضنه ونخرج مـــن غرفة طعام كبار الزبائن، وبعد أن ننزل من الســـلم إلى الطابق الســـفلي، يدفعني بيـــده، ويبغي الصعود إلى الطابق العلـــوي ويخوض غمار مشـــاجرة معهم، وصعـــد عدة خطوات، وارتميـــت على رجليه وكبّلته بقوة، وأنخـــرط في البكاء وأتضرع إليه؛ وينزل من السلم، ويســـندني بيديه، ويحضن كل منا الآخر ونغـــادر المطعم. الدم ينزف من أنفه بـــلا انقطاع، والمطر يهطل في الخارج، ونمشـــي إلى الطريق المقابل، ولا يرغب في السير، ويجلـــس على الرصيف، وأجلـــس بجواره، ويغمرنـــا مياه المطر وتتبلل ملابســـنا، وتمرق المركبات الواحدة تلـــو الأخرى، وتلطخ ملابسنا بالماء المتراكم الآســـن في الشارع، ويقول مرارا وتكراراً إنه يريد أن يقتل المعلم، وأبكي بصورة مســـتمرة، وأطلب منه ألا يرتكب جريمة قتل.

ألحقـــت به الضرر مرة أخرى؛ حيث لـــم يعمل طباخاً، ونحن لا نســـتطيع أن نمتلـــك مطعماً صغيراً. ولم نعمل لمدة شـــهرين، ونقودنـــا تتضاءل أكثـــر فأكثر، ونتناول وجبة واحـــدة في اليوم، ونقودنا ســـتنفد في غضون شـــهرين. وأقول يجب أن نبحث عن عمل. ولكنه لا يرغب في ذلك. ويقول إنه يأبى أن يتعرض للظلم

والحيـف من قبل الآخرين مرة أخـرى. وأقول نفتقر إلى النقود لأننا ليس لدينا عمل، والافتقار إلى المال يعني أننا نستطيع الانتظار حتى نموت جوعاً. ويقول إنه يؤثر أن يتضور جوعاً ولا يتعرض للاعتساف والحيف. وبكيت، وبكيت بألم وحزن، وبكائي ليس بسبب أنني غضبى منه، ولكني أبكي هذا المجتمع الظالم. ويراني أنهمك في البكاء، ومن ثم يدلف إلى الخارج، ويعود أدراجه متأخراً جداً، ويحضر معه فطيرتين تنفثان بخاراً من أجلي، وأسأله من أين حصل على نقود واشترى فطيرتين؟

ويقول إنه جمع زجاجات المياه المعدنية الفارغة وعلب المعلبات الصفيح طوال اليوم، وباعها للذين يقومون باستصلاح النفايات، وحصل على نقود اشترى بها فطيرتين، وفي اليوم التالي، عندما انصرفت من البيت، خرجت معه أيضاً. ويسألني: لماذا تخرجين معي؟ وأجيب أذهب معك ونجمع سوياً زجاجات المياه المعدنية وعلب المعلبات الصفيح».

«يبدو أننا وصلنا».

«قطعنا شوطاً طويلاً من الطريق ووصلنا إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية. وعندما جئنا مندفعين بأعداد كبيرة ودلفنا إلى الداخل، يدوي في الردهة صوت دهشة وذهول من قبل منتظري حرق أجسادهم الذين شاهدوا كوكبة من الهياكل العظمية تتدافع كالمد الصاعد وتتقدم نحوهم، ويتساءلون فيما بينهم عن ماهية تلك الهياكل؟ ولماذا حضرت إلى هنا؟ ويقول شخص في هذا الجانب حيث تتراص المقاعد البلاستيكية: ربما تأخروا. ويقول شخص آخر: لقد تأخروا ردحاً طويلا. وينبعث صوت عال في ذاك الجانب حيث توجد الأرائك ويقول: هؤلاء

الأوغـــاد تأخروا بضع ســـنوات. ينبثق صـــوت خافت من هيكل عظمي بينـنـــا، ويقول: إننا خمرة «عرق» منذ عدة ســنوات، أما أنتم فـ «بيرة طازجة». تصدر الهياكل العظمية الأخرى ضحكات وقهقهات منتظمة.

ويجلس على المقاعد البلاستيكية أكثر من عشرة من منتظري حرق أجســادهم في منتصف العمر في هـــذا الجانب، ويجلس ثلاثة فقط من هؤلاء المنتظرين على الأرائك في منطقة الوجهاء والأثريـــاء في ذاك الجانب. تســـير بضعة هيـــاكل عظمية نحو الأرائك في ذاك الجانب حيث يشـــعرون بأن المكان هناك واسع وفسيح. ويأتي مسؤول يرتدي أسمالاً زرقاء بالية وقفازات قديمة ومهترئة، ويقول بصوت مدكوك: «في ذاك الجانب توجد منطقة الوجهاء والأثرياء، من فضلكم انتقلوا إلى هذا الجانب».

ويحملق في وجهي بصـــورة فجائية من تجويف العينين، وفي داخله تعج مشـــاعر الفرحة والخوف وتتمـــاوج صعوداً وهبوطاً. وفي هذه المرة يتعرف عليّ لأن زوجتي (لي تشينغ) رممت بيدها معالم وجهي.

أريـــد أن أنادي بصوت خفيض وأقول: «بابـــا»، وأفتح ثغري، ولكن لا يجد صوتاً. وشعرت بأنه يريد أن يناديني أيضاً، بيد أنه يفتقر إلى الصوت أيضاً.

وبعد ذلك، لمحت في عينيه علائم الآلام والأحزان، ويســـألني بصوت يرتعش: «أأنت..؟».

أومئ برأسي، وأشير إلى شومي في جواري: «إنها هي..».

يبـــدو أنه يتنفس الصعداء طويلا كأنه يتحرر مؤقتا من آلامه وأحزانه. ويهز رأســـه، ويمشـــي إلى ماكينة ســـحب الأرقام في

مدخـل الباب، ويســحب قصاصة ورقية ويعود ويســلمها للفتاة شومي، ورأيت الرقم (A53) مطبوعا في أعلى تلك القصاصة. وعندمــا كان يغادر المكان هنا، تفحــص بدقة في ملامحي مرة أخرى، وسمعت تنهداته العميقة.

نجلس على المقاعد البلاســتيكية هنا. وشــومي تحمل بكلتا يديهــا قصاصة ورق فــي ورع وتقوى، إنها رخصــة الولوج إلى أرض الراحة الأبدية، وتخاطبنا نحن الجالسين حولها في دائرة، وتقول:

«أذهب إلى هناك في نهاية المطاف».

ونشعر بأن ردهة منتظري حرق الجثث تغص بمشاعر رقيقة، وتجسد شومي تلك المشاعر، وتقول: «لماذا يعز عليّ فراقكم؟».

كما نشعر بأن هناك مشاعر حميمة أخرى، وتجسدها شومي مرة أخرى، قائلة: «يجب أن أشعر بالسعادة».

نقول: «نعم، يجب أن تكوني مغتبطة».

لم ترتسم ابتسامة على وجه شومي، وتعتريها بعض مشاعر القلق، ومن ثم توصينــا قائلة: «عندما أفارقكم لا أريد أن ينظر إلــيّ أحد، وأنتم عندمــا تفارقونني لا يلتفت أحــد وينظر إليّ. وعلى هذا النحو أستطيع أن أنساكم، وأستطيع أن أتمتع بالراحة الأبدية حقا».

نطأطئ رؤوســنا بانتظام علــى غرار شــعورنا بالخوف من حفيف الأوراق في الريح.

يدوي صوت في ردهة منتظري حرق أجسادهم وينادي الرقم (A 43)، وينهض أحدهم واقفاً من المقاعد البلاستيكية أمامنا، ومرتديــاً كفنه وهو عبــارة عن بذلة صينية قماشــية، ويمضي

مترنّحا. ونجلس في هدوء وطمأنينة، ولا يزال هناك منتظر حرق جسده يدخل متأخرا، ويستقبله ذلك الرجل في أسماله الزرقاء البالية وقفازاته البيضاء المهترئة ويسحب له رقما، ثم يرشده إلى مقعده البلاستيكي الذي يجلس عليه في هذا الجانب.

الهدوء والسـكون يسـودان المقاعـد البلاسـتيكية في هذا الجانـب، بينما يـدوي صوت تجاذب أحاديـث لفترة من الوقت في ذاك الجانـب حيث توجد الأرائـك. والآن يناقش ثلاثة من الوجهاء الأثريـاء منتظري حرق أجسـادهم الكفن غالي الثمن والقبـر الفاخر. وكان مـن بينهم أرسـتقراطي يرتدي كفنه من المعطف الفرو، أما الأرستقراطيان الآخران فيسألان في فضول لماذا يسـتخدم المعطف الفرو ويجعلـه كفنا؟ وكانت الإجابة على النحو التالي:

«أخشى البرد».

يقول أرستقراطي: «في الواقع إن ذاك المكان ليس باردا».

يقول أرستقراطي آخر: «صحيح، ذاك المكان دافئ في الشتاء، ودافئ في الصيف».

«من قال إن ذاك المكان ليس باردا؟».

«قال ذلك الذين يحددون موقع بناء القبر».

«كيف يعرفون ذلك، ولم يذهب أحد منهم إلى ذاك المكان؟».

«من الصعب أن نجـزم بذلك، والذين لم يأكلوا لحم الخنزير يشاهدون الخنزير يركض دائما».

«إن أكل لحم الخنزير ومشـاهدته وهو يركض يعتبران شيئين مختلفين تماما، وأنا لا أصدق دائما البيئة الروحية».

هذان الأرستقراطيان لم ينطقا بكلمة، ويردف الأرستقراطي

الذي يرتدي المعطف الفرو قائلا: «بل الذين ذهبوا إلى هناك، لم يرجع أحد منهم، ولا أحد يعرف التقلبات الجوية هناك، وإذا حدث بالمصادفة أن الطقس بارد جدا والأرض تتجمد، فإن ذلك من قبيل الاستعداد يقضي على الأخطار».

هيكل عظمي يجلس بجواري يقول بصوت خفيض: «هو لا يفهم، معطف الفرو من جلد الحيوان، وهو يتقمص ويتحول إلى حيوان بري».

ويسأل اثنان من الوجهاء الأثرياء هذا الأرستقراطي الذي يرتدي المعطف الفرو عن موقع قبره، ويقول الأخير إنه يقع فوق قمة الجبل، وتضاريس الجبل وعرة ومنحدرة، ويستطيع أن يتمتع برؤية مناظر العديد من الجبال الصغيرة من ارتفاع ثلاثمئة وستين متراً.

يومئ الأرستقراطيان برأسيهما، ويقولان: «اختيار موقع القبر رائع حقا».

الهيكل العظمي بجواري يقول بصوت خافت مرة أخرى: «إنهما لا يفهمان، تضاريس الجبل يجب أن تتحلى برأسين بارزين، وليسا متدليين. الرأسان البارزان يجعلان الأولاد والأحفاد من الأثرياء الأرستقراطيين، أما الرأسان المتدليان فيجعلان ذرية الأولاد والأحفاد يتسولون الطعام».

يدوي صوت النداء (V12) في درهة منتظري حرق الأجساد، وينهض واقفا ذلك الأرستقراطي مرتديا المعطف الفرو وجسمه مائل على غرار الحركة المعتادة التي يقتحم بها الزحام داخل حافلة النقل العام، وبعد أن يومئ برأسه إلى الأرستقراطيين الآخرين، يتقدم إلى غرفة المحرقة مزهوا بما حققه.

يترامى إلى مســامعنا صوت النداء على الرقم (A44)، وبعد أن يــدوي ثــلاث مرات ببــطء، كان النداء علــى صاحب الرقم (A45) ويــدوي ثلاث مرات ببطء أيضــا، وبعد ذلك كان النداء علــى الرقم (A46). وصوت النداء يشــبه زئير الريح في مكان بعيد في خضم الليل شديد الحلكة، كما أنه طويل ويولد الشعور بالوحشــة في النفس. وهذا الصوت المغري يجعل منتظري حرق الأجســاد في الردهة يبدون كأنهم في فضاء واســع وفســيح، وبعيدين عــن أرض الواقع. وبعد ثلاثة أرقــام خاوية لم يحضر أصحابها، يقف صاحب الرقم (A41)، وكان شــبح امرأة تتقدم إلى الأمام في حذر واحتراس.

نجلس في هدوء ونحيط شــوميي من الجهات الأربع، ونتأثر تأثــراً بالغاً باقتراب ميقات رحيل شــوميي أكثــر فأكثر. وبعد أن يرحل هذان الأرســتقراطيان وأرقامهما (V13)، و(V14)، كان النداء على صاحب الرقــم (A52)، وعيوننا لم تتمالك عن الالتفات إلى شــوميي التي تضم يديها وترفعهما أمام صدرها، وتحني رأسها وتنخرط في تفكير عميق.

وبعد النداء ثلاث مرات على الرقم (A52)، نسمع النداء على رقم شوميي وهو (A53)، وفي هذه اللحظة ننكس رؤوسنا جميعا في آن واحد، ونشعر بمغادرة شوميي مقعدها البلاستيكي.

وعلــى الرغــم من أنني أحني رأســي، وما زلــت أتخيل صورة شــوميي؛ وهي تمشــي وتجر تنورتها الطويلة التي تشــبه فستان الزفــاف، وتتقدم نحــو أرض الراحة الأبدية، بيد أنني شــاهدتها فقط وهي تترجل، ولم أر غرفة المحرقة، ولم أر القبر، وكل ما رأيته كان سيرها نحو أرض تزخر بالأزهار من كافة الألوان والأشكال.

وبعد ذلك، سمعت صوتا خفيضا يدوي ويصدر من المقاعد البلاستيكية في الجهات الأربع، وعرفت أن الهياكل العظمية تنهض واقفة وتستعد للمغادرة، كما عرفت أنها تتقهقر وتنصرف على غرار انحسار المد.

* * *

لم أنهض من مقعدي وأنصرف. وبقي هناك خمسة من منتظري حرق الأجساد يجلسون على المقاعد البلاستيكية الأمامية. يرتدي والدي الملابس الزرقاء المهترئة والقفازات البيضاء البالية، ويحني رأسه، ويقف على الجانب الأيسر للطريق الذي يسيرون عليه، وتدل ملامحه على أنه يستجيب لتحيتهم في كل وقت. وشعرت بأن شبحه المنتصب يشبه الواقف وقفة حداد. أحد منتظري حرق أجسادهم يلتفت ويتفوه ببعض الكلمات، ثم يتقدم إلى الأمام بخطوات سريعة ويجيب على أسئلة هؤلاء المنتظرين بصوت خفيض، ثم يتراجع ويعود إلى الطريق الذي يسير عليه، يحني رأسه باستمرار ويقف منتصبا. ووالدي يعمل بجد وأمانة دائماً ومخلص في عمله سواء كان في ذاك العالم وهو عالم المحيا، أم هنا في عالم الممات، فكلاهما عنده على قدم المساواة.

وبعد أن يدخل هؤلاء المنتظرون الخمسة الباقون غرفة المحرقة تباعا، تصبح ردهة منتظري حرق الأجسام خاوية على عروشها كأنها خالية من الهواء، ويوجد هناك ضوء شاحب يفصل ضوء مصباح الجدار الذي على شكل الشمعة في مكان ليس قريبا. أرى والدي خطواته ثقيلة عندما يمشي، وأهب واقفاً وأستقبله، وأمسك بإحكام أكمام والدي الخاوية حيث يوجد داخلها الهيكل

العظمي كأنه حبل دقيق وناعم. أسـند والدي اسـتعدادا للولوج إلى منطقة الوجهاء الأثرياء، حيث تنتظرنا أريكة مريحة في ذاك الجانب، ولكن والدي يمنعني، ويقول:

«هناك ليس المكان المخصص لجلوسنا».

نحن نجلس على المقاعد البلاستيكية، ويدي اليمنى تسند يد والدي اليسـرى التي يرتدي فيها القفاز الأبيض وبه فتحة تجعلني أشـعر بالهيكل العظمي لأصابع والدي، وأشـعر أنها ضعيفة وهشة لدرجة أنها تتكسـر إذا لمستها. ويحدق والدي في وجهـي، ويحاول التعرّف إلي بعيـون خالية من النظرات، وجعلنـي أشـعر بالود والحنـان، ويصعب علـيّ وصف ذلك، وأنادي قائلا:

«بابا».

والدي يحني رأسـه، ويقول بحزن: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

أقول: «بابا، أنا أبحث عنك دائماً وأبداً».

والدي يرفع رأسـه ويحدق في وجهـي ويواصل التعرف عليّ بعيـون خالية من النظرات، ويردف قائلا فـي حزن وألم: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

وأسأله: «يا بابا، أأنت خشيت أن تثقل كاهلي؟ ومن ثم تركتنا وانصرفت».

يومئ برأسـه، ويقول بصوت خافت: أريد فقط الذهاب إلى العالـم الآخر بغرض الرؤية والمشـاهدة، وأعرف أن مرضي من الصعب مداواته، ولذا فكرت في الذهاب إلى هناك.

«لماذا تذهب إلى هناك».

«أنا حزين، وعندما أتذكر أنني تخليت عنك، أشـــعر بالحزن والألم».

أقول: «بابا، أنت لم تتخل عني أبداً».

كنت أود العثور على ذاك الحجر، وأجلس فوقه فترة قصيرة، أفكر دائما في الذهاب إلى هناك، وعندما تظلم السماء، أريد أن أغشى المكان هناك، ولكن لا أذهب إلا بعد انبلاج النهار، وأراك، ويعز عليّ فراقك».

«بابا، لماذا لم تخبرني بذلك؟ وأنا اصطحبك ونذهب سويا».

«فكرت أن أخبرك بذلك، فكرت مرات عديدة».

«ولماذا لم تقل؟».

«لا أدري».

«أتخشى أن تجعلني حزينا؟».

أقول: «كلا، ولكن ما زلت أفكر أن أذهب هناك بمفردي».

«ولذلك، انصرفت بلا استئذان».

«بلى، كنت أود أن أركب قطار الليل وأرجع أدراجي».

«ولكنك لم ترجع».

«لقــد رجعت»، رجـــع بعد وفاته، «ووقفت أيامـــا طويلة قبالة الحانوت وشاهدت أناسا آخرين يخرجون من داخله».

«وذهبت أبحث عنك».

«ورأيت أناســـاً آخرين يديرون الحانوت، ومن ثم عرفت أنك تبحث عني».

أقول: «أنا أبحث عنك دائماً، وذهبت إلى ذاك الســـوق الذي شهد اندلاع النيران في اليوم الذي انصرفت فيه، وأشعر بالقلق حيال وجودك في داخله».

«أي سوق؟».

«ذلك الســوق الضخم المطلي باللون الفضي، وليس بعيدا عن الحانوت الذي كنا نمتلكه».

«لا أتذكر».

تذكرت أنه وقع في شرك آلام مرضه عندما فتح ذلك السوق أبوابه أمام الجمهور، وأقول: «أنت لم تذهب هناك».

يقول بحزن شديد مرة أخرى: «حضرت إلى هنا بسرعة على هذا النحو».

أقــول: «بحثت عنك في كافة بقــاع المدينة، كما عرجت على قريتك للهدف نفسه».

ويسألني: «هل رأيت الأعمام والعمات؟».

أجيب: «رأيتهم وشهد المكان هناك تغييرا أيضاً»، ولم أذكر أن المكان هناك تغير وبات بورا.

ويسأل: «وهل يبغضونني؟».

أجيب: «إنهم جميعا يشعرون بالحزن الشديد».

يقول: «يتعين علي زيارتهم منذ وقت مبكر».

أقول: «بحثت عنك في كل مكان، ولم يخطر ببالي أنك ركبت القطار وذهبت إلى هناك».

ويدمدم: «ركبت القطار..».

في هذه الأثناء، أبتســم وأتذكــر أن كلا منا يبحث عن الآخر في عالمين منفصلين.

ويدوي صوته الحزين المؤلم مرة أخرى، ويقول: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

«بابا، لم يدر بخلدي أن أراك هنا».

«أنا هنا أود رؤيتك كل يوم، وعلى كل حال، لم يخطر على بالي أن أراك بسرعة هكذا».

«بابا، ونحن نقيم معا مرة أخرى».

لم يكن في الحسبان أن ألتقي والدي مرة أخرى بعد الفراق الأبدي بيننا، وعلى الرغم من أن أجسامنا تفتقر إلى الحرارة، وتفتقر إلى التنفس، ولكن أنا ووالدي نقيم معا مرة أخرى. ويدي اليمنى تتحرر من أصابعه ذات الهيكل العظمي الدقيق الناعم داخل القفاز الأبيض المتهالك الذي يرتديه، وأضعها بحرص شديد على ذراعه ذي الهيكل العظمي. وعندي رغبة شديدة أن أقول له: يا بابا، أمشي معك. ولكن أعرف أنه يعشق عمله، ويحب العمل حبا جما في ردهة منتظري حرق أجسادهم، ولذلك أقول:

«يا بابا، سأحضر هنا دائما من أجل رؤيتك».

أشعر بأن ابتسامة ترتسم على وجهه ذي الهيكل العظمي.

ويسألني: «هل يعرف والداك اللذان تتحدر من صلبهما ودمهما أنك هنا؟».

«ربما ما زالا لا يعرفان».

يتهد تنهيدة، ويقول: «سوف يعرفان بالتأكيد».

لم أنطق بكلمة مرة أخرى، وهو لم يفه بحرف مرة ثانية أيضا، ويسود ردهة منتظري حرق الأجساد هدوء يشبه استعراض ذكريات الماضي، ونقدر اللحظة الغالية التي تجمعنا سويا، ويشعر كل منا بالآخر في خضم الصمت المطبق، وأشعر بأنه يركز نظراته على ندوب الجرح في وجهي، ورممت زوجتي (لي تشينغ) يدي اليسرى وأنفي وذقني، ولم نتخلص من تلك الندوب الباقية هناك.

وتبدأ يــداه اللتان داخل القفاز الأبيض المتهالك تتحسســان ذراعي وترتعش أصابعه ذات الهيكل العظمي، وأشــعر بأن هذه الملامسة الأبدية بيننا هي التواصل من جديد أيضا.

وتتســلل أصابعه إلى الشريط الأسود على ذراعي، ثم تستقر فوق ذاك الشريط بعد ذلك. ويخفض رأسه بصورة عميقة ويغرق في الآلام والأحزان المزمنة. ويدرك أنه بعد أن فارقت دنيا المحيا، أعيش في ذلك العالم وحيدا معزولا. ولم يســألني كيف أعيش هنــا، وذلك لأنه ربمــا لا يريد أن يجعلني كئيبــاً، كما لا يود أن يجعلني حزينا. وبعــد فترة قصيرة، يقول بصوت خافت: أود أن أضع ذاك الشريط الأسود على ذراعي. وكانت ذلك رغبة والدي الحميمة، وســمعت ذلك بأذني. وأطأطئ رأسي، وأنزع الشريط الأسود من ذراعي وأعطيه إياه، ويخلع القفازات البيضاء وتتململ عشــرة أصابع من الهيكل العظمي وتقترب من الشريط الأسود، كما تهز ذاك الشريط المعلق على كمي الأجوف.

وبعــد أن يضع يديه فــي القفازات البيضــاء المتهالكة، يرفع رأســه ويحملق في وجهي، ولمحت حبتين من الدموع تنهمران من تجويــف عينيــه. وعلى الرغم من أنه حضر هنــا في وقت أبكر منــي، بيد أنــه ما زال يذرف الدموع حزنا وكمدا على الشــباب الذين يودعهم العجائز.

* * *

«يخبرني شــخص ما بأن الســير في هذا الاتجــاه يجعلني أستطيع رؤية صديقتي».

«من صديقتك؟».

«تلك الفتاة التي تعتبر أجمل فتاة هنا».

«ما اسمها؟».

«اسمها ليوميي، كما تدعى شوميي أيضا».

وفي طريق عودتي، يتقدم نحوي شخص يسير بخطوات سريعة، ويمسك بطنه بيده اليسرى دائما، وجسمه مائل قليلا، وشكله يدل على أنه يعاني من مرض خطير، وتعرفت على ذلك الشخص العجول صاحب الشعر الأشعث الأسود الذي يشبه قبعة من الفرو، وتذكرت تسريحة شعره زاهي الألوان، ومن المفترض أنه لم يصبغ شعره منذ فترة طويلة جدا، كما أنه لم يقص شعره أيضا.

«أنت وو تشاو».

«كيف عرفت اسمي؟».

«أنا أعرفك».

«كيف تعرفت علي؟».

«أثناء تأجير غرفة».

انتباهي وتركيزي يبددان أمارات الحيرة على وجهه رويدا رويدا، ويحملق في وجهي قائلاً: «أشعر بأنني فيما يبدو رأيتك في مكان ما».

أقول: «عندما كنت تستأجر غرفة».

يتذكر ذلك، ويفتر ثغره عن ابتسامة، ويقول: «نعم، حينما كنت أستأجر غرفة».

أراه ما زال يمسك بطنه بيده اليسرى، وأسأله: «ما زلت تشعر بالألم، أليس كذلك؟».

يقول: «لا أشعر بألم».

يسبل يده اليسرى عن بطنه، ثم يعود إلى هنا مرة أخرى حسب عادته، ولا تزال يده تمسك بطنه.

أقول: «نعرف أنك بعت كلية من أجل أن تشتري قبرا لصديقتك شوميي».

يحدق بوجهي في حيرة وارتباك، ويسأل: «من أنتم؟».

تشـير إصبعي إلى الاتجاه في الأمـام، وأقول: «الناس هناك في ذلك الجانب».

«من الناس الذين هناك في ذلك الجانب، من هم؟».

«كل الذين يفتقرون إلى قبر يقيمون هناك».

يطأطئ رأسـه كأنه فهم كلامي. ويسألني مرة أخرى: «كيف عرفتم ذلك؟».

يقول: «شياو تشينغ حضر وأخبرنا بذلك».

ويسأل: «أحضر شياو تشينغ أيضا؟ ومتى حضر؟».

أقول: «من المفترض قبل ستة أيام، وكان يضل طريقه دائما، وأمي حضرت إلينا هناك».

«ولماذا حضر شياو تشينغ؟».

«بسـبب حادثة سير، حادثة سـير وقعت في خضم الضباب الكثيف».

يقول في حيرة وارتباك: «لا أعرف الضباب الكثيف».

ويؤكد أنه لا يعرف الضباب الكثيف، وتذكرت أن شياو تشينغ قال إنه ينام في ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض.

أقول: «كنت في ذلك الملجأ آنذاك».

يومئ برأسه، ثم يسألني: «كم مضى من الوقت على حضورك هنا؟».

«سبعة أيام».

«وأنت؟».

«يبدو أنني حضرت تواً».

أتذكر أنه وشـــومي قد حضرا جنبا إلى جنب، وأقول: «إذن، حضرت اليوم».

تعلو وجهه علائم الشـــوق واللهفة، ويقول: «أنت رأيت شومي بالتأكيد».

أومئ برأسي، وأقول: «رأيتها».

يسأل: «أتشعر شومي بالسعادة هناك؟».

أقول: «ســـعيدة جدا، وعندما عرفت أنك بعت كليتك من أجل أن تشتري لها قبرا انفجرت في البكاء، وبكت بحزن شديد جدا».

«هل ما زالت تبكي إلى الآن؟».

«لا تبكي الآن».

«أستطيع رؤيتها فورا».

ويشـــبه تعبير العينين المغتطبتين ظل ورقة شجر يغمر وجهه على هذا النحو.

أتردد قليلا، وأقول: «أنت لا تراها، لقد رحلت إلى قبرها تنعم بالراحة الأبدية».

«هل ذهبت إلى قبرها حيث الراحة الأبدية؟».

ظل ورقة الشـــجر المبتهج يبتعد عن وجهـــه ويحل محله ظل ورقة الشجر الحزين.

ويسألني: «متى تذهب؟».

أجيب: «اليـــوم، ذهبت هناك عندما حضـــرت أنت هنا، لقد ضاعت منكم فرصة اللقاء».

يحني رأسه، ويبكي في صمت ويمشي إلى الأمام. يسير فترة قصيرة ويكف عن البكاء، ويقول في ألم ممض: «كان من الأفضل

أن أحضر هنا مبكرا بيوم حتى أستطيع رؤيتها».

أقول: «إذا حضرت مبكرا بيوم تستطيع رؤية الفتاة شومي المتألقة الجديرة بالاحترام».

يقول: «هي دائما متألقة وتحظى بالاحترام والتقدير».

أقول: «حينما توجهت إلى أرض الراحة الأبدية كانت أكثر تألقا واحتراما وتقديرا، وترتدي تنورة طويلة تشبه فستان الزفاف، وتجرجر أذيال التنورة على أديم الأرض..».

يقول: «ليس عندها تنورة طويلة هكذا، ولم أرها ترتدي تنورة طويلة على هذا النحو».

أقول: «تلك التنورة الطويلة كانت في الأصل بنطالا رجاليا طويلا».

يقول في حزن وأسى: «أعرف، وقد قرأت على صفحة الفيسبوك أن بنطالها قد تمزق إرباً، وارتدت بنطال أناس آخرين».

أقول: «إنه رجل صالح قدم لها بنطالا لترتديه».

نمشي في صمت مطبق إلى الأمام، والأرض السهلية الفسيحة الشاسعة ما زالت على حالها، وجعلتنا نشعر بأن خطواتنا كأنها تدوس على أرض بكر.

ويسألني: «أتشعر شومي بالسعادة؟، هل كانت مسرورة حينما ذهبت إلى قبرها وترتدي التنورة الطويلة؟».

أقول: «مسرورة جدا، تخشى فصل الربيع، تخاف أن جمالها يفسد ويتعفن، وكانت تشعر بسعادة غامرة لأنك اشتريت قبرا لها، وتستطيع أن تنعم بالراحة الأبدية، حيث إن فصل الربيع لم يأت بعد، وذهبت للراحة الأبدية وهي في كامل جمالها، وقلنا

إنها ليست مثل الذين يذهبون إلى القبر، بل إنها تشبه العروس في ليلة زفافها، والألم يعتصر في قلبها عندما سمعت ذلك، وتبكي في حزن وأسى».

يسأل: «لماذا تبكي؟».

أقول: «بكت لأنها تذكرت أنها تذهب إلى قبر الراحة الأبدية، ولا تذهب للزواج».

يشعر وو تشاو بحزن دفين، وعندما يمشي إلى الأمام يرفع يده اليمنى التي تتأرجح، كما يرفع يده اليسرى التي يمسك بها بطنه دائماً، ويكفكف عينيه بيديه تارة، ويمشي تارة أخرى.

يقول: «لا يجوز خداعها حقًا»، ويردف: «لا يجوز خداعها من خلال شراء الهاتف الخلوي المغشوش IPhone، وهي تتطلع بشغف إلى اقتناء ذلك الهاتف الخلوي، ويلوك لسانها بهذه الرغبة، وهي تعلم أنني تعوزني النقود ولا أستطيع شراء IPhone الحقيقي، وهي لا تملك سوى التطلع وبشوق إلى الهاتف الخلوي وتتحدث عنه دائماً وأبداً، ولا يتعين علي خداعها وأشتري لها بضاعة مغشوشة، وأعرف السبب وراء انتحارها، ولا يكمن في أنني اشتريت بضاعة مغشوشة، بل يكمن في خداعي لها».

يسبل يديه بعد أن كفكف عينيه، ويقول: «وإذا أخبرتها بأن الهاتف الخلوي ليس حقيقيا ويوجد في جعبتي النزر اليسير من النقود، ربما تشعر بالسعادة وتقفز في الهواء وتحتضنني، وهي تعرف أنني أبذل قصارى جهدي من أعماق قلبي. وهي تعاملني معاملة طيبة، وعاشت معي ثلاث سنوات، وعاشت أياما مرة في تلك السنوات. ونتشاجر دائما لأننا فقراء، وأستشيط غضبا في أغلب الأحيان، وأسبها وأضربها، ولا أستطيع تحمل

ذلــك كله عندما أتذكره، ولا يجوز أن يتملكني الغضب، ولا يجوز أن ألعنهــا وأضربها، ونئن من وطأة الفقر مــرة أخرى، ونتذوق مرارة العيش مرة أخرى، وهي لا تفارقني أبدا، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحزن ولا تفارقني أبدا، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحــزن ولا تفارقني أبدا، وبعد البــكاء ما زالت تعيش معي جنبا إلى جنب. ولديها شقيقة تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي، وتصعد خشبة المسرح مساء كل يوم وتؤدي بعض الأعمال الفنية، وتكسب عشــرات الآلاف في الشــهر الواحد، وتود أن تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي أيضًا، وتقول إذا عملت هناك بضعة أعوام وكسبت المال الكافي، ترجع معي إلى مســقط رأسي، ونبني بيتًا ونتزوج، وتقــول إن أقصى أمانيها أن تتزوجني. وأنا لم أوافق. ومع ذلك، لا أتحمل أن يلمســها الرجال الآخــرون، وقد ضربتها، وفي تلك المــرة ضربتها حتــى تورم وجهها، وهي تبكــي وتصرخ وتريد أن تفارقني. وفي بكور اليوم التالي تحتضنني، وتخبرني بأنها تشعر بتأنيب الضمير نحوي، وتقول إنها لا تسمح للرجال الآخرين بأن يلمسوا جسدها إلى الأبد. وعندما تعاجلني المنية، فإنها لا تسمح لأي رجل أن يتحسس جسمها، وإنها تريد أن تكون أرملة. وأقول إننــا لم نتــزوج بعد، وحينما أرحل عن هــذه الدنيا، لا يمكن أن تقولي إنك أرملة، وتقول إنني أهذي بالكلام، وحينما أنت تموت أصبح أنا أرملة. وفي شــتاء العام المنصرم، الذي كان أكثر برودة عــن هذا الشــتاء، انتقلنا إلى ملجأ ضد الغــارات الجوية تحت الأرض توا، وجيوبنا خاوية من النقود، ولم نحصل على عمل بعد، ونستلقي فوق الفراش طوال اليوم، ونحتسي فقط بعضاً من الماء الســاخن، وهي تطلب الماء الســاخن من الجيران، وعندما يأتي

الماء نتضــور جوعا وتتوتر أعصابنا، وتنزل من الفراش، وترتدي ملابســها، وتقول إنها تدلف إلى الخارج، وتســتجدي بعضا من الطعام. وأقول كيف تســتجدين الطعام من الآخرين؟ تقول إنها تقف وتســتجدي المارة، وأنا أرفض ذلك، وأقــول إن ذلك يعتبر تســولاً. تقول: أنت لا ترغب في الاضطلاع بالاســتجداء، إذن، ابق في مكانك على السرير، أما أنا فأستجدي بعضا من الطعام من أجلك. ولا أســمح لها بالخروج، وأقول: أنا لا يمكن أن أكون متســولا، وكذلك لا أسمح أن تكوني متسولة أيضا. وتقول كلانا يموت جوعا، وأنت لا تزال تهتم إذا كان تســولا أم لا. وهي تصر على الخروج، واضطررت لأن أرتدي ملابســي المحشوة بالريش وأتبعها ونخرج من ملجأ ضد الغارات الجوية. كان الجو بارد جدا في مساء ذلك اليوم، وتهب ريح عاتية وتقتحم رقبتي إلى صدري. وأنا وهي نقف في الشارع، وهي تقول للمارة: لم نأكل شيئا طوال اليوم، يمكن أن تعطوني النزر اليســير من المال. ولم يعرها أحد اهتماما، ونحن نقف وســط الريح الباردة أكثر من ساعة، وتقول إنها لا تســتطيع هكذا أن تستجدي الطعام، يجب الوقوف خارج باب مطعم والانتظار هناك. وتســحب يدي، ونمشــي في خضم قســاوة برودة الريح حتى نصل إلى مخبز مشــرق، كما تسحب يدي ونمشي ونعود مرة أخرى، وتطلب مني أن أقف في الخارج، وتدلف إلى الداخل، وأشــاهدها عبر الزجاج الشــفاف تمشــي أولا إلى الكونتر، وتتحدث مع الندل الذين يطأطئون رؤوســهم، كما تمشــي إلى أمام رهط من الأشخاص الذين يجلسون هناك يأكلون الخبز ويحتســون الماء الســاخن، ويتحدثــون معها بضع كلمات، ويهزون رؤوســهم أيضًا. وأدرك أنهم يرفضون إعطاءها

خبزا، وتدلف إلى الخارج وكأن شـــيئا لم يحدث، وتسحب يدي، ونمشي إلى مدخل مطعم يبدو فخما جدا، تقول نحن ننتظر هنا، وعندمـــا يخرج الزبائن بعد أن تناولوا الطعام، وفي أياديهم علب بقايـــا الطعام، وتطلب منهم علبة. وفي هذه الأثناء، كنت أشـــعر بالجوع، كما أشـــعر بالبرد أيضا، وأقف مرتعشا غير ثابت وسط الريح شـــديدة البرودة، ويبدو أنها لا تشـــعر بالبرد ولا بالجوع، وتقـــف هناك تترقب خروج الزبائن فـــي جماعات، ولم تر أحدا منهـــم يحمل في يده علبة بقايا الطعام، بل شـــاهدت فقط أنهم يستقلون السيارات الفارهة التي تأتي الواحدة تلو الأخري. وذلك المطعـــم فاخر جدا، وزبائنه جميعهم من الأثرياء الذين لا يعبّئون بقايا الطعام في علب. وبعد ذلك، كان هناك رجل يشـــبه التاجر تماما يودع بضعة من الأفراد الذين يشـــبهون المســـؤولين تماما، يقـــف أمام مدخـــل المطعم ويتصل هاتفياً بســـائقه، وتتقدم إليه وتخاطبه: نحن لم نأكل شـــيئا طوال اليوم، ونحن لا نريد طعاما، ولا نريـــد نقودا، نطلب فقط أن تغمدنـــا بطيبة قلبك ورحمتك، وتذهب إلى المخبز المجاور وتشـــتري لنا رغيفين من الخبز. يغلق ذلك الرجل التاجر في منتصـــف العمر هاتفه الخلوي، ويحملق في معالـــم وجهها، ويقول أنت جميلة هكذا، وتحتاجين رغيفين؟ ويقـــول إن الجمـــال لا يمكن أن يصبح خبزا نأكله، يبتســـم ذلك الرجل ويقول إن الجمال في الواقع لا يمكن أن يكون خبزا، ولكن الجمال رأس مال غير مرئي. تقول: رأس المال الذي لا تراه العين يكـــون زائفاً، بينما بالخبز يكون حقيقة ماثلة. يصدر ذلك الرجل صوت آه، ويخاطبها قائلا: أنت جميلة، وذكية أيضا، أنت تمشين معي، وتتبعينني وتستطيعين أن تأكلي كل ما تشتهين. تدير رأسها

وتشـــير إلي، وتقول: إنه يشـــاطرني حياتي. يحملق ذلك الرجل في وجهي، وتعابيـــر عينيه تبدو كأنها تتكلم، ويقول: ذلك الغلام الحقير الفقير.

تأتـــي ســـيارة ذلك الرجـــل في منتصـــف العمر مـــن ماركة «مرســـيدس»، ويفتح باب الســـيارة ويخاطب السائق في الداخل ويطلـــب منـــه أن يذهب إلى ذلك المخبز ويشـــتري أربعة أرغفة. ينزل الســـائق من السيارة، ويعدو إلى المخبز عدوا وئيدا، ويدوي صـــوت رنين الهاتف الخلوي لذاك الرجل الذي يســـتقبل المكالمة الهاتفية. يشـــتري ســـائقه الخبز ويعود مهرولا، يتصل بالهاتف الخلوي تارة، ويتحدث إلى ســـائقه تارة أخـــرى، ويطلب منه أن يعطي لهما الخبز.

يســـلمها السائق كيســـا ورقيا معبأ داخله أربعة أرغفة، وهي تتقـــدم بالشـــكر والامتنان لذلـــك الرجل الذي يركب ســـيارته المرسيدس وتنطلق به. تمد يدها إلى داخل الكيس، وتكسر قطعة من الخبز الســـاخن الذي خرج توا وتدســـها في فمي، كما تضع لباســـها داخل ذلك الكيس أيضا، يدها من جليد تســـحب يدي الباردة، وتقول لي: نعود أدراجنا ونأكل الخبز.

نعود أدراجنا إلى مســـكننا تحت الأرض، وتطلب كوبا من الماء الســـاخن من الجيران أيضا، ونحن الاثنان نجلس على السرير، وتطلب مني أن أرتشـــف رشـــفة من الماء الســـاخن، ثم بعد ذلك آكل الخبز، وهي تخشـــى أن يحدث لي غصة. وهي في نشوة من الفرح كأنها لم تعد مهمومة بالطعام والشراب من الآن فصاعدا. وانفجرت في البكاء بحزن وألم بصورة فجائية حينما كنت أتناول الخبز، وألتهم دموعي في داخلي، وأزدرد الخبز في فمي، وأقول

لهــا يجب علينا أن نفترق، وألا تتبعيني وتعيشـــي حياة الشـــقاء والعذاب. تضع قطعة الخبز التـــي كانت تأكلها، وتنهمر دموعها كالشـــلال، وتخاطبني قائلـــة: لا تفكر أن تتركنـــي وراء ظهرك، وعلاقتـــي بك قائمة معك طوال حياتـــي، وحينما أموت وأصبح شبحا، فإن علاقتي لا تنقطع معك أبدا.

هي جميلة وحسناء، وهناك كثر يخطبون ودها، وهم يكسبون نقـــودا أكثر مني، ولكـــن هي مصممة على رأيهـــا وتلازمني في أيـــام الفقر. وقد تجأر بالشـــكوى في بعض الأحايين، وتشـــتكي أنها تصطحب رجلا لا يحقق آمالها، ولكن تكتفي بالكلام فقط، وبعد أن تجيش بما يعتمل في داخلها تنســـى أنها تعيش مع رجل بلا أمل».

ترتســـم ابتسامة على وجه وو تشاو، وقد قطعنا شوطا طويلا من الطريق، ولا تزال الأرض الســـهلية المترامية الأطراف تساور الجهات الأربع، وما زلنا نسير في وحدة وعزلة. وبدأت الابتسامة على وجه وو تشاو تكون سعيدة ومريحة، وبدأ يسرد مشهد لقائه الأول مع شومبي:

«عندمـــا رأيتها للوهلة الأولى منذ ثلاث ســـنوات خلت، كانت عاملة غســـيل الشـــعر في كوافير، وعند عبوري الشارع، ألقيت نظرة عابرة علـــى الكوافير ورأيتها (شـــوميي) تقف أمام الباب تســـتقبل الزبائن، كمـــا نظرت إلي بصورة عابـــرة، ويقفز القلب بين ضلوعي آنذاك، ولم أر فتاة جميلة هكذا، وأشعر بأن روحها تجذبها من داخلي عندما تنظر إلي بعينيها، ومشـــيت إلى الأمام أكثر من عشـــرين مترا، ولم أستطع المضي قدما إلى الأمام مرة أخرى، وهي لا تزال واقفة أمام الباب، وعندما رأيتها ألقت علي

نظـــرة عابرة جعلــت نبضات قلبي تقفز بســـرعة جدا، وترددت فتـــرة قصيرة أيضًا بعد عودتي إلـــى هناك، ورجعت مرة أخرى، وكانت الفتاة الواقفة آنذاك أمام الباب لاســـتقبال الزبائن ليست شومبي. إنها تغســـل الآن شعر أحد الزبائن في داخل الكوافير، وشـــاهدت وجهها يســـطع في المرآة من خلال الزجاج الشفاف، وعيونهـــا في المرآة تراني، وفي هذه المرة حملقت في وجهي فترة قصيرة. وبعد أن ذرعت المكان حـــول ذلك الكوفير ذهاباً وإيابا، اســـتجمعت شـــجاعتي ودلفت إلى الداخل، وتعتقـــد الفتاة أمام الباب أنني أبغي قص شعري، وتخاطبني قائلة يشرفنا حضوركم، وأسألها بصوت مرتعش: أين المدير؟ يقول رجل يقف خلف كونتر المدفوعات النقدية: أنا المدير. وأســـأله: هل تحتاج عاملاً يغسل الشعر هنا؟ ويجيب: لا نحتاج الآن، والكوافير الذي أمامنا يبحث الآن عن عامل غسيل الشعر، اذهب إلى هناك.

أنصـــرف من ذلك الكوافيـــر، والصرامة تعلو وجهي، ولا أجرؤ على أن أنظر إلى عيون شـــومبي، ومشيت في الشارع وقتا طويلا، ولا أســـتطيع بأي حال من الأحوال أن أنسى عيون شومبي، وبعد انقضاء يومين، اســـتجمعت قوتي مرة أخرى، ودخلت وأسأل ذلك المدير إذا كان يحتاج عاملاً يغســـل الشـــعر أم لا؟ ولا يزال المدير يقتـــرح أن أذهب إلـــى الكوافير في الجهة المقابلـــة. وذهبت أربع مرات في غضون شهر بعد ذلك. وشعرت بأن شومبي تحملق في وجهي بمجرد دخولي. وفي المرة الرابعة، وعندما دخلت إلى هناك تزامن ذلك مع اســـتقالة عامل غسيل الشـــعر، ومن حسن حظي أننـــي قمت بعمله. كما حملت رقمه في العمل وهو (7). وفي ذلك الحين، شومبي تحملق في وجهي وتبتسم من زاوية فمها المائل.

وفـي مسـاء ذاك اليوم الذي تسـلمت فيه العمـل في ذلك الكوافيـر، كان عدد الزبائن الذين يقصون شـعرهم غير كبير، وشوميي تجلس على الكرسـي وتقلب صفحات مجلة «فن قص الشـعر»، تطالع صفحات المجلة تارة، وترفع رأسـها وتنظر إلى نفسـها في المرآة حيث يتطاير شعرها وكأنها تبحث لنفسها عن أجمل تسريحة شـعر، وأجلس على كرسي بجوارها لأنني أشعر بالتوتر، وألهث بسـرعة وبقوة، وتدير شـوميي وجهها وتسألني: هـل أنت مصاب بمرض الربو؟ أطأطئ رأسـي بسـرعة وأقول لسـت مصابا بالربو، وتقول شـوميي: أنت تلهث بصوت غريب يبث الخوف في نفوس الآخرين.

أجلس بجوارها وأشـعر بالتوتر أكثر فأكثر، وأخشى أن يكون صوت لهاثي يشبه الربو، وأتنفس بحذر شديد كأنني على وشك الاختنـاق، وهي ما زالت تقلب صفحات مجلة فن قص الشـعر وتصمم بنفسـها أنواعا جديدة من تسـريحات الشعر المختلفة، وأسـتجمع قوتي وأسـألها: ما اسـمك؟ لا ترفع رأسـها أيضا وتجيب: الرقم (3). ويبدو صوتها باردا فاترا، وشـعرت بالحزن الشـديد، ولكن بعد فترة قصيرة ترفع رأسها وتحملق في وجهي وتبتسـم وتسألني: ما اسـمك؟ أقول في اضطراب: الرقم (7). تبتسـم وتسـألني مرة أخرى: ما اسـم الرقم (7)؟ وأكاد أتذكر اسـمي توا، وأقول: الرقم (7) اسـمه وو تشـاو، تغلق صفحات المجلة وتخاطبني: رقم (3) اسمها ليوميي».

يتوقف وو تشـاو فجأة، وتتوقف خطواته إلى الأمام، ويسرح نظره في الأمام، وتبدو علائم الاسـتغراب والدهشة على وجهه، ويرى المشهد الذي رأيته هنا من: تدفق المياه، والأعشاب الخضراء

التي تنتشـــر على أديم الأرض، والأشجار ناضرة الزهرة، وتغص أغصان الأشــجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشــجار تشــبه القلب تماما، وعندما تهتز وتتمايل تشــبه نبضات ودقات القلب. وهنـــاك كثرة كاثـــرة من الناس، وعدد كبير من البشـــر من ذوي سائر الهياكل العظمية، ناهيك عن بعض البشر من ذوي الأجسام السليمة التي تذرع المكان هناك جيئة وذهابا.

يدير جسمه نحوي في دهشة وذهول، وتعابير الشك والحيرة كأنهـــا توجه إلي الأســئلة. وأقول له: امـــش، توجد هناك أوراق أشجار تلوح إليك بيدها، وهناك حجر يبتسم في وجهك، وهناك مياه نهـــر تقدم لك التحيـــة. ولا يوجد هناك فقـــر وبؤس، كما لا توجـــد الثـــروة والجاه، لا توجد أحزان، كمـــا لا توجد آلام، لا يوجد حســـد، ولا توجد كراهية أيضا.. البشر هناك ماتوا وهم على قدم المساواة.

ويسأل: «أي مكان يوجد هناك؟».

أقول: «هناك توجد أرض الأموات الذين لم يدفنوا».

المترجم في سطور

أ. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

● من مواليد عام 1959 - المنصورة - جمهورية مصر العربية.
● اختصاصي بالصينولوجيا عن دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
● رائد الدراسات الصينية في الشرق الأوسط.
● مؤسسة مدرسة الترجمة من الصينية إلى العربية.
● صاحب المركز السادس عالميا في مجال الدراسات الصينولوجية منذ عام 2010.
● المترجم الأول للكتب والمؤلفات باللغة الصينية.
● رئيس قسم اللغة الصينية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
● رئيس شعبة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
● مؤسس مجلس الأعمال المصري الصيني المشترك في العاصمة الصينية بكين في عام 2002.
● له عشرات المقالات الصحافية والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية لمختلف قنوات الإذاعة والتلفزيون، ونشر سلسلة من المقالات والدراسات والأطروحات، وكتابة سلسلة من الدراسات السياسية حول الصين، والمشاركة في إقامة العديد من الندوات والمؤتمرات الصحفية والإعلامية في مصر والصين.
● له العديد من الكتب المترجمة، مثل: مسرحية (شروق الشمس)، سلسلة من المسرح العالمي - الكويت - العدد 244. كتاب (الصينيون المعاصرون)، سلسلة عالم المعرفة - الكويت - الجزءان الأول والثاني العددان 210 و211. مسرحية (المقهى): مشروع الترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - العدد 479، وكذلك سلسلة إبداعات عالمية - الكويت - العدد 354.
● له عدة إصدارات في مشروع «كلمة».
● ألف الكثير من الكتب منها: كتاب (التجربة الصينية)، إصدار أم القرى للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة عام 1997. وكتاب (المسلمون في الصين)، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة 2005.

المراجعة في سطور

لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام 1966.
- حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة من كلية طب العاصمة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تدرس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقسم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - شعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيفو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: -1 محنة الأخ جيرو -2 تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «أنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندجي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايفيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369 «الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي) — تأليف: ييجى شانيافسكي
370 ليلة التنبؤ (رواية) — تأليف: بول أوستر
371 هذا الجيل المحظوظ (مسرحية) — تأليف: نويل كاورد
372 لا وجود لخصومات صغيرة — تأليف: أمادو همباطي با
373 الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية) — تأليف: جيروم لورنس وروبرت اي. لي
374 مختارات من الشعر الإيراني الحديث — تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375 العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول) — تأليف: بول بولز
376 العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني) — تأليف: بول بولز
377 «الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر) — تأليف: فروغ فرخزاد
378 شارع بريك لين (الجزء الأول) — تأليف: مونيكا علي
379 شارع بريك لين (الجزء الثاني) — تأليف: مونيكا علي
380 الطريق (رواية) — تأليف: كورماك مكارثي
381 مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية — تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382 عشيق الصين الشمالية (رواية) — تأليف: مارغريت دوراس
383 المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول) — تأليف: إرنست همنغواي
384 المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني) — تأليف: إرنست همنغواي
385 المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث) — تأليف: إرنست همنغواي
386 النمر الأبيض (رواية) — تأليف: آرافيند آديغا
387 موطن الألم (رواية) — تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388 فيلا أماليا (رواية) — تأليف: باسكال كينيارد
389 الإحساس بالنهاية (رواية) — تأليف: جوليان بارنز
390 ياسمينة (وقصص أخرى) — تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391 المغامرة الغامضة (رواية) — تأليف: شيخ حامد كَان
392 الرجال الذين يحادثونني (رواية) — تأليف: أناندا ديفي
393 أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة — تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394 حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال — تأليف: أمادو همباطي با
395 خرائط (رواية) — تأليف: نور الدين فرح
396 إله الصدفة (رواية) — تأليف: كريستن توروب
397 أزهار عباد الشمس العمياء (رواية) — تأليف: ألبرتو مينديس

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرُّقة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إنِّي أتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينكِينوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْريش هاينَه
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كَريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون

قسيمة الاشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسرح العالمي	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	20	-
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	10	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	24	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	12	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	-	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	-	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	-	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	-	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك ☐ تجديد اشتراك

الاسم:	
العنوان:	
اسم المطبوعة:	مدة الاشتراك:
المبلغ المرسل:	نقدا/ شيك رقم:
التوقيع:	التاريخ: / / ٢٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.

وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص.ب: 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب

يو هوا

ولد في مدينة هانتشو بالصين الشعبية في العام 1960.
عمل طبيب أسنان. ثم التحق بقسم الأدب في جامعة المعلمين في بكين. وبدأ الإبداع الأدبي والتأليف في العام 1983.
كتب خمس روايات طويلة وست روايات متوسطة. ومن أهم أعماله: «مسافر في الثامنة عشرة من عمره». و«خطايا على ضفة النهر». و«هتاف وسط الأمطار». و«الأشقاء». و«اليوم السابع».
تُرجمت بعض أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. ونشرت في أكثر من ثلاثين دولة.
حصل على العديد من الجوائز منها: الجائزة الايطالية «جرين زانا كافور» (1998). وجائزة «فارس» الفرنسية (2004). وجائزة كتب الصين للمساهمة الخاصة (2005). والجائزة الفرنسية للرواية الأجنبية (2008).

اليوم السابع

رواية «اليوم السابع» هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في هذا العصر. كتبها الأديب الصيني يو هوا خلال رحلته التعيسة في مسار جحيم الدنيا وجحيم الآخرة. إنها رواية «الآلام والأوجاع» التي تئن من وطأتها كافة النماذج البشرية في المجتمع الصيني المعاصر بأسره.

الرواية تسرد قصة بطلها ويدعى «يانغ فيي». يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. ويفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته. ففي اليوم الأول من مماته. يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية». ولا يستطيع أن يحرق جسده. لأنه يفتقر إلى قبر يواري جثته. ويمشي الهويني في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وهناك يقابل بشراً من كافة الأصناف والأطياف يرزحون تحت وطأة المشاعر الكئيبة والأحاسيس الحزينة مثل: الفتاة (شومبي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفا خلويا مغشوشا. ويبيع صديقها (وو تشاو) كليته من أجل أن يشتري لها قبرا. ثم تعاجله المنية بعد أن أصابه التلوث من جراء استئصال الكلية.

عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يدفنوا في العالم الآخر. سنحظى بسويعات تسمو فيها نفوسنا. ويصقل وجداننا. وقد يطوف طائف من الحزن. وتظفر الدموع من عيوننا. ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا. وتحليق عقولنا. وصفاء خواطرنا. وكأننا قد نقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة. وأكثر طهارة. وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

على هذا النحو. نشعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه. ويفضي إلينا بدخائل نفسه. فقد أكمل الدائرة بين الموت والحياة. وحقق أقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق. وتحري الوقائع. ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى المجتمع المعاصر في الصين. وتوهج قلمه في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنسان.

ISBN: 978-99906-0-502-0

إبداعات عالمية